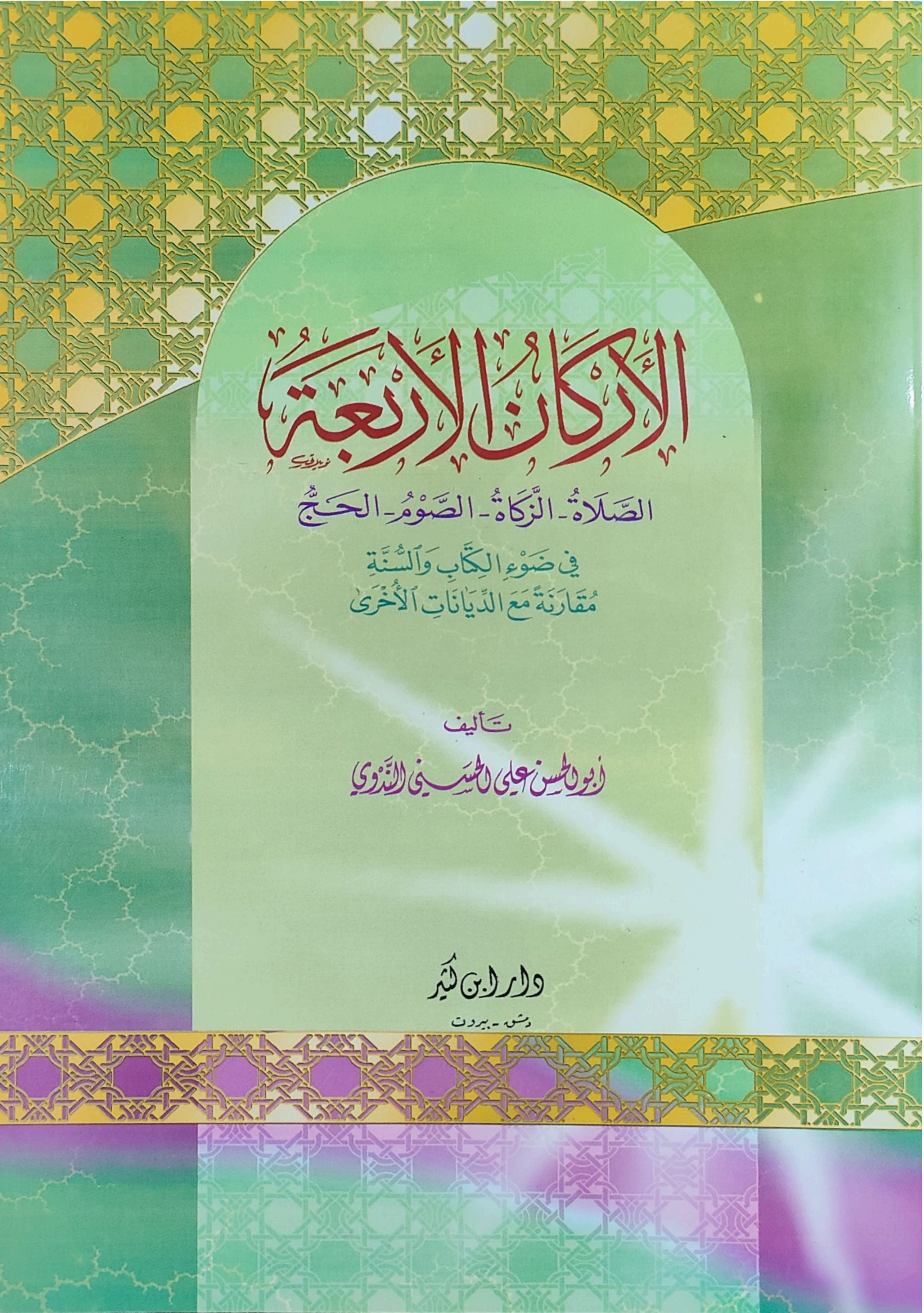
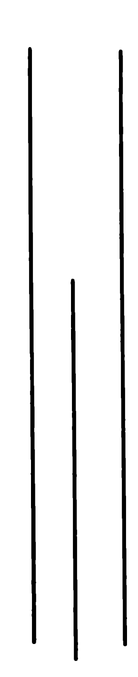

الأركان الأربعة
الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج
في ضوء الكتاب والسنة
مقارنة مع الديانات الأخرى
تأليف
أبو الحسن علي الحسني الندوي
دار ابن كثير
دمشق - بيروت



الأركان الأربعة

الصَلاةُ - الزَكاةُ - الصَوْمُ - الحَجُّ



الطبعة الثانية

1427 هـ ـ 2006 م



للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : عبادات

العنوان : الأركان الأربعة

التأليف : العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لون واحد

عدد الصفحات : 320

القياس : 17×24

نوع التجليد : غلاف

الوزن : 0.6 كغ

التنفيذ الطباعي : مطبعة ابن خلدون

التجليد : مؤسسة حسين عبيدي للتجليد

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 ـ جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

دار ابن كثير

الأركان الأربعة

الصَّلاةُ - الزَّكاةُ - الصَّوْمُ - الحجُّ

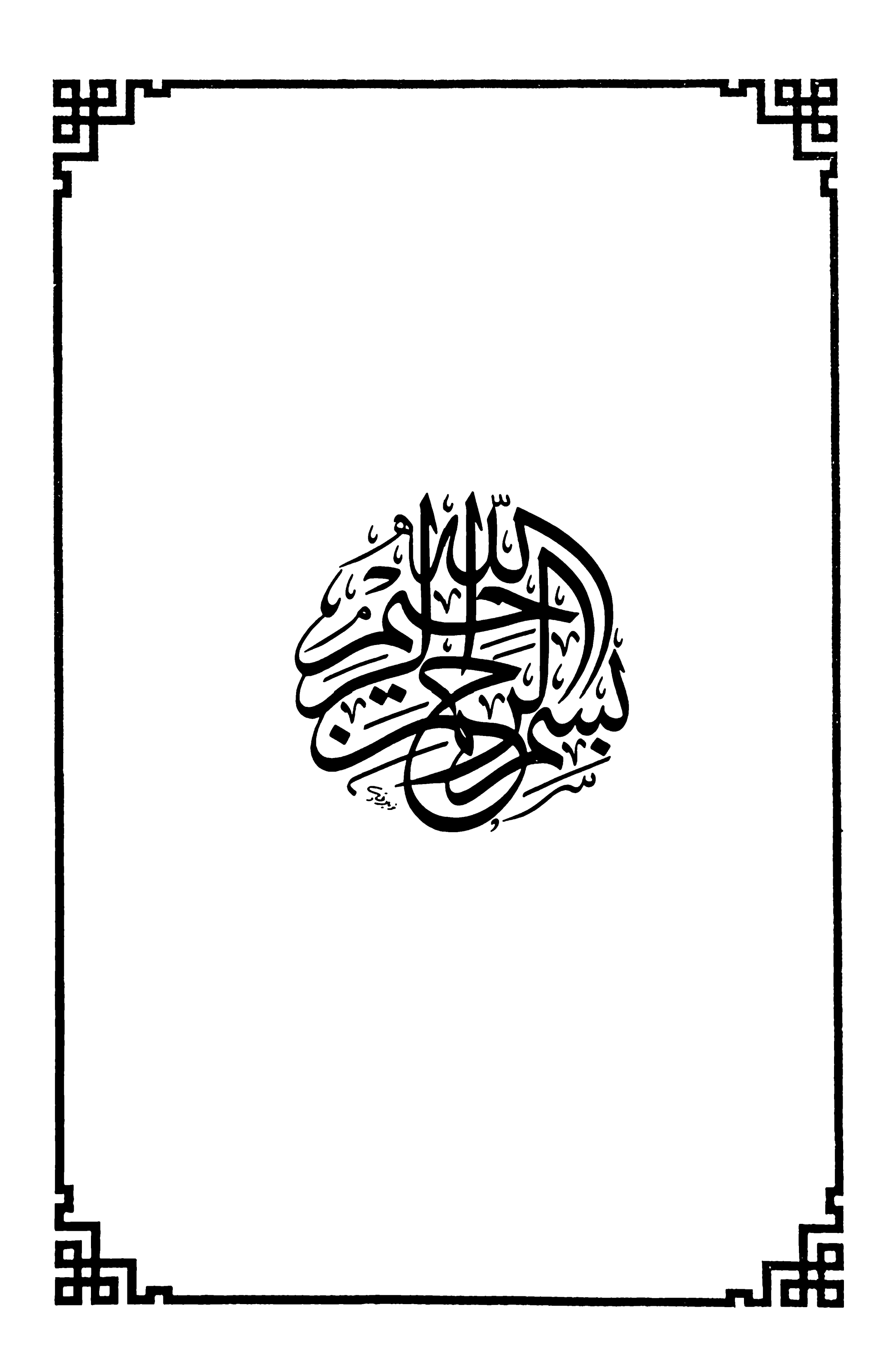
في ضَوْءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
مُقارَنَةً مَعَ الدِّيَانَاتِ الأُخْرَى

تأليف

العلاّمة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي



دمشق - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بمؤلِّف الكتاب

بقلم تلميذه السيّد عبد الماجد الغوري

اسمه ونسبه وأسرته :

● علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمّد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استَوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧ هـ) .

● أبوه العلاّمة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

● أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربّيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

● أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية «تكية كلان» الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

● بَدَأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دَخَلَ في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية سماحة الشيخ الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّعَ فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧ م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونالَ منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمة في اللغة العربية والأردوية ، ممّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتَعَلَّمَ الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحَضَرَ دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّـة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُـيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تَعَرَّفَ فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبَقِيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتَلَقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأَسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣ ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العملي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُـيِّـنَ أميناً عاماً لدار العلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١ ، (ولا يزال يترأس أمانتها إلى يومنا هذا) .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢ .

أهمّ مؤلفاتـه :

• نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد ، وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونَالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَرَ أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و« قصص النبيين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّفَ كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعِيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألْقىٰ محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشِرتْ بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨ م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥ م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧ ، و« السيرة النبوية» عام ١٩٧٦ م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠ و « المرتضىٰ » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢ ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام

١٩٤٠ ، وأَصْدَرَ مجلّة باسم «تعميرحيات» في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَبَ مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و« الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفىٰ السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وهو المشرف العام الآن على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعميرحيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاتـه :

• سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جواباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها(١) .

تقـديـر وتكـريـم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب «رحلات العلامة أبي الحسن علي الندوي . محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته» . جمعَ وترتيب وتعليق لصاحب المقال ، صدر من دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م .

- اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .
- اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .
- اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .
- منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .
- اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .
- اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .
- اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .
- أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركيا » .
- اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقَدَّمَ إليه الجائزةَ ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

- لا يزال يتولّى سماحته الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (الّتي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتَفَوَّقَتْ على معظم جامعات العالم الّتي تَهْتَمّ بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز آكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك يتولّى سماحته الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه ، حفظه الله ونَفَعَ به الإسلام والمسلمين[١] .

* * *

(١) انظر كتاب « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » لصاحب المقال ، للاطلاع على حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومآثره القيمة في مجال الأدب وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صَدَرَ من « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .



بين يدي الكتاب

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

أما بعد ، فهذا كتاب تحدثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة : الصَّلاة والـزكـاة ، والصـوم ، والحـج ، عـن وضعهـا السمـاوي ، وحقيقتهـا الشرعية ، وتشريعها في الإسلام ، ومكانتها في الدين ، وفي الحياة الفردية والاجتماعية ، وعن مقاصدها وأسرارها كما قررها الكتاب والسنّـة ، وفهمهـا المسلمـون فـي القـرون المشهـود لهـا بـالخيـر ، والمتمسكون بلباب الدين ، والراسخون في العلم في مختلف العصور والأجيال ، في غير تكلّف عجمي ، وتنطّعٍ فلسفيّ ، وتطرُّف شخصي ، وفي غير خضوع لأفكار أجنبية واتجاهاتٍ عصرية ، وفي غير إخضاع ـ لمعانيها وحكمها ونظمها ومناهجها ـ للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة في عصورهم وأمصارهم .

وقد درستُ ـ زمن تأليفه ـ القرآن الكريم من جديد ، ومصادر السنة ودواوينها الصحيحة ، وما كُتب في موضوع هذه الأركان ، وشرحها وتفسيرها ، وبيان مقاصدها وأسرارها ، وعُنيتُ بصفة خاصة بكتابات

الأئمة الذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الإسلام وروحه ، والوصول إلى أعماقه ، في غير تفريط وإفراط ، وتكلف وإغراق ، ووفقوا لبيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار التنزيل وحكم التشريع ، كما أرادها الشرع ، وكما فهمها المسلمون الذين توجه إليهم الخطاب ، ونزل في لغتهم الكتاب ، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق ، والعلم الغزير ، والعمل القوي ، والاتِّباع الدقيق (للرسول ﷺ) والمجاهدة الدائبة في مجال العلم والعمل ، فتمهدت لهم السبل ، ولانت لهم الصعاب ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[1] . وقد تشبعوا بروح هذه العبادات ، كما تضلّعوا في علومها ، ومارسوها بصدق وإيمان ، كما دارسوها بدقة وإمعان ، فنطقت هذه الأركان على لسانهم ، وعبرت عن مكنوناتها ومضمراتها في شرحهم وبيانهم ، وكان أكثر استفادتي من كتاب (حجّة الله البالغة) ، لشيخ مشايخنا شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بوليّ الله الدهلوي[2] وهو كتاب فريد في موضوعه ، وقد جاءت خلاصة ما كتبه في الأركان الأربعة وروحُه في هذا الكتاب.

فبدأت بالكتاب والسُنَّة وما ورد عن هذه الأركان ، وعن روحها وحقيقتها ، ومقاصدها وآدابها ، في القرآن والحديث ، وأردفت ذلك بما جاء في كتب هؤلاء الأئمة في تفسيرها وتفصيلها ، وتوجيهها وتعليمها ، فجاء تفصيلاً للمجمل ، وتبسيطاً للموجز ، ولم يمنعني الحياء والشعور بالنقص عن عرض ما فتح الله به عليّ ـ وهو الفتّاح العليم ـ من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة ، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويها

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٢) (١١١٤ ـ ١١٧٤ هـ) راجع لترجمته نزهة الخواطر للسيد عبد الحي الحسني (المجلد السادس).

وصلتها بالحياة وفضّها لكثير من المعضلات والمشكلات ، ولم أتوقف عن نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين ، وذلك كله في أسلوب علمي أدبي عصري ، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم والجديد ، ويمثِّل المكتبة الإسلامية الزاخرة في هذا الموضوع ، ويعرضها عرضاً جديداً للجيل الإسلامي الجديد ، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدمين وأساليبهم ، وخير ما دبّجته أقلامهم وفاضت به خواطرهم ، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد ، وتفريطاً في حق السلف ، وإساءةً إلى المكتبة الإسلامية التي لا تُدانيها مكتبة دينية في أمة من الأمم ، وقد توارثت هذه الأمة فهم معاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعها وأشكالها ، وأحكامها وآدابها ، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فترة ، أو جهالة أو غفلة ، حتى وصل إلينا هذا الدين ، متواتراً متصلاً ، في المعاني والأشكال ، والمقاصد والهيئات ، فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر ـ لركن من هذه الأركان ـ مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة في عمرها الطويل ، أو يلبسه لباساً «مستورداً» من الخارج أو مستعاراً من أجنبي.

وبدا لي ، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات ـ وهي العبادات التي تلتقي عليها جميع الديانات التي كانت لها أيُّ صلة بالسماء في عهد من العهود ـ في الديانات الأخرى ، وهي التي لا يزال يدين بها خلق كثير وشعوب كبيرة في العالم المعاصر ، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ومناهجها وفلسفتها وأحكامها في الدين الإسلامي ، والشريعة الإسلامية ، وأن أعتمد في ذلك على مصادر هذه الديانات الأصيلة الموثوق بها عند أهلها ، كما اعتمدت في الحديث عن أركان الإسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن والحديث غالباً ، وعلى كتب أئمة الإسلام نادراً ، وأن يكون استعراضي لما كتب في هذا الموضوع في

الديانات الأخرى ، ودراستي له دراسة أمينة عميقة ، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدي في هذا البحث والدراسة إلى اللُّباب ، والقول الفصل في هذا الباب ، عند فقهاء هذه الديانات وزعمائها .

وقد كانت هذه المهمة عسيرةً دقيقة ، إذ الوضع الديني والفقهي في هذه الديانات يختلف عن الوضع الديني والفقهي عند المسلمين ، اختلافاً كبيراً ، والباحث يواجه غموضاً واضطراباً عظيماً ، وفراغاً علمياً هائلاً ، لا عهد له به في كتب الشريعة والفقه ، وتاريخ التشريع الإسلامي . وقد استطعت بحول الله أن أخرج في هذا الكتاب بدراسة مقارنة تسدّ ـ إلى حدٍّ ما ـ فراغاً في هذا الموضوع .

وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة ، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدِّر نعمة الإسلام ، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ، ولا أن يستوفي حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الإسلام والعبادات في الأديان الأخرى ، فضلاً عن العقائد والمبادىء والأسس التي يقوم عليها صرح الإسلام العقائدي والكلامي ، وقد أُثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال : «يوشك أن ينقض الإسلام عروة عروة ، من نشأ في الإسلام لا يعرف الجاهلية» . والموضوع خاضع للتوسع والترقي ، وزيادة الإتقان ودقة البحث ، لما يتجدد من معلومات ، ويصدر بين حين وآخر من موسوعات علمية ومؤلفات دينية ، بقلم علماء هذه البيانات ، والمؤلف مستعد للإفادة منها في الطبعات الجديدة .

وكان مما حفز المؤلّف على هذا التأليف ـ رغم أمراضه التي يعانيها ، والأشغال والمسؤوليات التي ترهقه ـ ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان ، ومقاصدها وغاياتها ،

وفوائدها ومصالحها في هذا العصر ، وإخضاعها في جراءة كبيرة ، وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية ، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة ، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض تفقد حقيقتها وقوتها ، وتضيِّع مقاصدها التي شرعت لأجلها ، وكاد معنى الإيمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية ، وكاد التفكير المادي يطغى على روح العبادة والإخلاص ، فكان ذلك ـ بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون ـ خطراً كبيراً على الأمة ، وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية .

وحدث أنّ مجلة «المسلمون» الغراء دعت المؤلف إلى كتابة مقال عن الحج بمناسبة موسمه ، واتفق ذلك ثلاث مرات ، فكان المؤلف يكتب مقالاً كل عام ، عن حقيقة الحج وروحه ومقاصده ، تنشره المجلة العزيزة وتذيعه الإذاعة السعودية في أكثر الأحيان ، ويقرؤه الشباب المسلم بعناية زائدة ، وتقدير كبير ، ونظر المؤلف في هذه المقالات الثلاث ، فشعر بأنه أسلوب جديد للكشف عن مقاصد الحج الشرعية الحقيقية ، ومحاولة متواضعة للانتصار لهذا الركن المظلوم ، الذي كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين مؤتمراً سياسياً عالمياً ، يُعقد كل عام ، وليست له إلا هذه القيمة السياسية الاجتماعية ، فرأى أن يوسع هذا المقال وينشره كرسالة مفردة ، تعرض الحج في إطاره الإسلامي الأصيل الواسع ، وتُثير معانيه العميقة ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الإبراهيمية الحنيفية .

وكذلك وفق المؤلف لكتابة مقالين عن رسالة الصيام ، ومقاصده بمناسبة حلول رمضان ، واقتراح مجلَّة «المسلمون» فبدا للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ويضم إليهما ركن الصلاة والزكاة ، وهكذا تكوَّنت

فكرة الكتاب ، واستولت علىٰ مشاعر المؤلف وأعصابه ، فشغلته عن كل عمل تأليفيٍّ أو تحقيق علمي ، وبقي يعيش في هذه الفكرة أكثر من عام ، يدرس النصوص ويراجع المصادر ، ويُملي المقالات ـ لعجزه عن الكتابة والمطالعة بنفسه ـ ويساعده بعض إخوانه وزملائه في كتابة هذه الأمالي ، وفي تخريج الأحاديث وفي النظر في المواد الأجنبية ، والبحث عن الموادّ ، أخص بالذكر والشكر منهم العزيز نثار الحق الندوي ، والأستاذ تقي الدين الندوي ، والمفتي محمد ظهور الندوي ، والأستاذ شاهد علي ، مدرس اللغة الإنكليزية في دار العلوم ، والعزيز علي آدم الإفريقي[١] والأخوين نذر الحفيظ وغياث الدين الندويين جزاهم الله جميعاً عن المؤلف والقراء ، فجاء هذا الكتاب حصيلة مطالعة ، ونتيجة تأملات ، ورائد بحث أوسع وأعمق ، والحمد لله الذي بعزَّته وجلاله تتم الصالحات .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دائرة الشيخ علم الله الحسني

رائي بريلي (الهند)

٢ ـ ٢ ـ ١٣٨٧ هـ .

---

(١) ومحمد سعيد .



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ، أما بعد:

فإن مؤلف الكتاب يشعر بابتهاج وغبطة ، ويلهج لسانه وجميع جوارحه بالثناء علىٰ الله ، والحمد علىٰ توفيقه ، وهو يقدم للطبعة الثالثة لهذا الكتاب ، الذي يعتبره من أحب الأعمال وأعظم القربات في مجال الكتابة والتأليف ، ويردِّد قول الشاعر من أعماق قلبه:

فلو أنَّ لي في كل منبت شعرة لساناً ، لما استوفيتُ واجب حمده

وقد كانت العناية بموضوع هذا الكتاب ، والتنويه بشأنه في الأوساط العلمية والدينية فوق ما كان يتوقعه المؤلف ، وأكثر مما كان يستحقه التأليف ، وظهرت ترجمته بالتركية في مدّةٍ قليلة ، وترجمت بالأردية والإنجليزية ، ونفدت الطبعة العربية الأولىٰ في بضعة أشهر ، والتجأ الناشر لكثرة الطلب ، وضغط الطالبين إلىٰ إعادة طبعه بالتصوير ، فلم يتمكن المؤلف من تصويب الأخطاء ، التي وقعت في الطبعة الأولىٰ ، وكانت مع الأسف كثيرة ، وصدرت الطبعة الثانية طبق الأصل في كل شيء ، وتأخرت مراجعة الكتاب ، فانصرف كلياً إلىٰ قراءة هذا الكتاب وتصحيحه ، وتنقيحه ، وتهذيبه ، حتىٰ أتمَّه في مدة قليلة.

وكان المؤلف يشعر بفراغ ، أو بنقص في المواد فيما يتصل بالصدقات في الديانات الهندية القديمة ، وعند اليهود والمسيحيين ، فدرس هذا الموضوع من جديد ، وألحق فصولاً جديدة في هذا الموضوع ، هي غاية ما وصل إليه علمه ودراسته ، واحتوت عليه مصادر هذه الديانات ، الموثوق بها ، علاوة علىٰ زيادات يسيرة ، وإيضاحات قليلة يجدها القارىء في هذه الطبعة ، فجاءت الطبعة الثالثة بحول الله أكبر قيمة ، وأغنىٰ مادة ، وأكثر ضبطاً ودقة ، من الطبعتين الأوليين.

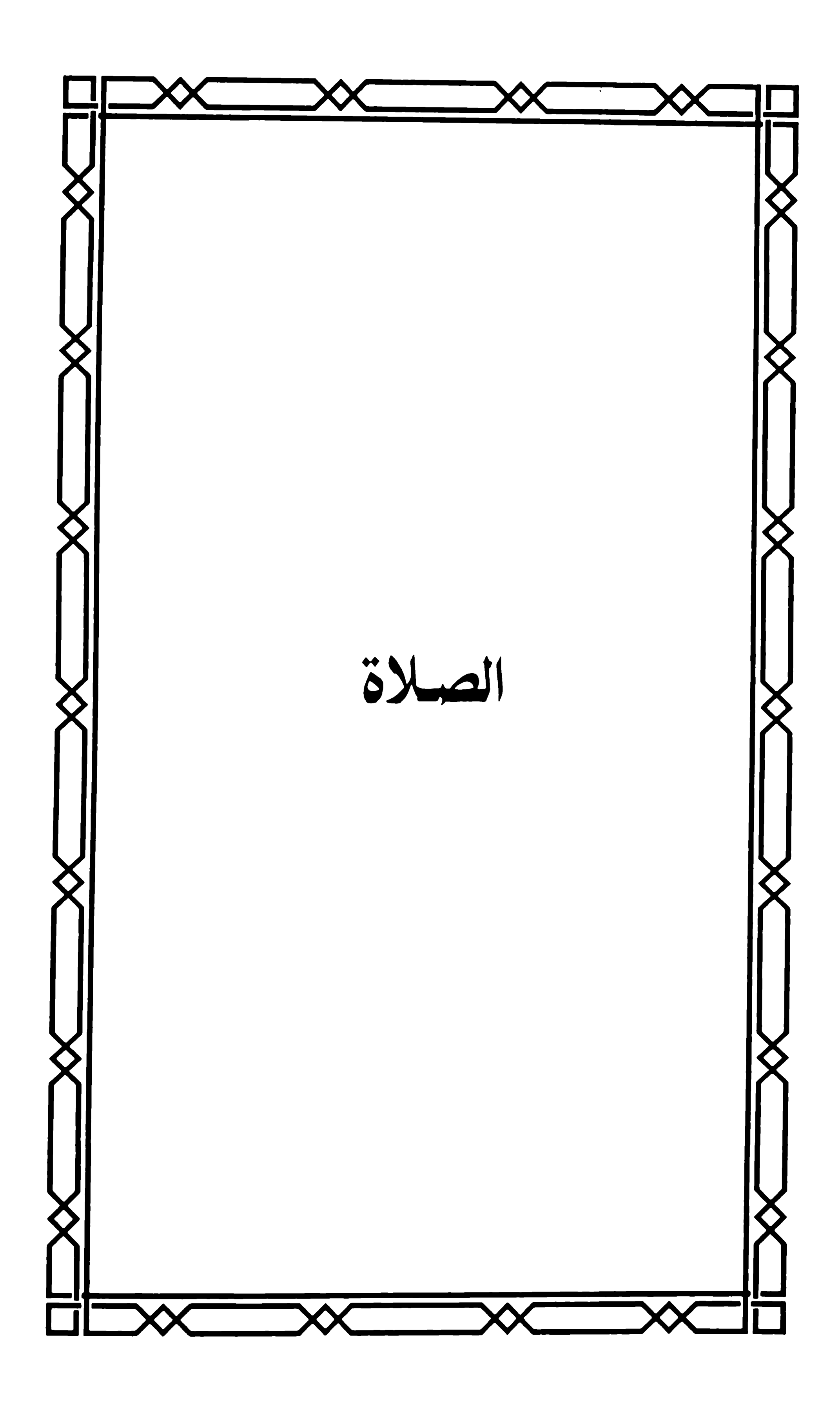
وها نحن أولاء ، نقدم هذا الكتاب في طبعته المنقحة المزيدة ، وفي ثوبه القشيب ، للشباب الإسلامي المثقف ، ومديري المدارس ، ومنظمي حلقات الدراسة والمطالعة ، ولقادة الحركات الإسلامية ، ورجال التربية ، عسىٰ أن يكون حلقة مفقودة ، كان المربُّون والموجهون بحاجة ملحة إليها في التثقيف الديني الصحيح . وتكوين المزاج الإسلامي النبوي ، والتمسك بلباب الدين وروحه ، وإثارة روح الإيمان والاحتساب في العاملين ، وتغذية العقل والقلب في وقت واحد في الدراسات الإسلامية ، وهي غاية ما أمَّله المؤلف من تأليف هذا الكتاب ، وتشوَّف إليه ، والله من وراء هذا القصد.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

لست عشرة خلون من رجب سنة تسع وثمانين وثلاثمئة وألف

زاوية الشيخ علم الله الحسني رحمه الله

رائي بريلي ـ الهند



الصلاة

الصلاة

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]

الحاجة إلىٰ فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب:

لا يفهم الصلاة، ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوّقها، إلاّ من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة، التي تقوم بين العبد وبين الرب، إنها صلة غريبة فريدة، لا نظير لها ولا مثال، إنها لا تقاس علىٰ صلة بين طرفين وبين اثنين في هذا الوجود، إنها لا تقاس علىٰ صلة بين صانع ومصنوع، وبين حاكم ومحكوم، وبين قوي وضعيف، وبين فقير وغني، وبين مستجد مكدّ، وبين جواد منعم، فحسب، إنها صلة أدقّ من جميع هذه الصلات، وأعمق وأقوىٰ وأشمل.

الصِّلات تابعة للصفات، نابعة منها:

ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب، إلاّ من عرف صفة العبد والرب، والصلة دائماً تابعة للصفة، نابعة منها، إنك لا تستطيع أن تحدِّد صلة بين طرفين، وعلاقة بين اثنين، إلاّ إذا عرفت

---

(١) سورة الروم: ٣١

صفة كل واحد منهما ، وعرفت التفاوت أو التفاضل بينهما ، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلىٰ الآخر ، وفضل أحدهما علىٰ الآخر ، وجميع الصلات التي نمارسها في الحياة ، والتي تشكِّل القانون ، وتكوِّن المدنية ، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات ، أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان.

الصفات والأسماء ، ومكانتهما في الدين والقرآن:

لذلك لهجت الصحف السماوية ، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدِّد الصلات ، وتدعو إلىٰ العبادات ، وتسنّ الفرائض وتحثّ علىٰ الطاعات. ولذلك سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامهما وشرائعهما ، ودعا جميع الرسل في مختلف الأدوار والأمصار إلىٰ العلم الصحيح والمعرفة الصحيحة ، ووصف الله الوصف الصحيح ، ودعوا إلىٰ التقديس والتنزيه قبل أن يدعوا إلىٰ شيء آخر ، وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ في أوقاتهم وأكبر قسط من جهودهم وأكبر مكان في صحفهم ودعواتهم ، وجاهدوا في ذلك الجهاد الأكبر.

والقرآن الذي جاء مهيمناً علىٰ هذه الكتب كلها ، وكان الكتاب الأخير الخالد أكبر شاهد علىٰ ذلك. فهو الموضوع المكرَّر المنوَّع الذي احتلّ المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز ، وسمّى ما تجلّىٰ فيه هذا الموضوع بأكبر قوة ووضوح علىٰ وجازته وقِصَره «وهي سورة الإخلاص» ثلث القرآن[١] وذكرت من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنىٰ ، وأفعاله وتصرفاته العجيبة ، وقوته وقدرته ، وصنعه وإبداعه ، ولطفه ورحمته ، وحبه ورأفته ، وجوده وكرمه ، وعفوه وصفحه ، وإعطائه ومنعه ،

---

(١) جاء في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: ألا إنها (يعني سورة الإخلاص) تعدل ثلث القرآن. «باب فضل قل هو الله أحد».

وضرره ونفعه، وعلمه ومعرفته ، وقربه ودنوِّه ، وإحاطته ومعيته ، وقبوله واستجابته ، ما يجعله المثل الأعلىٰ في الجمال والجلال ، والكمال والنوال: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] ويجعله متفرداً في صفات الحُسن والإحسان: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] .

الإنسـان ، المخلـوق الغامـض المتنـاقـض:

وكذلك وردت نصوص وإشارات في هذه الكتب ـ وشهد العلم والتجربة بصحتها ـ بوصف هذا الإنسان المخلوق ، وبيان ما فُطر عليه ، وتركَّبت به طبيعته من أضداد ومتناقضات ، فليس هنالك مخلوق ـ علىٰ كثرة المخلوقات والموجودات ـ أدق وأعمق منه صنعاً ، وأكثر منه غرابة وغموضاً ، وأعظم منه تناقضاً وتضارباً؛ فهو ضعيف يحب القوة والغلبة ، فقير يحب الغنىٰ والخير ، خاضع لناموس الموت والفناء ، محبّ للخلود والبقاء ، متعرض للأمراض والأخطار ، ولوع بالصحة والسلامة ، هلوع جزوع ، ولوع طموح ، كثير الحاجات دقيق الرغبات ، عميق الهواجس والخواطر ، بعيد الآمال والنظرات ، لا تروىٰ غلته ولا تُشبع جوعته ، ملول طرف[3]. سؤوم ضجر ، يكره القديم التليد ، ويطلب المزيد الجديد ، ويزهد في الميسور الموجود ، ويرغب في المعدوم المفقود ، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه ، وأطول من حياته ، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود.

وفي هذا التناقض الغريب ، والصراع العنيف ، وفي هذا الطموح

---

(١) سورة الروم: ٢٧.

(٢) سورة الشورىٰ: ١١.

(٣) كثير الملل من القديم ، محب لكل جديد طريف.

البعيد ، والحرص والنهامة ، والطلب والاستزادة ، سرُّ شرفه وكرامته ، واصطفائه وخلافته ، وبه استطاع أن يتسلَّم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾[1] وبه استحقّ الخلافة في هذه الأرض ، ووصل إلىٰ أسمىٰ مكان تحسده عليه الملائكة المقربون.

مخلـوق ألـيف حنـون:

وكذلك عُجنت طينته بالحب والحنان ، ورزق ـ عدا الحواس الخمس التي يستخدمها ويتمتع بها في حياته المادية ـ حاسة سادسة هي حاسة الحب والحنان قد تضعف وقد تقوىٰ ، وقد تكمن وقد تبرز ، ولا يحرمها بتاتاً إلا من فقد الاستعداد ، وحاد عن الفطرة ، ودخل في الجماد ، فهو مخلوق أليف حنون ، قوي العاطفة رقيق الشعور ، يندفع إلىٰ الجمال أو الكمال اندفاعاً لا يوجد عند غيره من المخلوقات من حيوانات وجمادات ، ويعطيها من نفسه ومشاعره ، وحبه وعاطفته وتفانيه ما لا يعطيه غيره ، تشهد بذلك أخبار العشاق والمتيمين الذين لم يخلُ منهم عصر أو مجتمع ، وأخبار العارفين المحبِّين في أمم الأنبياء ، ويشهد بذلك الشعر الغزلي والأدب العاطفي الوجداني ، الذي تزخر به مكتبة الآداب العالمية.

خاضـع خاشـع بالـغريـزة:

وكذلك حمل مع الغرائز التي يحملها غريزة التواضع والخضوع ، والتطامن والخشوع ، وقد تجلَّت هذه الغريزة في كل دور من أدوار حياته ، وفي كل طبقة من طبقاته ، فكان في دوره البدائي ـ ولا تزال له بقية في كثير من المجتمعات ـ يخضع أمام الأحجار وبعض الأشجار

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

والأنهار ، وكان يعبد النار ، ويعبد الشمس أو القمر أو الكواكب ، ويخشع أمام مظاهر الطبيعة أو الظواهر الكونية ، ويخضع للسدنة والكهان ، والأحبار والرهبان ، والجن والأرواح ، ولكل ما تعسر فهمه ودقّ علمه ، ولا يزال رغم ثقافته الواسعة ، وعقليته المترقية ، ودعاويه الطويلة العريضة ، ورغم عتوه واستكباره ، وثوراته التي لا تكاد تنتهي ، يخضع للحكام والسلاطين ، وزعماء الأحزاب ورؤساء الحكومات ، والنظم والفلسفات التي هي من وضعه ، أو وضع بني جنسه ، ويخضع كذلك في دور نبوغه وتحضُّره للمبدعين والعبقريين ، والشعراء والأدباء والفنَّانين ، وكثير من المفكرين والمشرِّعين ، وكبار الأغنياء الموسرين وأصحاب الحول والطول ، والأمر والنهي خضوعاً فيه كثير من الوله والهيام ، وكثير من التقديس والتأليه ، فهو إنسان ولوع حنون ، خاضع خاشع ، متطامن متواضع بالغريزة والفطرة.

لا بد من مثل أعلىٰ:

فلا بد له من مثل أعلىٰ للجمال أو الكمال ، أو القوة والعزة ، أو الغرابة والغموض ، أو السيطرة والنفوذ ، ليشغل هذه الغريزة ومقتضياتها ، ويرضي مطالبها ويحقق غاياتها.

الصلة العادلة المعقولة ، التي يجب أن تكون دائماً بين «الإنسان» وبين «الله» :

تأمَّل في صفات الرب التي سبقت ، من قوة وقدرة ، وعلم وخبر ، ورحمة ولطف ، وكرم وجود ، واستجابة وقبول ، وقرب لا مزيد عليه ، وبكل ما نطق به القرآن من صفات الله العليا ، وأسمائه الحسنى ، وبكل ما جاء به في ذلك من المعجب المطرب ، من النعوت والأوصاف ، والأخبار والآثار.

ثم تأمل في صفات هذا الإنسان المخلوق ، واستعرض كل ما اتصف به ، من ضعف وعجز ، وفقر وفاقة ، ثم انظر إلىٰ طموحه الذي لم يُعرف لأي مخلوق ، ونهامته ـ للماديات أو المعنويات ـ التي تفوق كل شره ونهامة عند أكبر حيوان ، وإلىٰ حاجاته التي لا يشاركه مخلوق آخر في كثرتها وتنوعها ودقّتها ، وإلىٰ آماله ومطامعه التي لا تكاد تنتهي ، ثم انظر إلىٰ غريزة الحب والحنان ، والخضوع والانحناء المودعة في هذا الإنسان.

أما احتاج هذا الإنسان إلىٰ أن يكون في خضوع دائم ، وفي ركوع أو سجود لا انقطاع لهما ، وفي مناجاة ودعاء لا نهاية لهما ، أما الرَّبُّ الذي هو الإله الحق والجواد المطلق ، والذي أعطاه من كل ما سأل بلسان القال أو بلسان الحال؟ : ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[١] والذي يعلم الخواطر الدقيقة الدفينة ، والأماني الموءودة المَنسية ، أو الأحلام القديمة المطمورة ، التي نسيها الإنسان أو تخلّىٰ عنها أو يئس من تحقيقها ، والتي قد يَغار عليها القلب فلا يشرك فيها العقل ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[٢] ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[٣] ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾[٤] والذي هو أقرب من كل قريب ، والذي هو دائماً سميع مجيب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٥] ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ .
(٢) سورة الأنفال : ٢٤ .
(٣) سورة المؤمن : ١٩ .
(٤) سورة طه : ٧ .
(٥) سورة البقرة : ١٨٦ .

مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾[١] ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾[٢] والذي كان السائل الملحف ، والداعي المتشبث ، أحب إليه من أبيٍّ ممتنع ، وصامت مستغن : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[٣] ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[٤] ويقول رسول الله ﷺ : «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه»[٥] .

الكون في خضوع دائم وعبادة مستمرة :

لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون ، تنشر النور وتمنح الحياة والحرارة ، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السبيل ويحدد الشهور والسنين ، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبلِّغ رسالتها ، ووقفت الأشجار علىٰ قدم وساق ، وافرة الثمار وارفة الظلال تعبد الرَّب وتخدم الإنسان ـ سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه ـ وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان ، وهبَّت الرياح لواقح تحمل أمانة الماء من جهة إلىٰ جهة ، وسارت السُّحب تحمل الأمطار وتحيي الأرض بعد موتها ، وجرت الأنهار تروي ظمأ الإنسان وتسقي الزروع ، وتثير دفائن الأرض ، ومشت الحيوانات والدواب علىٰ أربع كأنها في ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلىٰ مكان ، وتحمل الأثقال ، وله فيها دفء ومنافع ، ومطاعم ومشارب ، وزحفت كثير من الحيوانات علىٰ صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان .

---

(١) سورة ق : ١٦ .

(٢) سورة الواقعة : ٨٥ .

(٣) سورة المؤمن : ٦٠ .

(٤) سورة الأعراف : ٥٥ .

(٥) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه «كتاب الأدعية باب ما جاء في فضل الدعاء» .

فهذه المخلوقات التي لا عقل لها ولا قلب ، في عبادة دائمة ، في طاعة وخضوع لأمر الله تعالىٰ ، فلا عصيان ولا ثورة ، ولا تمرد ولا جموح ، ولا ملل ولا سآمة ، ولا إضراب ولا انقطاع عن العمل ، ولا راحة ولا عطلة ، فكأنها دائماً في السجود : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾[1] ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾[2] ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾[3] ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[4] ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[5] .

فهذه المخلوقات علىٰ اختلاف أنواعها وعلىٰ تنوُّع عباداتها في صلاة ، تتفق مع طبيعتها ووظيفتها ، وفي حمد وتسبيح لا يفقههما إلا من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[6] ﴿ أَلَمْ

---

(١) سورة الحج : ١٨ .

(٢) سورة النحل : ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) سورة الرعد : ١٥ .

(٤) سورة الرحمن : ٥ و ٦ .

(٥) سورة إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤ .

(٦) سورة بني إسرائيل : ٤٤ .

تَـرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1] .

مـركز الإنسـان فـي هـذا العالم وما يقتضيـه ، وسبـب تميُّزه عن سـائر الكـون فـي العبـادة :

لقد كان الإنسان بشرفه واختصاصه ، وعقله وقلبه ، أحقّ من جميع هذه المخلوقات التي سبق ذكرها ، بأن يكون في عبادة دائمة لا انقطاع لها ، من قيام ، وركوع ، وسجود ، ومن حمد ، وتسبيح ، وذكر لا يفتر عنه لسانه ، وقد كانت الهبات التي اختص بها ، والعناية الإلهية التي كان موضعها ، والنعم التي تدفقت عليه ونزلت كالمطر الغزير ، تقتضي ألا ينقطع عن هذه العبادة ، ولا ينصرف عن هذه «الصلاة» طرفة عين ، وأن يكون كالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[2] .

ولكنه اختير ليكون خليفة الله في أرضه ، وهيّىء لهذا المنصب ، فخلقت فيه الشهوات ، ووضعت فيه الحاجات ، وأودعت فيه المشاعر والأحـاسيـس ، والعـواطـف والـرغبـات ، وأودع فيـه الحـب والحنـان والرقة ، والتألم والالتذاذ ، ووضع فيه الاستعداد للمعرفة ، واستخدام ما خلقه الله في هذه الأرض وبثه من دفائن وخزائن ، ونعم وخيرات ، وقوى وطاقات ، وكان تعليم الأسماء الذي خصّ به من دون الملائكة رمزاً لهذا الاستعداد الفطري ، ومظهراً من مظاهر الخلافة الأرضية ، ومفتاحاً من مفاتيح الاتصال بهذا الكوكب الذي مُنح إمارته والتصرف

---

(١) سورة النور : ٤١ .

(٢) سورة الأنبياء : ١٩ ـ ٢٠ .

فيه ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[١] وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٢] وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[٣] .

فكان اختياره لهذا المنصب الخطير ، وكانت خلقته التي طابقت هذه الغاية وخضعت لها ، وكان قيامه بواجبه كخليفة في الأرض ، كتبت له الوصاية على خيراتها وطاقاتها تأبى وتنافي أن يكون في قيام دائم ، أو في ركوع دائم ، أو في سجود دائم ، أو في تسبيح لا ينقطع ، وفي ذكر لا يفتر ، شان الأجرام الفلكية ، أو الجبال الجامدة ، أو النباتات الساكنة ، أو الحيوانات العجماء ، فإذا حاول ذلك أو التزامه ، أقام الدليل على إخفاقه وخيبته ، كخليفة الله في الأرض ، وصدّق ما قالته الملائكةُ وبرّر ترشيحهم أنفسهم لهذا المنصب الجليل ، على أساس التسبيح والتحميد والعبادة الدائمة .

عبادة مطابقة لوضعه الخاص ومركزه الدقيق :

إذاً كان لابد من عبادة تليق بفطرته وبمنصبه ، ومركزه في هذا الوجود ، والمهمة التي ألقيت على عاتقه ، والواجبات التي يجب أن ينوء

---

(١) سورة البقرة : ٣٠ ـ ٣٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢٩ .
(٣) سورة الأعراف : ٣٢ .

بها ، فكان لابد من عبادة لأنها مقتضى الفطرة ، ونتيجة الغريزة ، ونداء الضمير ، وواجب الشرف ، وحاجة الإنسانية ، وغذاء القلب ، وكان لابد أن تكون هذه العبادة مطابقة كل المطابقة لوضعه الخاص ، ومركزه الدقيق ، وموقفه الفريد ، وأن يكون لباساً قد فُصل على قامته ، وعلى قدر حاجته.

لباس فصل على قامته:

فكانت الصلاة المفروضة هي اللباس المفصّل على قامته من غير طول وفضول ، ومن غير قصر وضيق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[(١)] ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[(٢)].

حكمة التشريع في تخفيف عدد الصلوات المفروضة ، وفوائده النفسيّة:

واختارت لذلك الحكمة الإلهية والتشريع الربّاني طريقة حكيمة تجمع بين المثل الأعلى وبين التدريج والتيسير ، ففرضت الصلاة خمسين صلاة في المعراج ، ثم أنزلها الله إلى خمس صلوات[(٣)] ليعلم المسلم أن الأصل المفروض كان خمسين صلاة ، وأن ربّه تبارك وتعالى قد رآه أهلاً لذلك ،

---

(١) سورة الملك: ١٤.

(٢) سورة القمر: ٤٩.

(٣) جاء في حديث طويل عن الإسراء ، رواه البخاري في صحيحه: «وفرض علي خمسين صلاة ، في كل يوم وليلة ، فنزلت إلى موسى عليه السلام ، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة؟ قال: ارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم ، قال: فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على أمتي ، فحط عني خمساً» إلى أن قال: «فلم أزل بين ربي وبين موسى عليه السلام ، حتى قال: يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة ، ولكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة» الجامع الصحيح «كتاب الإسراء».

وجديراً به ، فيثير ذلك فيه الثقة بنفسه والاعتزاز بكرامته فلا يستقل هذه الصلوات الخمس ولا يستعظمها ، ويرى أنه قد كان كفؤاً لأضعافها ، فإنها لو بقيت فريضة محكمة لقام بها ، ولكن ربّه لطف به ، فجعلها خمس صلوات تساوي خمسين صلاة ، ولا يزال هذا الأصل الأول مصدر التشجيع ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في العبادة.

نظيره في القرآن:

ونظيره في القرآن أن المسلمين كان يُطلب منهم في أول الأمر ، أن يقفوا في وجه عدوّهم ، وهو أكثر منهم عشر مرات ، ثم كان التيسير والمسامحة ، فطُلب منهم أن يقاوموه ، ويقفوا في وجهه ، وهو ضعفهم ، فقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] وكان الحكم الأول ـ ولا يزال ـ مصدر القوة والشجاعة ، ومصدر الثبات والاستقامة ، ومصدر المغامرة التي هي من أقوى عوامل الانتصار ، وباعثاً من بواعث الطموح وعلو الهمة ، والتسامي في الجهاد ، ولهذه الحكمة الدقيقة ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ بقيت الآية المنسوخة تتلى في الكتاب لتضمّ شجاعة إلى شجاعة ، وتزيد حماسة إلى حماسة ، وذلك هو المثل الأعلى للمؤمنين الصادقين والمجاهدين المستميتين.

وجبات روحية ، وحقن صحية ، عيَّن أعدادها وأوقاتها العليم الحكيم:

وهذه الصلوات الخمس تؤدّى في أوقاتها المعيّنة التي حدّدها الله

(١) سورة الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦.

فقال: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[١] وأشار إلى أوقاتها في القرآن[٢] ولها ركعات معدودة تؤدّى بها هذه الصلوات الخمس دائماً ، وقد داوم عليها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم مدة حياته ، حتى في الحروب ، وتواترت أخبارها تواتراً لا يُعرف لأي عمل أو عبادة في ملّة من الملل ، وفي دور من أدوار التاريخ ، وتوارثتها الأمة جيلاً بعد جيل ، وطبقة بعد طبقة من غير فترة يوم واحد ، حتى في أدق ساعاتها وأعظم محنها وأزماتها.

وهذه الصلوات الخمس بأوقاتها وركعاتها وجبات روحية ، وحقن صحيّة ، شرعها الخلاق العظيم ، المبدع الحكيم ، الذي ليس طبيب النفوس فحسب ، بل هو خالقها العليم ، وصانعها الحكيم كذلك ، فلابد من الإيمان والخضوع لحكمتها وتشريعها ، ولابد من التمسّك بها ، والعض عليها بالنواجذ ، والإتيان بها في أوقاتها ، التي لا يعلم أسرارها وما يظهر فيها من تجلّيات وإشراقات ، وما يتنزّل فيها من بركات ورحمات ، وما يوجب فيها التعبّد لله والسجود له مخالفة لعبّاد الشمس والكواكب ، ولعبّاد الأحجار والنار[٣] ، وقد خضعت الأجيال البشرية ،

---

(١) سورة النساء: ١٠٣.

(٢) يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ استنبط بعض المفسرين من كلمة «الدلوك» ثلاثة أوقات هي «الظهر» و«الفجر» و«المغرب» ومن «غسق الليل» «العشاء» ، و«قرآن الفجر» «صلاة الصبح» انظر التفصيل في سيرة النبي «لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي» المجلد الخامس ، وراجع في «لسان العرب» كلمة «الدلوك».
ويقول الله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ «سورة طه» وراجع في تفسيره الكتاب المذكور.

(٣) انظر البحث النفيس في ذلك في كتاب «حجة الله البالغة» الجزء الأول لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم «ولي الله الدهلوي» «م ١١٧٦ هـ» تحت عنوان «باب =

والعقول السليمة ، لتوجيهات أطباء البشر ووصاياهم وتحديداتهم ، وهم من بني جلدتهم ، وفي مستواهم البشري ، لتجارب محدودة ، أو تخمينات مظنونة وما ظنك بالرب الحكيم ، ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢].

الحكمة في تكرر الصلوات وتعاقبها :

وفي تكرّر هذه الصلوات وتعاقبها في يوم وليلة حكمة بالغة ، وتغذية صالحة كاملة للنفوس ، ووقاية لها عن الغفلة عن الله ، واستحواذ المادية على القلب والروح ، يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي في حكمة تكرار الصلوات ، وتعاقبها في كل يوم وليلة :

«وسياسة الأمة لا تتم إلاّ بأن يؤمر بتعهد النفس بعد برهة من الزمان ، حتى يكون انتظاره للصلاة واستعداده لها من قبل أن يفعلها ، وبقية لونها وصبابة نورها بعد أن يفعلها في حكم الصلاة ، فيتحقق استيعاب أكثر الأوقات إن لم يكن استيعاب كلها ، وقد جرّبنا أن النائم على عزيمة قيام الليل لا يتغلغل في النوم البهيمي ، وإن المتوزع خاطره على ارتفاق دنيوي ، وعلى محافظة وقت صلاة أو ورد ألا يفوته ، لا يتجرد للبهيمية ، وهذا سر قوله ﷺ من تعارّ[٣] من الليل» (الحديث) وقوله

= أسرار الأوقات» ص ٧٧ ـ ٧٩ .

(١) سورة طه ـ ٥٠ .

(٢) سورة الملك : ١٤ .

(٣) إشارة إلى حديث رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ : ولفظ البخاري «من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ قبلت صلاته» (كتاب التهجد) .

قال الحافظ ابن حجر : قال في المحكم : «تعار الظليم معارة ، صاح ، والتعار أيضاً =

تعالى: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[(١)].

الصلاة، ومكانتها في الإسلام:

وكان لابد من الخضوع لحكمة التشريع والإيمان بأن الصلاة فريضة الله على عباده، وأنها عماد الدين، والفارق بين الكفار والمسلمين[(٢)] وشرط النجاة وحارسة الإيمان، وقد ذكرها الله تعالى من الأشراط الأساسية للهداية والتقوى، فقال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(٣)] وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾[(٤)] وقد

= السهر والتمطي والتقلب على الفراش ليلاً مع الكلام». (وقال ابن التين: ظاهر الحديث أن معنى «تعار» استيقظ، وإنما ذلك لمن تعوّد الذكر واستأنس به، حتى صار حديث نفسه من نومه ويقظته، فأكرم من اتصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته).

(١) حجة الله البالغة ج١ ص ٧٨ «باب أسرار الأوقات».

(٢) وقد ورد في القرآن ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة الروم: ٣١] وجاء في سورة براءة: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [سورة التوبة: ٥] وجاء: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [سورة التوبة: ١١] وقد روى مسلم في صحيحه عن جابر عن النبي ﷺ قال: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة» وفي رواية: «بين الرجل والشرك ترك الصلاة» والترمذي: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة» وعن بريدة رفعه: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر» وروى ابن ماجه عن أبي الدرداء، قال: «أوصاني خليلي ألاّ تشرك بالله شيئاً، وإن قطعت وحرقت، ولاتترك صلاة مكتوبة متعمداً، فمن تركها متعمداً فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر، فإنها مفتاح كل شر».
وروى مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كتب إلى عماله: أن أهم أموركم عندي الصلاة، من حفظها أو حافظ عليها، حفظ دينه، ومن ضيعها، فهو لما سواها أضيع.

(٣) سورة البقرة: ١ـ٣.

(٤) سورة الأعلى: ١٤ و١٥.

استثنى المحافظين على الصلوات من أصحاب الأخلاق الذميمة ، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[1] وقال ، وهو يذكر المؤمنين المفلحين: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2] وقال وهو يحكي أهل النار: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[3] وقال عن المنافقين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[4] .

وهي فريضة دائمة مطلقة على عبد وحرّ ، وغني وفقير ، وصحيح ومريض ، ومقيم ومسافر ، لا تسقطُ عمّن بلغ الحلم في حال من الأحوال ، بخلاف الصيام ، والزكاة ، والحج ، الأركان الثلاثة التي وجبت بشروط وصفات ، وفي أوقات معينة محدودة ، حتى أُمر بها في ساحة الحرب ، وميدان القتال ، وشرعت صلاة الخوف ، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝١٠١ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٠٢ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ

---

(١) سورة المعارج: ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة المؤمنون: ٩ .

(٣) سورة المدثر: ٤٢ ـ ٤٣ .

(٤) سورة النساء: ١٤٢ .

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[١] وقال: ﴿حَٰفِظُوا عَلَى الصَّلَوَٰتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

دوام التكليف بالصلاة، والخطر في تركها:

ولا تسقط هذه الفريضة عن نبي مرسل، فضلاً عن صالح أو عارف، أو مجاهد، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[٣] ومن رأى أنها تسقط عنه لفضل معرفته ووصوله إلى درجة اليقين والمشاهدة، أو لحسن بلائه في الإسلام، أو لسوابقه ومآثره الكثيرة، فقد أتلف نفسه وعرَّضها للخطر الأكبر.

مثل تارك الصلاة لفضل يعتمد عليه:

وكان الذي يترك الصلاة «اعتماداً على شيء آخر»، كمن عمد من ركاب سفينة الفضلاء الحكماء، إلى لوحة في السفينة، ورأى أنها من فضول الصناعة وعملية التكوين، وأنه يُستغنى عنها فخرقها، أو عمد إلى بعض المسامير الرئيسية، فرأى فيها الإسراف والمبالغة، وجرّه حبُّ الفضول والدخول فيما لا يعني، فقلعها، فجرّ على السفينة وعلى نفسه الشقاء، وكان سبباً للكارثة العظيمة[٤].

---

(١) سورة النساء: ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(٣) (سورة الحجر: ٩٩) أجمع العلماء المفسرون الذين يعتد بهم على تفسيره بالموت، ومسألة عدم سقوط التكليف عن العاقل البالغ مسألة معروفة في علم العقائد والكلام.

(٤) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيري الهندي، (م ٧٨٦ هـ).

ســر المحافظة على الصلوات ، وعقوبة من أنكر ذلك أو ثار عليه :

وفي الصلاة سر لسلامة الإيمان ، وسلامة الدين ، والاتصال بالله تعالى والبقاء في حظيرة الإسلام ، والانخراط في سلك المؤمنين ، لا يعلمه إلا الله تعالىٰ ، وقد ضرب بعض العارفين لذلك مثلاً عظيماً ، فقال :

«كانت لأحد الأغنياء الحكماء حديقة غنّاء ، ولمّا حضرته الوفاة ، دعا ابنه وقال له : أوصيك بالمحافظة على هذه الحديقة ، وعلى ما فيها من أشجار وأزهار ، ونباتات وحشائش ، فلا تُقص منها شيئاً استغناءً عنه أو زهداً فيه ، فإنها كلها تقوم على حِكم غامضة ، وفوائد مستورة ، ولمّا مات الرجل وآل الأمر إلى ولده ، رأى أن نباتاً قد ذوِيَ وأصبح حشيشاً لا رائحة ولا غناء فيه ، ورأى أنه يشغل مكاناً من غير جدوى ، ويسيء إلى الحديقة وجمالها ومنظرها ، فاقتلع الجرثومة ، فما لبث أن دخلتها حيّة سوداء ، فلسعت سيّدها فمات من ساعته» وعلم الناس أن الجرثومة كانت وقاية عن الحيّات والأفاعي والحشرات السّامّة ، فلا تدخل حديقة فيها هذه الجرثومة[١] .

كذلك من ترك الصلاة ، واستغنى عنها ، اعتماداً على وصوله إلى الغايات ، والنتائج التي يعتقد أن الصلاة شرعت لها ، وكانت قنطرة إليها ، أو اعتماداً على مأثرة من مآثره في خدمة الإسلام والمسلمين ، وكثرة عبادته في الماضي ، أو طول جهاده وحسن بلائه ، أو شدة اشتغاله بعمل مثمر ، يعود على الإسلام والمسلمين بالفائدة والخير الكثير[٢] ،

---

(١) المثل مأخوذ من بعض رسائل العلامة المحقق العارف بالله الشيخ شرف الدين يحيى المنيري .

(٢) شأن كثير من الزعماء السياسيين ، ورجال الحكم ، والعاملين في حقل الاجتماع =

فقد عرَّض نفسه للهلاك ، وأعماله للحبط ، وإيمانه للضياع ، وكان كالشاة المفارقة للقطيع والراعي ، التي يختطفها الذئب ويفترسها .

الصلاة للمؤمن العارف كالماء للسمك:

وكانت الصلاة استجابة لغريزة البشر النوعية ، غريزة الافتقار والضعف والطلب ، وغريزة الالتجاء والاعتصام ، والدعاء والمناجاة ، والاطراح على عتبة القوي الغني ، الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الحافظ المانع ، المعطي الباذل ، العليم الخبير ، السميع المجيب ، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء ، وغريزة الحب والحنان ، وغريزة الخضوع والتواضع ، والعبودية والتذلل ، فهو في ذلك كالسمك لا يعيش إلا في الماء ، وإذا أخرج من الماء لم يزل في حاجة إلى الماء ، وفي حنين وفي فرار والتجاء إليه ، وذلك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة»[(١)] وقوله لمؤذنه بلال: «يا بلال أقم الصلاة ، أرحنا بها»[(٢)] .

معقل المسلم ومفزعه:

وكانت الصلاة أقرب إلى المؤمن وأكثر إيواءً ، وأسرع نجدة وإسعافاً ، وأسخى وأحنى وأعطف عليه من حجر الأم الرؤوم الحنون ، على الطفل الشريد ، اليتيم الضائع ، الضعيف العاجز ، كلّما عوكس أو هُدِّد ، وكلما أصابه الروع أو الفزع ، أو مسه الجوع أو العطش ، أوى إلى

= والسياسة والتعليم والتربية في كثير من البلاد الإسلامية ، فإنهم يستهينون بأمر الصلاة ، ويعتذرون بأنهم في شغل شاغل في خدمة الأمة أو الوطن ، وفي جهاد متصل لا يترك لهم وقتاً لأداء الصلوات المكررة ، المتكثرة في اليوم والليلة .

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه أبو داود عن رجل من خزاعة من أصحاب النبي ﷺ «كتاب الأدب ، باب في صلاة العتمة» .

أمه فرمى نفسه في أحضانها ، أو تشبث بأذيالها ، كذلك الصلاة معقل المسلم وملجؤه ، الذي يأوي إليه ، والعروة الوثقى التي يعتصم بها والحبل الممدود ـ بينه وبين ربّه ـ الذي يتعلق به ، وهو غذاء الروح وبلسم الجروح ودواء النفوس ، وإغاثة الملهوف ، وأمان الخائف ، وقوة الضعيف ، وسلاح الأعزل ، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾(١) ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى(٢) ، وروى أبو الدرداء: كان النبي ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة ، كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، إذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي(٣) .

وكان هذا شأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فقد أخرج أبو داود عن النضر قال: «كانت ظلمة على عهد أنس فأتيته ، فقلت: يا أبا حمزة ، هل كان هذا يصيبكم على عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: معاذ الله! إن كانت الريح لتشتدّ فنبادر إلى المسجد مخافة القيامة» .

وكان حنينهم إلى الصلاة ، وإيثارهم لها على كلّ ما حُبِّب إلى النفس البشرية ، ومخاطرتهم بأنفسهم وحياتهم في سبيلها معروفة عند المشركين ، وقد روى مسلم عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قوماً من جهينة ، فقاتلوا قتالاً شديداً [إلى أن قال] وقالوا: إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد» .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٣ .

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه الطبراني في الكبير وفيه زياد بن صخر .

كلٌّ من الجسم ، والعقل ، والقلب ممثلٌ في الصلاة :

وذلك ، لأن الصلاة ليست حركات رياضية ، ونظاماً رتيباً خشبياً جامداً ، لا روح فيه ولا حياة ، ولا نظاماً عسكرياً لا إرادة فيه ولا خيار ، إنما هو عمل يشترك فيه الجسم ، والعقل والقلب ، ولكل منها نصيب غير منقوص ، وكلٌّ فيها ممثَّل تمثيلاً حكيماً عادلاً ، فللجسم قيام ، وركوع ، وسجود ، وانتصاب وانحناء ، وللسان تِلاوة وتسبيح ، وللعقل تفكر وتدبّر ، وتفهم وتفقه ، وللقلب خشوع ورقة والتذاذ ، وقد أعطى الله تعالى في كتابه المحكم كلاً نصيبه فقال: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾[1] وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾[2] وكل ذلك من أعمال الجسد وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[3] فنصَّ على أن الصلاة لابد أن تكون عن تعقّل وشعور ، وذلك من أعمال العقل ، وقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾[4] والخشوع من أعمال القلب ، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[5] والخوف والطمع من أعمال القلب.

الاقتصار على تمثيل واحد من الثلاثة جهل وضلال :

ذلك لأن الإنسان جسم ، وعقل ، وقلب ، فجاءت الصلاة المشروعة

---

(١) سورة البقرة: ٢٣٨.
(٢) سور الحج: ٧٧.
(٣) سورة النساء: ٤٣.
(٤) سورة المؤمنون: ١ ـ ٢.
(٥) سورة السجدة: ١٦.

في الإسلام أكمل صلاة ، مثلت فيها الطبيعة البشرية بنواحيها الرئيسية وشُعبها المميزة ، وقد ضلّ من المشرّعين والمتعبدين من اقتصر على الحركات الرياضية ، كما كان عند اليهود في الدور الأخير ، وضلّ من اقتصر على التدبّر والتفكُّر ، والمراقبة والتأمّل ، كما فعل بعض الصوفية المنحرفين ، وكثير من الحكماء المتفلسفين ، وضل كذلك من اقتصر على الخشوع والرقة ، والبكاء والدعاء ، أو السكر بالمحبة والحنين ، كما فعل بعض المتألهين ، أو الرهبان المتعبدين ، من جَهَلة النصارى ، أو أدعياء المسلمين.

وضع الصلاة الدقيق الحكيم ، ونظامها التربوي المعجز:

وقد هيأت الحكمة الإلهية ، والتشريع الرباني «الصلاة» تهيئة دقيقة عميقة ، هي من المعجزات التشريعية ، لتحقّق غاية العبودية ، والإخلاص لله تعالى ، وغاية الخضوع والتذلّل ، والاستغاثة والابتهال ، وإحياء الصلة بالله تعالى ، وتجديدها ، والانقطاع عمّا سوى الله ، وإعلان الثورة على كل من نازع الله في ألوهيته ، أو ربوبيته ، أو عظمته وكبريائه ، أو حكمه وطاعته المطلقة ، ومن دعا إلى نفسه ـ بلسان المقال أو بلسان الحال ـ بالإخبات والخضوع ، أو بالعبادة والخشوع ، ومن زعم ـ ولو بلسان الحال ـ أنه يأمر وينهى ، ويُرجىٰ ويخشى ، ولتنشىء في النفس قوة روحية ، وإيماناً عميقاً جديداً ، ونوراً يفيض به القلب ، يستطيع أن يقاوم به أقوى الفتن والمغريات ، وأقسى الحوادث والكوارث ، ويتغلب به على شرور النفس ومكايدها ، ومواضع ضعفها وسقطتها.

استقبال القبلة في الصلاة ، حكمته وتأثيره:

أُمر المصلي باستقبال الكعبة في الصلاة ، وهو البيت العتيق الذي بُني

لله وحده ، واختصّ بالعبادة لله حين كانت البيوت ، والمعابد ، والهياكل على ظهر الأرض لغيره ، تعبد فيها الأصنام والحجارة ، والأجرام الفلكية ، والآلهة الخيالية[١] ، فكان هو البيت الأول الوحيد ، الذي انفرد بعبادة الله ، والدعوة إليه ، وكان رمزاً أبدياً ، وشعاراً عالمياً للتوحيد ، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢] ، بناه أبو الأنبياء ، وإمام التوحيد ، ومؤسّس هذه الملة الأول ، إبراهيم الخليل ، وابنه الجليل إسماعيل ، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٣] وكان أساسه على نقيض ما كان عليه النّاس يومئذٍ من عبادة غير الله ، وإطاعة الطاغوت ، وإعلان الحرب على كل ذلك ، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] ، فكان اختصاصه بالتوجه إليه ، واستقباله في أعظم العبادات وأعمّها ، إعلاءً لشعار التوحيد ، وإعلاناً بموافقة إبراهيم في عقيدته ودعوته ، وشارته وقبلته ، والانتماء إليه ، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٥] . يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«لما كانت الكعبة من شعائر الله ، وجب تعظيمها ، وكان من أعظم التعظيم أن تستقبل في أحسن حالاتهم ، وكان الاستقبال إلى جهة خاصة

---

(١) كإله «الحب» وإله «الجمال» وإله «الحرب» وغيرها من الآلهة والإلهات عند اليونان ، والهنود ، والآشوريين ، وقدماء المصريين.

(٢) سورة آل عمران : ٩٦ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٤) سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٦.

(٥) سورة الحج : ٧٨.

هنالك بعض شعائر الله منبِّهاً للمصلي على صفات الإخبات والخضوع ، مذكراً له هيئة قيام العبيد بين يدي سادتهم ، جعل استقبال القبلة شرطاً في الصلاة»[١] .

وقد أنتج هذا التشريع الحكيم وحدة الاتجاه العالمية التي ليس لها نظير ، والتي لها الأثر الكبير العميق في وحدة الملة ، وفي وحدة القلوب ، وفي وحدة التفكير ، والأثر الكبير العميق في اجتماع الخواطر ، وتركُّز الهمة ، وانصراف التوجه إلى جهة واحدة ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي : «وكان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله بطلب رضا الله بالتقرب منه ، أجمع للخاطر ، وأحثَّ على صفة الخشوع ، وأقرب لحضور القلب ، لأنه يشبه مواجهة الملك في مناجاته»[٢] ويقول : «إن توجيه القلب لما كان خفياً نصب توجيه الوجه إلى الكعبة التي هي من شعائر الله مقامه كالوضوء وستر العورة ، وهجر الرجز ، فإنه لما كان التعظيم أمراً خفياً ، نُصبت الهيئات التي يؤاخذ الإنسان بها نفسه عند الملوك وأشباههم ، ويعدّونها تعظيماً»[٣] .

جلال كلمة التكبير ، ومعانيها وآفاقها :

وشرع افتتاح الصلاة بالتكبير ، وبالكلمة المأثورة المتواترة المشروعة ، لافتتاحها ، وهي قول «الله أكبر» الكلمة البليغة الواضحة ، المفهومة في كل زمان ومكان ، ولكل مجتمع وبيئة وفرد ، القوية المدوّية المجلجلة ، التي يخشع أمامها الجبابرة ، ويهوي لها كل صنم ، ويضطرب بها كل طاغية وطاغوت ، ـ لو قالها المصلي بفهم ووعي ،

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ـ ص ٣٦ .
(٢) حجة الله البالغة ـ الجزء الثاني ص٢ .
(٣) حجة الله البالغة ـ ج١ ـ ص ٧٣ .

وإيمان وعقيدة ، ولو فهمها الأدعياء والمتزعمون ، والمتسلّطون على حقيقتها ـ ، إن القدر المُشترك بين الأصنام التي تُعبد ، والأشخاص التي تؤلّه ، والأشياء التي تقدّس ، والقوى التي يخضع لها ، والرؤساء والزعماء الذين يطاعون طاعة عمياء مطلقة ، هو العظمة والكبرياء ، والتفوّق والترفّع ، والاستعلاء والاستيلاء ، فجاءت هذه الكلمة الموجزة المعجزة التي أمر بها في قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] ، تنفي هذه الدعاوى والدعوات ، والمزاعم والإعلانات ، والأوهام والخرافات ، والمظاهر والسخافات ، ويثور بها المصلي ثورة حاسمة عارمة ، شاملة كاملة ، فهو بذلك ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[2]. ولا وكراً من أوكار الفساد ، ولا خلية من خلايا الطغيان ، إلاَّ أتى عليها ، إنها أبلغ كلمة تفتتح بها صلاة المسلم الموحِّد.

طبيعة هذه الشهادة والعقيدة ، وأمثلة رائعة لها من التاريخ:

وإذا آمن الإنسان بهذه الكلمة ، التي يفتتح بها صلاته ، فيعتقد ويشهد بعظمة الله وكبريائه ، ويقول بلسان صدق وجدّ: «الله أكبر» وهيمنت عليه هذه العقيدة والشهادة ، وتغلغلت في أحشائه ، تضاءلت أمامه كل عظمة وكبرياء ، يتظاهر بها الملوك والرؤساء ، أو العظماء الكبراء ـ كما يسميهم الناس ـ وزالت مهابتهم من القلب ، حتى تراءوا له حيوانات حقيرة ، أو صوراً ودمىً هزيلة ، واستخفّوا بمظاهر دولتهم وسطوتهم استخفاف العماليق بسخافات الأقزام ، واستخفاف الشيوخ الكبار ، بمهازل الأطفال الصغار.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم خير مثال لذلك ، وقد روى

---

(١) سورة المدثر: ٣.
(٢) سورة الكهف: ٤٩.

المؤرخون الشيء الكثير ممّا يدلّ على استخفافهم بمظاهر القوة والعظمة ، ومشاهد الزينة والزخرفة ، منها ما رواه المؤرخ ابن كثير عن ربعي بن عامر ، قال: «أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم ، فدخل عليه وقد زيّنوا مجلسه بالنمارق المذهّبة ، والزرابي الحرير ، وأظهر اليواقيت واللآليء الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربعي بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وبيضة على رأسه ، فقالوا له: ضع سلاحك ، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا ، وإلاّ رجعت ، فقال رستم: «ائذنوا له ، فأقبل يتوكّأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق عامتها»[١] .

ولم تزل هذه العقيدة العميقة تصنع العجائب في جميع أدوار التاريخ الإسلامي ، وتنشىء في أصحابها القوة الخارقة للعادة ، فيواجهون الملوك والأمراء بما لا يواجه به كثير من الناس الفقراء والضعفاء ، وتتبخّر أمامهم أُبهة الملك وحشمة الملوك ، فكأنها لا شيء ، ومن روائع قصص هذا الإيمان العميق ، والشجاعة الخلقية ، ما رواه الباجي أحد أصحاب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام[٢] ، يقول: «طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان[٣] في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء

---

(١) البداية والنهاية: ج٧ ـ ص٩ .

(٢) «توفي سنة ٦٦٠ هـ» .

(٣) هو الملك الصالح نجم الدين أيوب . توفي ٦٤٧ هـ .

تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوِّىء لك ملك مصر ، ثم تُبيح الخمور؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم! الخانة الفلانية ، يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال: يا سيدي! هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ، فقال : أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أُمة! فرسم السلطان بإبطال تلك الخانة ، وسألت الشيخ لما جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر ، يا سيدي! كيف الحال؟ فقال: يا بنيّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقلت : يا سيدي! أما خفته؟ فقال: والله يا بنيّ استحضرت هيبة الله ، فصار السلطان قدّامي كالقط[١].

ولم يزل تاريخ الدعوة والعزيمة ، وتاريخ الإيمان والعقيدة ، يعيد نفسه في كل عصر ومصر ، فقد روى المؤلف الهندي «الشيخ محمد بن مبارك الكرماني»[٢] قصة مماثلة ، يقول:

«طلب السلطان محمد تغلق[٣] الشيخ قطب الدين المنور[٤] إلى دهَلي ، يعاتبه أو يعاقبه ، على عدم حضوره لتحية الملك ، وقد مرّ بجواره ، فلما حضر «البلاط» ودخل الديوان ، رأى الأمراء والوزراء والحكام ، ورجال البلاط واقفين سِماطَين ، متخشعين مسلحين ، في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السنِّ

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ـ ص ٨٢.

(٢) (توفي سنة ٧٧٠ هـ).

(٣) الملك الجبار الذي اشتهر في تاريخ الهند بسطوته ، وعسفه ، وسفك الدماء (توفي ٧٥٢ هـ).

(٤) من شيوخ الهند الكبار (توفي ٧٥٧ هـ).

لم يزر «بلاط» الملك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب ، وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً : يا ولدي ، العظمة لله! يقول نور الدين: إني استشعرت في نفسي قوة غريبة بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي ودابت ، وبدا الجميع عندي ، كأنهم قطيع من ضأن أو معز[1] .

أذكـار الافتتـاح وأدعيتـه :

ثم تأمل في جميع الأذكار والأدعية ، التي كان رسول الله ﷺ يفتتح بها صلاته ، كلها إخلاص وتوحيد ، وتقديس وتمجيد ، أو إخبات وإنابة ، وتلهُّف واستغاثة ، وحسبك أن تنظر فيما ثبت في الأحاديث الصحيحة من قوله ﷺ :

«سبحانك اللَّهمّ وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدُّك ولا إله غيرك[2]» أو قوله :

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقِّني من الخطايا كما ينقّى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد» أو قوله : «الله أكبر كبيراً ، الحمد لله كثيراً ، سبحان الله بكرة وأصيلاً ، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزِه ونفخِه ونفثِه»[3] .

---

(١) سير الأولياء ، من ٣٥٣ إلى ٣٥٥ .

(٢) رواه أهل السنن عن أبي سعيد الخدري . وروي عن عائشة أم المؤمنين ، وصح عن عمر بن الخطاب أنه كان يستفتح به في مقام النبي ﷺ ويجهر به ويعلمه الناس .
قال العلامة ابن القيم : وغيره من الاستفتاحات عامتها إنما هي في قيام الليل في النافلة ، وهذا كان عمر يفعله ويعلمه الناس في الفرض . (زاد المعاد ـ ج١ ص ٥٣) .

(٣) واقرأ الأذكار والصيغ الأخرى في كتاب (زاد المعاد للعلامة الحافظ ابن قيم الجوزية وغيره من كتب السنة) .

ثم يتعوذ من الشيطان الرجيم ، ويبسمل اهتماماً بهذه الصلاة التي يدخل فيها ، وحرصاً على ألا يكون للشيطان نصيب فيها ، وإجلالاً وتعظيماً للقرآن الذي يقرؤه ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

سورة الفاتحة ، جمالها وجامعيتها ، وتأثيرها في الحياة :

ثم تأمل في سورة الفاتحة ، التي هي الدرة الفريدة في المعجزات السماوية ، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية ، لو اجتمع أذكياء العالم وأدباء الأمم ، وعلماء النفس وقادة الإصلاح ، وزعماء الروحانية ، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم ، وعلى تنوع حاجاتهم ، وعلى تشتت خواطرهم ، يتقدمون بها أمام ربهم ، ويتعبّدون بها في صلواتهم ، تعبِّر عن ضمائرهم ومشاعرهم ، وتفي بحاجاتهم وأغراضهم ، لما جاؤوا بأحسن منها أو مثلها ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[2] .

وقد افتتحت بالحمد ، وهي الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء ، ومن الكلمات البليغة المعجزة ، التي لا تمكن ترجمتها في لسان آخر ، والحمدُ خير ما يبتدئ به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى ، وعرف قدره ، وهو خير ما يُفاتح به في هذا الموقف الشريف ، وفي هذا المقام المحمود .

ثم يقرِّر المصلي أن الربّ الذي يحمده ، ويقوم ليستعين به ويعبده ،

---

(١) سورة بني إسرائيل : ٨٨ .

(٢) سورة الحجر : ٨٧ .

هو ليس ربّ قبيلة أو شعب ، أو أسرة أو فصيلة ، أو بلد ووطن ، إنما هو رب العالمين ، العقيدة الغريبة الثائرة ، التي تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة ، التي جنت على الإنسانية أكبر جناية ، وهكذا يُعلن المسلم وحدتين ، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام الإسلام ، في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية ، والوحدة البشرية ووحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد ووطن ، أو لون ودم ، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرةً «وهي الأساس» ، لأن الرب واحد ، ومرة ثانية ، لأن الأب واحد ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٢] . وفي شرحه وتطبيقه ، يقول رسول الله ﷺ في حجة الوداع :

«إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»[٣] .

ثم يذكر المصلي من صفات الرب الكريمة ، الكثيرة ، التي عرفها وآمن بها ، صفة الرحمة التي هي من أليق الصفات ، ـ وكلها لائقة كريمة ـ بهذا الموقف الذي يقفه المسلم عابداً خاشعاً ، داعياً مبتهلاً ، محتاجاً فقيراً ، تائباً آيباً ، والمقام مقام الرجاء لا اليأس ، ومقام التفاؤل لا التشاؤم ، ثم يذكر ويتذكر يوم الدين يوم الجزاء ، والعقاب ، الذي

---

(١) سورة النساء : ١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

(٣) رواه الترمذي وغيره عن النبي ﷺ .

يتجلى فيه ملك الله وملكوته، في أروع مظهر، لا ينازعه فيه ملك زائف، أو حكم عارض، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[١]. فيجدد في نفسه الإيمان بالآخرة، واستحضارها الذي هو مصدر الخوف والمراقبة، ومصدر الرقابة على النفس والضمير، وما أحوج المسلم، وهو الذي يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات، ويخوض فيها إلى هذا الاستحضار!.

ثم يُعلن في كل تأكيد عرفته لغة العرب التي نزل فيها القرآن، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية ـ الرسمية ـ وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية، أنه لا يعبد إلّا الله، ولا يستعين إلّا به[٢]، وما الحياة إلّا عبادة واستعانة، وبهما يتصل الإنسان بالإنسان، والضعيف بالقوي، والفقير بالغني، والمحكوم بالحاكم، والعابد بالمعبود، فإذا جُرِّدنا، وأُفردنا لله تعالى، فُكّت السلاسل والأغلال وحُطمت الأوثان والأصنام، وبطل الشرك وزالت الفتنة، وكان الدين كله لله، أعظم إعلان يعلنه مسلم، وأكبر تعهد يتعهده، فلينظر ما يقول، وليكن على نفسه حسيباً رقيباً. فكل ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة، إما يدعوه لخضوع واستكانة، وإما يدعوه لسؤال واستعانة، وقد كفر بهما جميعاً، وثار على كل من تزعمهما، أو تظاهر بهما.

ثم يدعوه للهداية للصراط المستقيم، التي هي أعظم حاجاته، وأعز مطالبه، وهي التي بعثت لها الأنبياء، وأُنزلت لها الصحف، وقامت عليها سوق الجنة، هي التي لا قيمة لشيء إذا فُقدت، ولا نقص في الحياة والسعادة إذا وُجدت، وهي التي فُطرت النفوس البشرية على حبها

---

(١) سورة المؤمن: ١٦.

(٢) انظر فائدة التقديم لضمير المنصوب المنفصل وما يفيده من الحصر والتأكيد، وما فيه من النكات النحوية والبلاغية في كتب التفسير، والنحو، والبلاغة.

وطلبها ، والبحث عنها ، والجهاد في سبيلها ، ولكن الهداية لا تقوم في الخلاء ، ولا تفهم إلاّ بأهلها ، ولا تتمثل إلاّ في أصحابها ، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم ـ من النبيين والصدّيقين ، والشهداء ، والصالحين ـ وقد حثّ القرآن ـ وجميع الصحف السابقة ـ على حبهم والانتساب إليهم والانضواء إلى رايتهم ، والاقتداء بهديهم ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾[1] ويتبع ذلك التبرؤ من الذين جانبوا الهداية ، وكفروا بالنعمة ، واتّبعوا الهوى ، وسلكوا طريق الردى ، أولئك الذين أسرفوا في العناد ، وبالغوا في الإفراط ، فحلّ عليهم غضب الله ، أو بالغوا في التحريف ، وتورّطوا في التفريط ، فوقعوا في الضلال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ[2] عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[3].

تلاوة ما تيسر من القرآن:

وشرعت تلاوة ما تيسّر من القرآن: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ ﴾ لتؤكد

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

(٢) لا يتذوق كلمة «المغضوب عليهم» ولا يؤمن بصحتها وانطباقها على اليهود إلا من درس تاريخهم وعرف سيرتهم ، والدور الهدام الذي لعبوه في تاريخ الإنسانية والمدنية ، وما يحملونه من حقد دفين للأجيال البشرية عامة ، ومنْ حب الاستعلاء بالاستئثار.

(٣) وكذلك لا يفهم الإنسان سر اختصاص النصارى بالضلال ووصفهم «بالضالين» إلا إذا قرأ تاريخ المسيحية ، وما تعرضت له من المسخ والتحريف ، والغموض والالتباس ، منذ نشأتها وفي عهدها الباكر ، والدور الذي لعبه «بولس» في تطوير هذه الديانة وتلوينها بلون خاص ، والدور الذي لعبته الكنيسة في تكوين العقيدة النصرانية وتفسيرها ، وخضوع العالم المسيحي لجميع هذه العوامل والمؤثرات ، راجع ـ على سبيل المثال ـ كتاب «إظهار الحق» للعلامة رحمة الله الكيرانوي الهندي (١٢٣٣ ـ ١٣٠٨ هـ).

هذه المعاني وتغرسها في النفس ، أو تشرحها ، وتسقيها ، وتُغذيها ، لأن الصلاة عبادة وتعليم .

الخضوع الطبيعي ، المتدرج :

ويتدرج المصلي في الخضوع والانحناء ، فيفتتح الصلاة بالقيام ، فيثنّي بالركوع ، ويثلّث بالسجود ، وهو شأن الخاضع الطبيعي ، ولا يَخِرُّ ساجداً من ركوع ، بل يقف وقفة قصيرة خفيفة ، ثم ينحني للسجود ، ليكون أبلغ في الخشوع وأوقع في النفس ، وأدلّ على الذلّ[١] . وكذلك يتدرَّج في التعظيم والتمجيد . فيقول في ركوعه : «سبحان ربي العظيم» ويقول في سجوده : «سبحان ربي الأعلى» ، فإذا بلغ الغاية في الخضوع والتذلّل ، ونصب أشرف أعضائه على أذلّ شيء في الوجود ، الأرض التي هي موطىء الأقدام ، ومضرب المثل في الذّلة والهوان ، هتف بأعظم كلمة يُعلن بها عظمة الله وعلوه ، فيقول : «سبحان ربي الأعلى» وهنا تتفق روعة الهيئة والمكان ، مع روعة البيان والإعلان ، ويفصل بين السجدتين بجلسة خفيفة ، لتكون السجدة مستأنفة مجدّدة ، ولتنتبه النفس من غفوتها ، وتشعر بلذة جديدة .

السجدة الخاشعة الحنون ، التي يضطرب لها الكون :

وإذا سجد ، فك سلاسل التقليد ، السلاسل التي فرضها عليه المجتمع والأعراف ، والعادات والآداب ، فخرّ ساجداً لله تعالى يمرِّغ وجهه ، ويعفّر جبينه ، وأعطى القلب زمامه ، وأرسل النفس على سجيّتها ، فلا حجر على الخشوع ، ولا ملامة على الدموع ، وقد غلىٰ

(١) يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي ، وهو يذكر حكمة القومة بين الركوع والسجود ، «بها يحصل الفرق بين الذي هو مقدمة السجود ، وبين الركوع الذي هو تعظيم برأسه» (حجة الله البالغة ج٨ ـ ص ٧٦).

مرجل الصدر ، وفاضت كأس القلب ، ولذلك يقول الصحابة رضي الله تعالى عنهم: «ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[١]. وحكى عمرو بن العاص صلاة رسول الله ﷺ في الكسوف فقال: «ثم نفخ في آخر سجوده ، فقال: أفِّ أفِّ ، ثم قال: ربِّ ألم تعدني ألاَّ تعذِّبهم وأنا فيهم ، ألم تعدني ألاَّ تعذِّبهم وهم يستغفرون»[٢].

وفي رواية (حين ينفخ يبكي).

والسجود أقرب هيئات المصلي وأحبها إلى الله ، وقد ورد في الحديث الصحيح: «أقرب ما يكون العبد من ربِّـه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٣].

فينتهز المصلي هذه الفرصة الثمينة ، وينثر كنانة القلب ، ويُفرغ جعبة الدعاء والعبودية ، فيقول بلسان المقال أو بلسان الحال[٤] : «أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاءَ من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه»[٥].

وهذه هي السجدة التي ترتعش لها الجبال الرّاسيات ، وتهتزّ بها الأرض ، ويرتعد لها الجبابرة الطغاة ، ولها في تاريخ الأمة ومغامراتها ، ومحنها شؤون ، وأخبار غريبة.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي عن عبد الله بن الشخير.

(٢) رواه أبو داود والنسائي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) يرى الفقهاء الحنفية رحمهم الله أن الأدعية المأثورة ، أو ما يريده المصلي من دعاء محله التطوع والنوافل ، بخلاف ما يراه السادة الشافعية ، والمحدثون الكرام.

(٥) من الدعاء المأثور في عرفة في «كنز العمال» مروياً عن ابن عباس رضي الله عنه.

الصلاة على النبي ، محلها في الصلاة ، وحكمتها :

وهكذا يستمر المصلي في صلاته ، يكرر القيام والركوع ، والسجود ، وأجزاء الصلاة الأخرى ، حتى يقعد القعدة الأخيرة ، ويتشهَّد ويسلم على النبي ﷺ ، فيقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» ، ثم يسأل الله أن يصلي ويبارك عليه وعلى آله ، كما صلّى وبارك على إبراهيم وآله ، فيقول: «اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

لقد كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وسائط بين الحق والخلق في الهداية ، وبهم تتحقق معرفة الذات والصفات ، وبهم يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويُوفّقون للكلم الطيب ، والعمل الصالح ، لذلك لم يقف أهل الجنة عند قولهم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[1] ، بل ضمّوا إليه قولهم: ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾[2] فقد كانوا هم السبب الطبيعي في وصول الهداية إليهم ، والتوفيق لكل ما يخلِّصهم من الجهل والضلال في الدنيا ، والشقاء والعذاب في الآخرة ، فاستحقّوا بذلك شكر الأمم التي جاهدوا في دعوتها وتعليمها الجهاد الأكبر ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الهداية والمعرفة ، والإنابة والعبادة ، وما كانت هذه الصلاة التي يقومون بها أمام ربهم ، إلا نتيجة الرسالة التي حملوها ، والجهاد الطويل الشاق الذي قاموا به ، فاقتضت طبيعة الشكر والاعتراف بالجميل ، ألا ينصرفوا من صلاتهم حتى يستوفوا هذا الحق.

ثم كان لمحمد القدح المعلّى ، والمقام المحمود في الدعوة إلى

(١) سورة الأعراف: ٤٣.
(٢) سورة الأعراف: ٤٣.

الله ، وتبليغ رسالته ، والجهاد في سبيلها ، فقد بدأ دعوته وجهاده، وليس على ظهر الأرض ، إلا أفراد قلائل مُشتّتون موزّعون ، يعبدون الله وحده ، وليس في جزيرة العرب ، التي بُعث فيها مؤمن بالله يعبد الله مخلصاً له الدين ، ويطأطىء له الرأس ، وينصب له الجبين ، وقد كان في جوف الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[1] فلم يفارق هذه الدنيا ، ولم يلق ربّه حتى قرت عينه، إذ رأى غرسه يُثمر ويؤتي أكله ، فانتشر الإسلام في الجزيرة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وبُنيتِ المساجد ، وارتفع صوت الأذان في كل مكان ، ورأى المسلمين سراعاً إلى مسجده ، وقد منعه المرض الشديد عن الإمامة ، فما فتّر ذلك نشاطهم ، ولا نقص من عددهم ، أفلم تكن هذه الصلاة التي وفّق لها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، إلاّ حسنة من حسناته ، وثمرة من ثمرات دعوته وجهاده ، أفلا يجدرُ بالمسلم إذا أدى حق الله في حمده، والثناء عليه ، أن يختم ذلك بالدعاء للنبي ﷺ بالرحمة والبركة؟! .

ثم إن في ذلك وقاية وحرزاً عن الشرك ، فمن سأل الله الصلاة والرحمة على النبي ﷺ ، ورأى أن ذلك يفيده ويسرّه ، كان في مأمن من أن يعتقد أن في العالم من يستغني عن رحمة الله ، ويستغني عن مثوبته وكرامته ، ويُشارك الله في ذاته أو صفاته[2] ، فقد كان رسول الله ﷺ رحمة للعالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، وقد دعا الله للصلاة عليه ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[3] وحث النبي ﷺ بنفسه على الصلاة عليه ، وسأل أمته

---

(١) سورة الأنفال: ٣٥.

(٢) الفكرة مستفادة من كتاب (معارف الحديث) للشيخ محمد منظور النعماني (المجلد الثالث).

(٣) سورة الأحزاب: ٥٦.

ذلك ، كما جاء في أحاديث صحيحة مستفيضة تكاد تبلغ حد التواتر[١] .

ثقة المسلم بنفسه وتحديد جماعته وحزبه :

وقد كان للمصلي الذي أدى حق الله في الحمد والثناء عليه ، وحق الرسول في الدعاء له والصلاة عليه ، حظّ من السلام الذي يحتاج إليه ويحرص عليه ، والذي كان شعاراً للإسلام ، وتحية للمسلمين ، فيقول المصلي: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» وبذلك يتعين مكانه وحزبه ، فهو مع عباد الله الصالحين في كل مكان وزمان ، يشاركهم ويلتقي معهم على دين الله الإسلام ، وفي الإخاء والسلام ، وذلك ينشىء فيه الأمل والثقة ، ويحارب فيه اليأس ، وما يسمّيه علماء النفس اليوم «بمركَّب النقص» إذا يقرن بينه وبين زملائه المصلّين ، وبين فضلاء الأمة وعباد الله الصالحين ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢] .

ثم يدعو المصلي لنفسه ، ويتعوذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال[٣] ، فكل ذلك

---

(١) اقرأ الأحاديث الواردة في الصلاة والسلام ، ومعانيها وحكمها ، ولطائفها في كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» للعلامة ابن قيم الجوزية.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) روى مسلم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم هذا الدعاء ، كما يعلمهم السورة من القرآن ، يقول: قولوا ، «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» وروي عن أبي هريرة «رضي الله عنه» عن النبي ﷺ ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال».

جدير بأن يتعوذ منهم المسلم ويلتجىء إلى الله من شرِّه وفتنته ، وقد جاء في الحديث:

أن رسول الله ﷺ قال: «إنه لم يكن نبيٌّ بعد نوح إلا قد أنذر الدجّال قومه ، وإنّي أُنذركموه»[١].

نهاية الصلاة ، وحسن خاتمتها:

وبعد ذلك كله ، وبعد ما بذل جهده في إحسان هذه الصلاة ، وأداء حقوقها ، يعترف بالتقصير ، كأنه يقول بلسان الحال ، «ما عبدناك حق عبادتك» ويقول في لفظ النبي ﷺ الذي أوصى به خليله أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان أفضل الأمة بعد نبيّها ، وكانت صلاته أكمل الصلوات بعد صلاة الرسول [صلى الله عليه وسلم]: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[٢] فيكون الاعتراف بالتقصير آخر الكلام ، ويكون الندم مسك الختام ، وهو أفضل ما تختم به صحيفة أعمال.

ولا ينصرف من الصلاة ولا يقوم منها مسرعاً ، كأنه أُنشط من عقال ، أو خرج من سجن ، بل يختم ذلك بخاتمة جميلة كريمة ، مباركة طيبة ، فيلتفت عن يمينه وعن شماله ، ويسلّم على المصلين وجماعة المسلمين ، وعلى الملائكة الشاهدين ، فيقول: «السلام عليكم ورحمة

---

(١) رواه الترمذي وأبو داود عن أبي عبيدة بن الجراح ، اقرأ في موضوع الدجال وفتنته ، تفسير سورة الكهف في كتابنا «تأملات في القرآن».

(٢) روى البخاري في صحيحه عن أبي بكر الصديق «رضي الله عنه» قال: قلت يا رسول الله! علمني دعاءً أدعو به في صلاتي: قال ، قل: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الله»[١] كأنه كان قد انتقل إلى عالم آخر ، وانقطعت صلته عن كل ما يحيط به من موجود مشهود ، ثم عاد إلى مكانه الأول ، ومركزه في الحياة ، فأقبل على من حوله وسلّم عليهم ، شأن العائد من سفر ، أو الحاضر من غيبَته[٢] ، وقد جاء في الحديث الصحيح: «مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم»[٣] .

تناقض الصلاة «الحقيقية» مع عبادة غير الله ، وعبودية الإنسان ، والحياة الجاهلية:

ومثل هذه الصلاة الخاشعة المخلصة ، التي يحافظ عليها المسلم بروحها وحقيقتها ، وآدابها وأوقاتها ، لا تتفق ولا تنسجم مع عبادة غير الله ، ومن مظاهرها : الشرك والوثنية ، والخرافة ، وعبودية غير الله ، ومن مظاهرها رهبة الملوك والأمراء ، وأصحاب القوة والثروة ، والأمر والنهي ، واعتقاد النفع والضرر فيهم ، والتزلف إليهم بكل وسيلة ، وتملقهم ، ومسايرتهم في جورهم وعدوانهم ، والمناداة على العقيدة والضمير[٤] ، كما شاهدنا في عصر الملوكية الأول ، وكما نشاهد كل يوم في عصر الحرية ، «والديمقراطية» الحاضر.

---

(١) يقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي: «وجعل التشهد ركناً ، لأنه لولا هذه الأمور لكان الفراغ من الصلاة مثل فراغ المعرض أو النادم» (حجة الله البالغة ج٢ ـ ص ٥).

(٢) من كلام الإمام محمد قاسم النانوتوي رحمه الله (م ١٢٩٧ هـ) في رسالته البديعة (قبلة نما) يعني دليل القبلة.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والدارمي وابن ماجه ، عن علي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، انظر الفصل الدقيق العميق في بيان المصالح المقتضية لتعيين الفرائض والآداب ، ونحو ذلك في الصلاة ، لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة ج١ ص ٧٥ ـ ٧٦).

(٤) يعني بيعهما بالمزاد العلني كما يقول المصريون.

فجميع أركان الصلاة ، وجميع ما يقوله المصلي فيها ، ويقطعه على نفسه ويعلنه ينافي ذلك أشد المنافاة ، ويعارضه أشد المعارضة ، وهو يعارض الكلمة التي يفتتح بها صلاته ، وهو قوله «الله أكبر» ويعارض قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا رب غيره ولا حمد لغيره ، وهو يعارض قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا عبادة لغيره ولا استعانة بغيره ، وهو ينافي الركوع والسجود ، «فلا ركوع جسدياً ومعنوياً» «ولا سجود ظاهراً وباطناً» إلاّ لله تعالىٰ ، لذلك كان الذين تحققت فيهم هذه الصلاة ، من أشجع النّاس أمام الملوك والأمراء ، وأجرئهم على الجهر بكلمة الحق ، وأزهدهم في حطام الدنيا ، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان[١].

تأثير الصلاة في الأخلاق والميول:

وللصلاة تأثير في صرف النفس عن الأخلاق الرذيلة ، والفحشاء

---

(١) ومن أمثلته الرائعة المستطرفة التي ليس عصرها بعيداً ، أن شيخاً ممن صحب السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) إمام دعوة التوحيد والجهاد ، ومؤسس الحكومة الشرعية في القرن الماضي في الهند ، قصد مرة طبيباً مسلماً في بلده ، وكان الشيخ ، قد علت سنه وأنهكه المرض ، وكان المحل بعيداً ، فما وصل إلى الطبيب إلا وقد بلغ الجهد ، وأعياه المشي على الأقدام ، وبقي ينتظر خروج الطبيب برهة طويلة ، فلما خرج الطبيب بعد انتظار شاق ، أقبل على عبادة مبتدعة ، فيها تعظيم لغير الله ، فما كاد يقع نظر الشيخ عليه ، إلا أمر تلميذه بالانصراف ، وخرج من ساعته ، فلما كان في الطريق ، قال له: ما رأيت كاليوم! أجهدت نفسك في الوصول إلى الطبيب ، وأطلت الانتظار ، فلما خرج ، بادرت إلى الانصراف ولم تقض حاجتك منه ، فقال له ، ويحك ألم تره ، يعصي الله ويشرك به؟ فقال: ما لنا ولعمله ، عليه ضلالته وسخافته ، ولنا صناعته وبراعته ، فقال: عجباً لأمرك؟ إذا سكت على ذلك ، واستعنت به ، فكيف أقوم في الليلة أمام ربي. وبأي لسان أقول في قنوت الوتر : «ونخلع ونترك من يفجرك».

والمنكر ، والتمتع بالمتعة الرخيصة ، ليس لشيء آخر بعد كلمة التوحيد ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1] وذلك لأنها تصرف صاحبها من جهة إلى جهة ، ومن ذوق إلى ذوق ، ومن طلب إلى طلب ، ومن تفكير إلى تفكير ، ومن سفساف الأمور إلى معاليها ، وتحبب إليه الإيمان ، وتزيِّنه في قلبه ، وتكرِّه إليه الكفر والفسوق والعصيان ، هذا إذا كانت الصلاة حقيقية تتدفق بالحياة ، وتفيض بالحرارة والقوة ، ولذلك لما فوجىء قوم شعيب بالدعوة إلى التوحيد ، والفضيلة والتقوى ، والإنكار على ما كانوا فيه من ظلم ، وبخس ، وتطفيف ، أقبلوا على حياة شعيب يلتمسون فيها مصدر هذا الانقلاب وهذا الاختلاف ، فقد وُلد ونشأ فيهم كابن قبيلة وابن بلد ، والذي يردون إليه طبيعة هذا الخصام والنزاع ، فلم يجدوا في حياته شيئاً أوضح من الصلاة التي كانوا يشاهدونها ، ويتعجبون لحُسنها وطولها ، فقالوا : ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[2] .

التشريعات الحكيمة ، لتفخيم شأن الصلاة ، وخلق الجو المناسب لها :

وقد هيّأ الله بتشريعه الحكيم لها جواً من الإجلال والتعظيم ، ومن الخشوع والرقة ، ومن الجد والرزانة ، ومن الوقار والسكينة ، ومن التعاون والاجتماع ، ما لا يوجد له نظير لعبادة أو نسك في دين آخر ، وفي ملة أخرى .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٢) سورة هود : ٨٧ .

الأذان نداء للصلاة ، ودعوة للإسلام:

فشرع للدعوة إلى الصلاة والجمع عليها نداءً ، لم تتجلّ فيه مقاصد الصلاة ، ومعانيها فحسب ، بل تجلّت فيها كذلك مقاصد الإسلام وشعار التوحيد ، وروح الدين ، بوضوح وبلاغة وإيجاز ، وجمال ونغمة ، أصبح بها هذا النداءُ الذي يرفع به المؤذن صوته من مكان عالٍ خمس مرات في كل يوم دعوة مركّزة إلى الإسلام ، تعريفاً بمقاصده وتعليماته ، قد يؤثر في نفوس كثير من غير المسلمين ، فيشرح الله صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء ـ الذي يجمع بين الجمال والبساطة ـ نظير في أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات في الديانات الأخرى[1] إنه هو النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهر خارجي ، وعن استعانة بالآلات والإغراءات وجاء فيه لباب الدين ، وخلاصته.

إنه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ، ويضمّ

(١) وقد وردت أخبار وأحاديث صحيحة في بدء الأذان ، وكيف شرع ، وكيف عدل رسول الله ﷺ عن أساليب الدعوة الأخرى ، التي استخدمها غير المسلمين ، وآثر هذه الطريقة التي كانت تلقيناً من الله ، وإلهاماً منه ، منها ما رواه أبو داود عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار ، قالوا: «اهتم رسول الله ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها ، فقيل : انصب راية عند حضور الصلاة ، فإذا رأوها ، آذن بعضهم بعضاً ، فلم يعجبه ذلك ، فذكر له القنع ، وهو شبور اليهود ، فلم يعجبه ، فقال هذا من أمر اليهود ، فذكر له الناقوس ، فقال هو من أمر النصارى ، فانصرف عبد الله بن زيد الأنصاري ، وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ ، فأري الأذان في منامه ، فغدا على النبي ﷺ فقال : إني بين نائم ويقظان ، إذ أتاني آت ، فأراني الأذان ، وكان عمر قد رأه قبل ذلك.
فكتمه عشرين يوماً ، ثم أخبر النبي ﷺ ، فقال له: ما منعك أن تخبرنا؟ فقال سبقني عبد الله بن زيد ، فاستحييت ، فقال صلى الله عليه وسلم : قم يا بلال ، فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد ، فافعل ، فأذن بلال».

الشهادتين ، شهادة «أن لا إله إلاّ الله» وشهادة «أن محمداً رسول الله» ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها في جماعة في المسجد ، ثم الإخبار بأنها وسيلة الفلاح في الدنيا والآخرة ، وأن لا فلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة ، ودعوة كاملة ، ونداءً بليغاً ، يخاطب القلب والعقل ، ويلفت المسلم وغير المسلم ، وينشّط الكسلان ، وينبه الغافل ، يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«واقتضت الحكمة الإلهية ألا يكون الأذان صِرف إعلام وتنبيه ، بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رؤوس الخامل والنبيه ، تنويهاً بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركّباً من ذكر الله ، ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرِّحاً بما أُريد به»[1] .

التطهر وما يورثه من اهتمام :

وشرع للصلاة التطهر والوضوء : فقال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] .

وذلك لأن التطهر والوضوء ، وخصوصاً إذا كان بإيمان واحتساب[3]

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ـ ص ١٥٢ .

(٢) سورة المائدة : ٦ .

(٣) معناه أن يكون مؤمناً بما وعد الله عليه ، وأخبر به رسوله من الأجر والثواب ، ويكون طامعاً في ذلك راغباً فيه ، مقدراً له كل التقدير ، وله تأثير كبير عميق في قبول الأعمال=

يورث الاهتمام ويوقظ النفس ، ويهيّئها لاستقبال الصلاة وما فيها من نور وسكينة .

وقد سنّ رسول الله ﷺ لتكميل فوائد الوضوء والطهارة ، والاستعداد للصلاة التي هي مناجاة مع الله ، السواك ، وحثَّ عليه حثاً شديداً حتى قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة[1]» .

المساجد: فضلها ومركزها في حياة المسلمين:

ثم بُنيت لها المساجد التي لا يوجد لها نظير في معابد الأمم والملل ، في السذاجة والبساطة[2] ، والنظافة والسكينة ، وفي الجوّ الخاشع الروحاني الذي يسودها ، وفي شعائر التوحيد التي تتجلى فيها: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

= ووزنها عند الله ، وقد جاء في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة (رض) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، أو نحو هذا ، وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب». وفي صحيح مسلم والموطأ زيادة: «فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء».

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم.

(٢) الأصل في المساجد أن تكون بعيدة عن الزخرفة ، والإسراف في الأموال ، وتقليد الأعاجم ، وأهل الملل الأخرى في معابدهم ، وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما أمرت بتشييد المساجد ، قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى» (رواه أبو داود) «وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أراكم مستشرفون مساجدكم بعدي كما شرفت اليهود كنائسهم وكما شرفت النصارى بِيعها» (رواه ابن ماجه) وأخرج رزين عن أبي سعيد ، قال: «كان سقف المسجد من جريد النخل ، فأمر عمر في خلافته ببناء المسجد ، وقال أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس».

ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[١] ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[٢] ﴿ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٣] ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[٤].

وكانت هذه المساجد ـ ويجب أن تظل هكذا ـ مركز حياة المسلمين وتعلمهم ودراستهم ، ومصدر الإصلاح والتوجيه ، تعالج فيها قضايا المسلمين الاجتماعية والدينية ، ويتلّقون فيها أحكاماً في حياتهم ومهمّاتهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذا حدث حدثٌ أو نزل بالمسلمين أمر ، وكانوا في حاجة إلى توجيه جديد ، أو تعليم مزيد ، أمر أن ينادى في الناس ، «الصلاة جامعة»[٥] وظلت المساجد هكذا ، فكانت القطب الذي كانت تدور حوله رحى الحياة ، وتنفجر منها عيون العلم والهداية ، وينبثق منها نور الإصلاح والإرشاد ، وتنطلق منها موجة الكفاح والجهاد ، ولا تزال منها بقيّة يحسد عليها المسيحيّون ، والوثنيون المسلمين في بلادهم ، وينظرون إليها تارةً بعين التلهف والحسرة ، وطوراً بعين الإشفاق والوجل ، ولابدّ لنشأة المسلمين الجديدة أن تعود هذه المساجد والجوامع إلى مركزها الأول ، في حياة المسلمين وقيادتهم .

---

(١) سورة النور : ٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) سورة الجن : ١٨ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف : ٣١ . اعتمدنا في الاستشهاد بهذه الآيات على تفسير كلمة «المساجد» و«المسجد» بمكان الصلاة والبيت الذي بني لها وهو التفسير المشهور (راجع تفسير ابن كثير) وقد فسرها بعض المفسرين من السلف والخلف بأعضاء السجود أو بالصلاة (راجع تفسير ابن كثير كذلك) .

(٥) «انظر باب العلامات بين يدي الساعة» و«أبواب صلاة الخسوف» في الصحاح .

الآداب المشروعة لتقوية الجو الإيماني الروحاني:

وشرع من الآداب والتوجيهات النبوية الحكيمة ما كان كفيلاً بالخشوع والسكينة ، والإقبال على الله تعالى ، فقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا كان أحدكم في الصلاة ، فإنه يناجي ربّه ، فلا يبزقنّ بين يديه ولا عن يمينه ، ولكن عن شماله وتحت قدمه[١] وأمر المصلي بطاعة الإمام وتقليده ، واتّباعه ، وكان في ذلك تجريد عن الفوضى والافتئات ، وعن اتباع الهوى ، والانسياق مع الرَّغبات ، فلا تقدّم عن الإمام ولا تخلّف عنه ، ولا يسمح له بالبقاء في هيئة واحدة ، مهما وجد فيها لذة ، ومهما حدَّثته نفسه بالبقاء فيها ، والزيادة منها ، فروح الصلاة إنما هو طاعة الله وامتثال ما أمر به ومحاكاة الرسول وتقليده في عبادته: «صلّوا كما رأيتموني أصلّي»[٢] واتباع الإمام في حركاته وسكناته ، وفي انتقالاته وتقلباته: «إنما جعل الإمام ليؤتمَّ به»[٣].

والمساجد تتجلى فيها عظمة الله ، فلا عظمة لمخلوق ، ولا اختصاص لعظيم أو كبير ، وهو مكان مُشاع يتساوى فيه الحرّ والعبد ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير فهو «كمنى مناخ من سبق»[٤] والإسلام لا يعرف تلك الامتيازات التي لم تكن إلاّ من بِدَع الملوك والأمراء بعد عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، ولا تقدّم ولا امتياز في المساجد إلاّ على أساس العلم ، والحظ من القرآن والفقه

---

(١) رواه عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ ، «أخرجه البخاري ومسلم».
(٢) رواه البخاري «في باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة».
(٣) رواه مسلم عن أنس بن مالك ، (باب ائتمام المأموم بالإمام).
(٤) أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها مرفوعاً.

والتقوى ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم. ثلاثاً»[١].

الجماعة ، أهميتها وفضلها:

وشرعت الصلاة المفروضة بالجماعة ، وهي طبيعة الصلاة المشروعة في الإسلام ، ووضعها الصحيح ، ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[٢] ولذلك داوم عليها الرسول ﷺ وأصحابه مداومة شديدة ، حتى كأنها جزء من الصلاة ، ولم يتركها حتى في مرضه الذي مات فيه ، وقد جاء في صحيح البخاري ، (عن عائشة رضي الله عنها): «ثقل النبي ﷺ ، فقال : أصلّى الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك . يا رسول الله ﷺ ! قال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلنا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلّى الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك . قال: ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلىّ الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، قال : ضعوا لي ماءً في المخضب ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك ، والنّاس عكوف في المسجد ينتظرونه ﷺ لصلاة العشاء الآخرة ، قالت : فأرسل ﷺ إلى أبي بكر ، أن يصلّي بالناس[٣] [إلى آخره].

وكان الصحابة رضي الله عنهم من أشد الناس التزاماً لهذه الجماعة ، يقول عبد الله بن مسعود: «ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين

---

(١) رواه مسلم (في كتاب الصلاة ، «باب تسوية الصفوف» ورواه أبو داود والنسائي).
(٢) سورة البقرة: ٤٣.
(٣) حديث متفق عليه.

حتى يقام في الصف[١] وفي رواية عنه «رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلاّ منافق، قد عُلم نفاقه، أو مريض»[٢] وقد كان رسول الله ﷺ شديد الإنكار على من كان يتغيب عن الجماعة، ولا يشهد الصلاة مع المسلمين، وقد جاء في الصحاح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات، فقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً يصلّي بالنّاس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فآمرَ بهم فيحرِّقون عليهم بحزم الحطب بيوتهم»[٣].

بعض حكم الجماعة، ومصالحها وبعض آدابها:

وفي الجماعة حكم دقيقة ومصالح عظيمة للمسلمين «منها: ما هي اجتماعية وخلقية كالوحدة والاجتماع، والتعاون والتعارف، وقد بحث عنها علماء الإسلام، وحملة الأقلام، وأفاضوا فيها، ومنها: ما هي أدق، ولم يفطن لها كثير من الباحثين، والكتَّاب العصريين[٤].

منها: أن لاجتماع المسلمين راغبين في الله، راهبين، مسلمين وجوههم إليه خاصية عجيبة في نزول البركات، وتدلّي الرحمة، وهذا هو السرُّ في دعاء الاستسقاء وجماعته، وفي جمع الحج»[٥] ومنها، التشجيع على العبادة والمحافظة على الصلوات، والتنافس في

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) رواه مسلم في «باب فضل الصلاة بجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها»، والحديث في الصحاح.

(٤) اقرأ البحث الدقيق العميق في «أسرار الجماعة ومصالحها» وشرح ما ورد فيها من الأحاديث، والأخبار في الجزء الثاني، من كتاب (حجة الله البالغة) ص ١٩ ـ ٢١ (لحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي).

(٥) مقتبس من كتاب (حجة الله البالغة) بتعديل يسير.

إحسانها ، وإتقانها ، والإكثار منها ، وإصلاح ما قد يطرأ عليها من فساد أو من خلل للانفراد أو الجهل ، وتعلّم ما فات من أحكامها وآدابها ، وأذكارها وقراءتها ، والتأسي بالعلماء الفقهاء ، والعباد المخلصين.
ومنها: أن إخلاص بعض المخلصين ، وإخباته وخشوعه يؤثر في الجماعة كلها ، ويوقظ النفوس الخامدة ، ويحرّك الهمم الفاترة ، وقد يكون سبباً في قبول عبادة الجميع ، والغض عمّا فيها من ضعف أو خلل أو تقصير ، وذلك شيء لا يخالف المعقول أو المنقول ، فأهل الإخلاص والخشوع ، قوم لا يشقى بهم جليسهم.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شديد الاهتمام بتسوية الصفوف ، شديد الإنكار على الإخلال بها ، والتفريط فيها ، إذ لا تتحقق فوائد الجماعة ولا تكتمل إلاّ بالمحافظة عليها ، وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص ، ولأن الصلاة والجماعة تربية للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئاً من عمل الدنيا والآخرة ، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ ، قال: «سوُّوا صفوفكم ، فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة»[١] وعن النعمان بن بشير ، قال: «كان رسول الله ﷺ ليسوّي صفوفنا حتى كأنما يسوّي بها القدح ، حتى رأى أنّا قد عقلنا عنه ، ثم خرج يوماً ، فقام ، حتى كاد أن يكبّر ، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف ، فقال: [عباد الله لتُسوُنَّ صفوفكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم[٢]].

الجمعة ، مكانتها وخصائصها:

وشرعت صلاة يوم الجمعة ، واتخذت لها آداب ، وزيادات

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.

وتحريضات ، وخصائص ، تزيد في حلالها وفخامة شأنها ، وتورث الاهتمام بها ، وتساعد على الانتفاع بها ، في العبادة والتقرب إلى الله وجمع شمل المسلمين ، والتعاون على البر والتقوى ، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ[١] مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾[٢] وقد ورد في الحديث: «من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه»[٣] وجاء: «لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونُنّ من الغافلين»[٤] وقال: «لقد هممت أن آمر رجلاً ليصلي بالناس ثم أحرّق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم»[٥].

وشرع فيه الاغتسال واستعمال السواك والتطيّب ، والنظافة الزائدة ، وشرعت الخطبة ، ولم تكن خطبة النبي ﷺ تقليدية ، لا حياة فيها ولا روح ، ولا رسالة فيها ولا توجيه ، بل كانت متصلة بالحياة وبالواقع كلَّ الاتصال ، يقول جابر رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ إذا خطب ، احمرَّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدّ غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول : صبّحكم ومسّاكم»[٦].

قال العلامة ابن القيمّ في زاد المعاد: «وكان يعلِّم أصحابه في خطبته ،

---

(١) هو الأذان الذي يتقدم الخطبة ، إذ كان هو الأذان الوحيد في عهد النبي ﷺ ، وفي خلافة أبي بكر وعمر ، فلما كان عهد عثمان ، وكثر الناس وانتشروا ، زاد الأذان الأول ، وارتضاه الصحابة والمسلمون وجرى العمل به في الأعصار والأمصار ، اقرأ تفسير الآية في كتب التفسير ، وراجع (زاد المعاد).

(٢) سورة الجمعة: ٩ .

(٣) أصحاب السنن.

(٤) رواه مسلم والنسائي.

(٥) رواه مسلم في صحيحه.

(٦) رواه مسلم والنسائي.

قواعد الإسلام وشرائعه ، وكان يأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أونهي»[١] .

ويقول منتقداً للخطباء المتأخرين: «ثم طال العهد ، وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تقام في غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها ، وزيّنوها بما زيّنوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها وأخلّوا بالمقاصد؛ التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفقر ، وعلم البديع ، فنقص ، بل عدم حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها»[٢] .

ورغم أن خطبه كانت واقعية دافقة بالحياة والنور ، والتأثير ، لم تكن طويلة مملّة ، شأن خطباء الجوامع اليوم ، ومحاضراتهم الطويلة ، التي يتبارون فيها ، ويتناولون فيها المباحث المحليّة المؤقتة ، التي تقبل المناقشة والجدل الكبير ، وتُثير إنكار كثير من المستمعين ، وامتعاضهم ، وتفقد الخطب والجوامع قدسها وجلالها ، ونزاهتها ، بل كانت كسائر كلامه قولاً فصلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير ، يقول جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه: «كانت صلاة النبي ﷺ قصداً ، وخطبته قصداً ، يقرأ بآيات من القرآن ويذكّر الناس»[٣] وفي رواية: «كان ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هنّ كلمات يسيرات»[٤] .

وأمر الناس بالإنصات إلى الخطبة لتحصل الفائدة المقصودة في جوٍّ هادىء خاشع ، تغشاه السكينة والوقار ، ولأن الموقف موقف العبادة ، لا موقف الخطابة فحسب ، فأمر بالإنصات إلى الخطيب ، وشدّد في

(١) زاد المعاد ـ ج١ ص ١١٥ .
(٢) زاد المعاد ـ ج١ ـ ١١٥ .
(٣) رواه مسلم وأصحاب السنن.
(٤) رواه مسلم وأصحاب السنن.

ذلك حتى نهى عن منع الجليس عن الكلام ، لأن الناس إذا تولّوا ذلك ، حدث تشويش وضوضاء ، فورد في الحديث: «من قال يوم الجمعة لصاحبه: أَنْصِت ، فقد لغا»[١].

وطبيعة الجمعة ، ومقتضى المصالح التي قُصدت ، أن تكون في مسجد واحد في المدينة ، أو في أقل عدد ممكن من المساجد[٢] ، إذا اتسعت المدينة وانتشرت أطرافها ، واستبحر عمرانها لدفع الحرج ، ليجتمع المسلمون في مكان مرةً واحدةً في كل أسبوع ، فيكون ذلك أدعى للائتلاف والاتحاد ، وأبعد عن التحريف والفساد ، وقد تهاون المسلمون في ذلك تهاوناً عظيماً ، يكاد يُفقد الجمعة جلالها وروعتها وتأثيرها وقوتها.

الجمعـة ميـزان الأسبـوع:

والرجل المشغول المسؤول المرهق بتكاليف الحياة ، وحقوق الأسرة ، يحتاج إلى يوم تتحرك فيه همته ، ويتفرغ فيه باله للعبادة والقربات ، وإجلاء صدأ القلب وتصقيله ، فيسري نوره في سائر الأيام ، وتعيش في كنف هذا اليوم ، وفي ظله ، وكان ذلك يوم الجمعة في الأسبوع ، وليلة القدر في رمضان ، ورمضان في سائر الشهور[٣] ، وقد

---

(١) رواه أبو داود عن علي بن أبي طالب مرفوعاً.

(٢) قال العلامة بحر العلوم عبد العلي اللكهنوي في كتابه (رسائل الأركان): «ولأجل ، أن الجمعة جامعة الجماعات ، قال الإمام أبو يوسف لا يجوز تعدد الجمع في مصر واحد ، وهو راية عن الإمام أبي حنيفة ، وبه قال الشافعي ، فإنه لو جاز التعدد ، لما كان واحد منهما جامعاً جماعات ، قال الإمام محمد ، ورواه عن الإمام أبي حنيفة ، وهذه الرواية هي المختارة وعليه الفتوى ، أنه يجوز تعدد الجمعة مطلقاً اثنين أو أكثر».

(٣) وقد أصبحت الجمعة في بعض نواحي الهند ، وخصوصاً في القرى ، ولعلها كذلك =

أحسن العلامة ابن القيّم في قوله ، وهو يشير إلى هذه النكتة :

«إنه [أي يوم الجمعة] اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويتخلّون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان ، ولهذا من صحّ له يوم جمعته وسَلِم ، سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم ، سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له ، صلح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق»[1] .

صلاة العيدين ، وامتيازهما الإسلامي :

اعتبرت الأعياد في الشعوب والأمم ، وفي الملل والنحل ، أيام حرية وانطلاق ، ومواسم لذة ومتعة ، واتّسمت «من غير استثناء تقريباً» عند أهلها بخلع العذار وطرح الحشمة والوقار ، والإسراف في اللهو والتسلية ، حتى أصبحت مناقضة للعبادات ومفهومها ، بعيدة عن كل جدٍّ ورزانةٍ ، وخشوع وعبادة .

= في كثير من بلاد الإسلام ، هي الرابطة الوحيدة بين الفلاحين وأهل المهن ، وبين الإسلام ، يغتسلون فيه ، ويتهيؤون للصلاة ، ويعرفون شعائر الإسلام وشرائعه ، ويتجدد فيهم الشعور بإسلامهم ، والاعتزاز به ، فيعتصمون به عن أن يكونوا فريسة الردة ، ودعوات الانسلاخ عن الإسلام ، أو دعوات الجاهلية كالوثنية وغيرها ، فلولا الجمعة واجتماعاتها ومقدماتها ، لذاب عدد كبير من المسلمين ، في المجتمعات الجاهلية ، التي يعيشون فيها ، وافترستهم الدعوات التي تكتسح بيئتهم ، ونسوا أنهم مسلمون ، لذلك توسع بعض علماء الحنفية المتأخرين في صلاة الجمعة في القرى في هذه البلاد ، ولا يضايقون فيه مضايقة فقهية شديدة نظراً إلى هذه المصالح .

(١) زاد المعاد ج١ ص ١٠٦ .

ولكنِ بالعكس من ذلك ، صُبغ العيدان «عيدالفطر وعيد الأضحى» اللذان شُرعا في الإسلام استجابة للغريزة الإنسانية ، وتسليماً للأمر الواقع[1] ، بالصبغة الدينية الروحية ، فشرعت صلاة العيد بتكبيرات زائدة وخطبة بعدها ، وسُن الإكثار من التكبير قبل الصلاة وفي الطريق ، وصدقة الفطر قبل صلاة عيد الفطر ، والأضحية بعد صلاة عيد الأضحى .

وكان الأصل أن تقوم في مكان واحد في البرِّيَّة ليجتمع المسلمون مرتين في السنة ، شأنهم كل أسبوع في الجمعة ، ولكن تهاون المسلمون في ذلك ، وأصبحت صلاة العيد تقام في كل مسجد كبير وصغير ، وضعف تأثير هذه الصلاة ، ومقاصدها ، كما ضعف تأثير الجمعة ومقاصدها ، يقول العلامة ابن القيّم :

«وكان ﷺ يصلي العيدين في المصلى الذي على باب المدينة الشرقي ، وهو المصلى الذي يوضع فيه محمل الحاج ، ولم يصلِّ العيد بمسجده إلاّ مرة واحدة ، أصابهم مطر ، فصلّى بهم العيد في المسجد ـ إن ثبت الحديث وهو في سنن أبي داود وابن ماجه ـ وهديه كان فعلهما في المصلى دائماً»[2] .

ويقول شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي وهو يذكر حكمة تشريع العيدين ، وما شرع لهما من اهتمام :

«إن كلَّ مِلَّـةٍ لابد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم وتعلم كثرتهم ، ولذلك استحب خروج الجميع حتى الصبيان والنساء ،

---

(١) عن أنس بن مالك ، قال : قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : «قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما : يوم الأضحى ويوم الفطر » (رواه أبو داود) .

(٢) زاد المعاد ج١ ـ ص ١١٩ .

وذوات الخدور ، والحيض ، ويعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين ، ولذلك كان النبي ﷺ يخالف في الطريق ذهاباً ، وإياباً ، ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين»[1] .

فضل الجمعة والجماعة في عصمة الدين عن التحريف ، وحفظ المسلمين من البدع ، والفوضىٰ في العبادة :

وقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها في الأمصار والأقطار فضل كبير في سلامة هذا الدين ، وسلامة الشريعة الإسلامية ، والأوضاع الدينية ، وبقائها علىٰ ما تركها عليه رسول الله ﷺ ، وأصحابه ، وبُعدِها عن تحريف المحرِّفين وعبث العابثين ، فلو كان المسلمون ـ أعاذهم الله عن ذلك ـ تركوا الجمعة والجماعة ، وانفردوا بعباداتهم وصلواتهم في بيوتهم ، وقاموا بها منفردين منعزلين ، موزَّعين مشتتين ، لحُرِّفت هذه الصلوات ومُسخت مسخاً كبيراً ، وأفقدها أصالتها ووضعها الأول ، وتنوَّع المسلمون فيها ، وصاروا فيها فرقاً وأقساماً ، كما كانوا في كثير من مظاهر حياتهم المدنية ، وآدابهم الاجتماعية ، وكانت للصلاة أنماط ونماذج ، محلِّية وفردية ، كما كانت لليهود والنصارىٰ ، وكما هو معلوم وشائع في ديانات الهند وطوائفها الدينية ، فقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين في العبادات ، وإحكام الدين من التحريف[2] .

ولهذه الحِكم والمصالح ، ولما فيها من اهتمام وانتباه ، ولما لا يحيط به علمنا ، كانت صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ أضعافاً مضاعفة ، فقد روىٰ أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «صلاة الرجل في

---

(١) حجة الله البالغة جـ ٢ ـ ص٢٣ .

(٢) الفكرة مقتبسة من كتاب حجة الله البالغة ، للإمام ولي الله الدهلوي .

جماعة تضعف علىٰ صلاته في بيته وسوقه خمسة وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلىٰ المسجد لا يُخرجه إلاَّ الصلاة لم يخط خطوة إلاَّ رفعت له بها درجة ، وحطّت عنه خطيئة ، فإذا صلىٰ لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»[١] وروىٰ ابن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة»[٢] .

«الصلاة» في الديانات الأخرىٰ:

وقبل أن نتقدّم في الحديث عن أنواع «الصلاة الإسلامية» الأخرىٰ ، وسماتها وملامحها ، وأثرها في النفس والحياة يحسن بنا أن نلقي نظرة فاحصة علىٰ «الصلاة» في الديانات التي سبقت الإسلام ، وظلّت تعاصِره إلىٰ يومنا هذا ، ونتعرَّف بفكرتها ومفهومها ، وحقيقتها ، عند هذه الديانات وأصحابها ، ووضعها وهيئتها ، وأحكامها وآدابها بقدر الإمكان ، فقد يكون الوصول إلىٰ حقيقتها ولبابها ، في زحمة من الأقوال والآراء ، والتفاسير ، وكثرة من القياس والتخمين ، وتقديم صورة كاملة ، واضحة القسمات والملامح لها ـ كما استطعنا أن نفعل ذلك بسهولة في صفة الصلاة الإسلامية وتصويرها ، تصويراً صادقاً دقيقاً ـ أمراً عسيراً جداً ، أو ضرباً من المستحيل ، ولا بدّ من ذلك للدراسة المقارِنة ، والحكم العلمي الصحيح ، ولتقدير قيمة الإسلام ، وما جاء به من آداب وأحكام ، وكيف بقي هذا الدين بعيداً ـ على مر العصور والأحقاب ، وعلىٰ تنوُّع من الشعوب والأمم التي دانت به ـ عن كل تحريف وتصرُّف ، محافظاً علىٰ وضعه النقيّ الأصيل .

---

(١) الستة إلا النسائي واللفظ للبخاري .

(٢) رواه مالك ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي .

الصلاة عند اليهود:

إن تاريخ تشريع الصلاة وأحكامها، وهيئتها ووضعها، يكتنفه الشيء الكثير من الغموض في تاريخ اليهود ودياناتهم، يصعب معه عرض صورة واضحة واحدة للصلاة، في جميع العصور والأجيال، وقد تطوَّرت فكرتها وتشريعها تطوّراً عظيماً، علىٰ مرّ الأيام والأحداث - بخلاف الصلاة في الإسلام - وتناولها الإصلاح والتجديد، وهي لا تزال خاضعة بطبيعة الحال، لعوامل التجديد والتطوير، فيصعب علىٰ الباحث أن يهتدي إلىٰ وضعها الأصيل القديم الموحَّد، الذي كان عليه أنبياء اليهود وأحبارهم، وفقهاؤهم في أقدم العهود، وهنا نقدِّم خلاصة بحث لعالم يهودي كبير، هو أستاذ لمادة الديانة اليهودية وشريعتها، في كلية عبرية كبيرة، في الولايات المتحدة الأمريكية، يقول الأستاذ: samuel s. cohon [١]:

«رغم أنه لم يرد في التوراة أمر صريح بالصلاة، لأن وضع العبادات التقليدي في العهد القديم، كان محصوراً في الذبائح والقرابين[٢]، مع

---

(١) Samuel S. Cohon, Professor of Jewish Theology At The Hebrew Union College, Cincinnati,Ohio.

(٢) ولكن القرآن الذي جاء مهيمناً علىٰ الكتب السابقة، قد ذكر ما يدل علىٰ وجود «الصلاة» في بني إسرائيل، ومحافظة الأنبياء والصالحين من الأمة عليها، فقد جاء في سورة الأنبياء (٧٣) عن إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ وجاء في سورة مريم: (٣١) قول عيسىٰ عن نفسه: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وجاء في سورة آل عمران (٤٣): ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ويظهر أن اليهود قد أضاعوا الصلاة وتهاونوا فيها من العهد القديم المبكر، فقد جاء في سورة مريم(٥٧ - ٥٨ - ٥٩): ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا=

ذلك قد اعتبروا الدعاء والصلاة وسيلةً للتَّقرب إلىٰ الله ، إن أنبياء اليهود أحياناً نعوا علىٰ نظام القرابين الطَّقسي ، وعاشوا حياة الالتجاء والإنابة ، وإن النبيّ «إرميا» كان يلتجيء أحياناً إلىٰ التوبة والاستغفار ، والتَّذلل لله ، فراراً من أشغال الحياة الشاقَّة ومتاعبها ، وقد أوصىٰ اليهود المنفيّين في «بابل» بأن يوطِّنوا نفوسهم علىٰ استحضار الله تعالىٰ ، والقرب منه ، عن طريق الدعاء والعبادة ، وقد استمرَّ علىٰ ذلك مؤلِّفو سفر المزامير ، وإنّ تدينهم وورعهم هو الذي كوّن الصلاة اليهودية الفردية والجماعية ، وصاغها صياغة خاصة» .

لقد استنبط أحبار اليهود الذين بحثوا عن أساسٍ للصلاة في التوراة ، مفهوم الصلاة من آية وردت في سفر التثنية تقول :

«وتحبُّه وتعبد الربَّ إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك» «١٢ ـ ١٠» .

وتدل الكلمات العبرية التي وردت في معنىٰ الدعاء والعبادة ، علىٰ ما كانت عليه الصلاة عند اليهود ، وماذا تعني ، وإن أشهر هذه المصطلحات (tephillah) وقد ترجمها «جولد تسهر» بالابتهال إلىٰ الله كحاكم ، والاستسلام له .

لقد أصبحت الصلاة ثلاث مرات (عند الفجر ، وفي الظهيرة ، وعند غروب الشمس) في اليوم ، والتي كانت من شعار المتدينين الأتقياء في عهد الهيكل ، نظاماً مشروعاً للصلاة الفردية والاجتماعية في عهد الأحبار ، قد اعتبرت أوقات هذه الصلوات الثلاث ، وأساليبها ، وأساليب يوم السبت ، وصلاة الهلال الجديد ، وصلاة الأيام المقدَّسة

= تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ .

المضافة ، وصلاة يوم الكفارة الخاصّة ، تعدل الذبائح والقرابين العمومية في عهد الهيكل .

إن نظام العبادة التقليديّ عند اليهود ، يأمر بفصل الإناث عن الذكور في الصلاة ، ويقوم علىٰ تغطية الرأس وإحنائه[١] ، وعلىٰ القيام في صلوات خاصة ، ويتأخر المصلي ثلاث خطوات إلىٰ الوراء ، عند تلاوة «عميداه» ، وفاتحة سفر الحذقيل .

أما في صلاة الصبح في أيام الأسبوع ، فينبغي للمصلّي أن يرتدي مُلاءة خاصة ، ويربط التعويذات «فلقطير» بالذراع الأيسر والرأس ، ولا بد من ذلك لكل من يتجاوز الثالثة عشرة من السنّ من الذكور ، أما في يوم الكفارة ، فيستعملون الطيلسان الأبيض «الذي يستعملونه في الكفن بعد الموت» ، ولا تفرق الشريعة اليهودية بين الأئمة وعامة المصلِّين في الصلاة ، وتقول إنهم متساوون أمام الله .

إن الطبقة المتجددة في اليهود ، عُنيت بالموسيقا في العبادة عناية خاصة ، وقد اختارت لكل صلاة ألحاناً خاصة ، ونغمات مخصوصة ، حتى تكون هذه العبادة أوقع في النفس ، وأعمق تأثيراً. إنّ اليهودية المجدَّدة التي ألحّت علىٰ الذوق والجمال قد قلَّلت قيمة حركات الجسم المنبعثة ، وألغت نظام صفوف الذكور والإناث ، المنفصل بعضها عن بعض ، وألغت تغطية الرؤوس ، واستعمال الأردية ، ولما كانت الجماعة المتجدِّدة ، اقتصرت علىٰ صلاة يوم السبت والأيام المقدَّسة ، فأصبح تقليد ربط التعاويذ لا حاجة إليه ، وأصبح القيام والسكوت ، وإحناء الرؤوس في بعض الأحيان محدوداً شاذاً في مناسبات خاصة .

---

(١) يظهر أن الصلاة عند اليهود لم يكن فيها سجود ، وقد اكتفىٰ القرآن في ذكر صلاتهم بالركوع فقط ، فقال : ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ سورة آل عمران(٤٣) .

إن ضم الغناء والموسيقا إلىٰ الصلاة اليهودية ، قد جنىٰ علىٰ أهمّ أجزاء الصلاة ومقاصدها جناية كبيرة ، وقد تجرّد اليهود المتجدِّدون ، واليهود المحافظون بطريق سواء عن روح العبادة ، وهو الخشوع ، والإقبال إلىٰ الله بالقلب والقالب في عباداتهم ، بسبب التلحينات التي وضعها البارعون في فنّ الموسيقا والغناء من غير اليهود ، والتي طغت علىٰ الهياكل اليهودية ، ومناهج عباداتها بشكل فظيع»[١] .

ويزيد ما جاء في «دائرة المعارف اليهودية» في مقال: «الصلاة عند اليهود » ما قدّمناه وضوحاً وتفصيلاً في بعض الجوانب ، نلتقط منه بعض التفاصيل:

«وبناءً علىٰ ما أُمر إسرائيل بالاستعداد اللازم للقاء ربّه» كان اليهود يقومون باستعدادات خاصة قبل الصلاة ، فقد كان الصالحون القدامىٰ منهم يبذلون فيها ساعة كاملة؛ وكما كان من اللازم ، أن يغسلوا الجسد قبل الصلاة بحيطة بالغة ، ويرتدوا ملابس ملائمة للصلاة امتثالاً لأمر النبي عزرا.

«دعاء الصلاة» يُقرأ قائماً متوجهاً إلىٰ الأرض المقدَّسة ، ولذلك دُعي باسم «عميداه».

ولا ينبغي للمصلّي أن يصعد علىٰ صُفة ، بل يجب عليه أن يصلّي في مكان هابط ، ولتكن الأقدام متصلة بعضها ببعض ، ومستقيمة ، كما تفعل الملائكة ، ويلزم علىٰ المصلي أن يمدَّ يديه ، ويرفعهما إلىٰ «الحاكم المقدَّس» وأن يكون خافض الطرف ، متعلق القلب بالأعلىٰ ، يركع خلال التحميد والتمجيد ، ويقوم باسم الله.

---

(١) Judaism, A, Way Of Life Pages: 298,316 - to - 318 - and - 358 - to - 360.

ويتأخر المصلي بعد «عميداه» ثلاث خطوات ، ثم يميل يميناً ويساراً ، ويشبه عمله هذا بعادة الاستئذان من الملوك في الزمن القديم.

الصلاة بالجماعة ، إنما تؤدىٰ مع عشرة أفراد بالغين علىٰ أقل تقدير ، وتأدية الصلاة في مكان عام محمودة للغاية ، وهي واجبة علىٰ الرجال والنساء ، وممنوعة للبنات والفتيات.

إن تأليف أدعية الصلاة والتحميد والتمجيد يُنسب إلىٰ ١٢٠ رجلاً صالحاً في عهد ثمانين نبيّاً ، ولا يُدرىٰ أن أدعية الصلاة ابتدأت بتعليم الناس إياها شفويّاً ، أم سجّلت في الكتاب ، وقُيدت بالكتابة ، ويبدو أن الناس كانوا يحفظونها إلىٰ مدة طويلة ، ويردِّدونها شفوياً ، ولعل الأمر ظل هكذا إلىٰ عهد geonic.

تكفي صلاة واحدة في طول النهار ، كما يقول الإمام المجتهد johannah ولكن أئمة اليهود الآخرين يسمحون بثلاث صلوات في طول النهار ، وأربع في أيام الصوم.

أما الإمام «صموئيل» فيقول: إن صلوات النهار الثلاث تتصل بتغيرات النهار الثلاثة ، عند طلوع الشمس ، وفي الظهيرة ، وعند غروبها[١]».

الصلاة عند المسيحيين الكاثوليك الرومان:

قد كان أول تأليف للصلاة المسيحية في القرن الرابع ، في مجمع نيقا[٢] ولا يزال المجلس الفاتيكاني يُحدث فيه تعديلات ، ويُصدرها إلىٰ

---

(١) Jewih Encyciopaedia.

(٢) يرجع كاتب مقال «الصلاة عند المسيحين» في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» أن السيد المسيح كان يشارك اليهود في صلواتهم ويحضر عبادة الهيكل ، وكذلك كان يفعل أئمة المسيحية القدامىٰ ، وكانت العبادة المسيحية ، تقوم علىٰ تلك العبادة التي =

العالم المسيحي الكاثوليكي ، وكذلك نظام الكنائس الرئيسي يستطيع أن يُحدث فيه تغييرات ، وإلىٰ القارىء نموذج الصلاة الطّقسة التقليدية في الكنيسة الكاثوليكية[١] .

يدخل القِسّ (الإمام) في الكنيسة ، فيقوم له الحاضرون تعظيماً ، ويقول (ناوياً للصلاة) باسم الأب ، والابن ، وروح القدس ، أُصلي إلىٰ مذبح الكنيسة ، وهنا يدور الحوار بين الإمام والجماعة في تقديس الله والثناء عليه .

ثم يتقدم الإمام باعترافه بالذنوب والخطايا ، ويقول «إنني أشهد الله القدير ، وأشهد مريم المباركة العذراء ، دائماً ، والملك الكريم ميكائيل ، ويوحنّا المعمّد ، ورسل الله المباركين بُطرس ، وبولس ، وجميع القديسين ، وجميع الأولياء المسيحين ، وأشهدكم أيها الإخوان! وأعترف بأنني اقترفت ذنوباً فكريّة ، ولسانية ، وعمليّة ، لا تعد ولا تحصىٰ ، أنا صاحبها ، وأنا المسؤول عنها وحدي ، لذلك أسأل مريم العذراء المباركة ، وميكائيل المبارك ، الملك الكريم ، ويوحنّا المعمد المبارك ، ورسل الله المباركين بُطرس وبولس ، وجميع القديسين ، والأولياء ، وأسألكم أيها الإخوان! أن تدعوا الله مالك الملك لي» .

وتدعو الجماعة له ، ويقول الإمام «آمين» ثم تردِّد الجماعة نفس عبارة الاعتراف ، وطلب الدعاء ، ويجيبها الإمام بالدعاء ، وتقول

= نشأ عليها الجيل المسيحي الأول ، وأن الكنيسة المسيحية لم تقطع صلتها باليهودية ، وإنما اليهودية ، هي التي فصلت الكنيسة المسيحية .

(١) في ضوء آخر نشرة أصدرها المجلس الفاتيكاني عند كتابة هذه السطور ، عنوانها : (The Sacrifice Of The Mass). سلسلة(st. Paul Pabbcations)

الجماعة «آمين» ثم يدور حوار بين الإمام والجماعة في الدعاء ، وطلب الرحمة ، والأمن والمغفرة للجميع .

ثم يرتقي الإمام المذبح ، ويتلو دعاءً لاتينياً يسأل الله فيه أن يمحو الخطايا ويغفر الذنوب ، ويتوسّل بالسيّد المسيح وبالقدِّيسين والأولياء الذين تضم الكنيسة آثارهم ، ثم يقول الإمام : يا الله ارحمنا ، ويقول الإمام يا عيسىٰ المسيح ارحمنا ، وتقول الجماعة ، يا عيسىٰ المسيح ارحمنا ، يقال ذلك مرتين ، ويعود الإمام ، فيسأل الله الرحمة ، وتعود الجماعة ، فتسأل الله الرحمة .

أما الحمد والثناء (gloria) الذي يُتلىٰ في الكنيسة في أوقات العبادة ، فيشتمل علىٰ كلمات الحمد والثناء ، وتتكرّر فيه كلمات الأب ، والابن الوحيد ويتكرر فيه وصف المسيح بخروف الله ، وبأنه يمحو خطايا العباد ، وبأنه يجلس علىٰ اليمين من الله ويتكرَّر فيه طلب الرحمة منه ، وأنه يملك كل شيء ويعلو علىٰ كل شيء .

وتتلىٰ قطعة من الكتاب المقدس ، يعيّنها القِس ، وتقوم الجماعة عند تلاوتها تعظيماً .

وتتميّز الصلاة الأسبوعية في يوم الأحد في الكنيسة الكاثوليكية بخطبة يتقدم بها الإمام في موضوع يقتضيه الحال ، وتدعو إليه الضرورة ، وتجديد لكلمة الإيمان ، وقد جاء في هذه الكلمة ، وصف المسيح ، بأنه ابن الله الوحيد ، وأنه خُلق من الله ، وأنه سابق لجميع الأزمان ، وأنه رب الأرباب ، ونور النُّور ، وبأنه إله الحق ، وبأنه يشارك الأب في وجوده ، والذي وُجدت به جميع الأشياء ، وبأنه نزل لنجاتنا من السماء ، «وهنالك يخرّ الحاضرون علىٰ رُكَبهم ، ويجثون» والذي ظهر في الشكل الإنساني بواسطة روح القدس ومريم العذراء ، وتشتمل هذه الكلمة علىٰ صفات المسيح الألوهية ، وعلى عقيدة الصلب والفداء ، ووحدة الكنيسة المقدسة

العالميّة ، وأنها مركز الهداية ، والمعموديّة ، وحشر الأجساد ، والحياة بعد الموت.

ويعقب الصلاة العشاء الربّاني ، والأصل فيه أن القاصدين إلىٰ الكنيسة في الزمن القديم ، كانوا يحملون معهم الرغيف ، والخمر ، «عصير العنب» ويقدمونها إلىٰ المذبح ، فكان القِسّ يأخذ شيئاً من الخمر ، ويلطّخ بها الخبز ، وكانوا يعتقدون أن هذه الخمر والرغيف يتحولان دم المسيح ولحمه ، فالذي يتناولهما ، يعتبر أنه يحمل لحم المسيح ودمه ، والعشاء الربّاني تذكار للعشاء الأخير الذي تناوله المسيح في حياته ، أما الآنْ فيقوم مقام الخمر والخبز نقود يقدِّمها القاصدون للكنيسة إلىٰ القِسّ ، أما القسوس ، وأئمة الصلاة في الكنائس ، فلا بدّ لهم من هذا العشاء التقليدي في شكله الظاهر ، ويوزِّع الخبز علىٰ الحاضرين.

ويُختم ذلك كله بدعاءٍ وجيزٍ ، وهنالك تنتهي الصلاة ، وتنتشر الجماعة.

الصلاة عند البروتستانت:

تشارك الصلاة في الكنائس البروتستانية «بقسميها النظامي «methodist» والإنجليكاني «anglican» الصلاة الكاثوليكية في أجزاء الاعتراف والتوبة والاستغفار ، وتجديد الإيمان ، وتوثيق العقائد الأساسيّة ، والحمد والثناء ، والدعاء ، وتلاوة الإنجيل ، إلاّ أنّ أساليبها وصيغها تابعة لمناهج كنائسها المقررة ، وتتميّز بأشياء.

إنها لا تستعمل اللغة اللاتينية مطلقاً ، وثانياً أنّها صاغت الأدعية كلّها في أناشيد وترنيمات تُغنّىٰ بألحان مرسومة مقررة[١] ، وتتميّز بصمتٍ

(١) راجع علىٰ سبيل المثال: The Methodist Hymnal.
The Methedist Publishing Hous U.S.A.

يسود عند ذكر الله ، وتمتاز كذلك بحذف عبارات صريحة سافرة ممعنة في تأليه المسيح وتسويته بالله تعالىٰ ، والتأمُّل والسكوت عند بعض الأدعية ، وهنا نموذج للدعاء الجماعي التقليدي :

«أيها الأب السماوي ، أنت خلقتنا بحبّك ، وأبقيتنا بحبّك ، وإن حبّك سيُكملنا ، إننا نعترف بكل عجز أنّنا لم نحبّك بكلّ قلوبنا ونفوسنا وأنّه لم يحب بعضنا بعضاً ، كما أحبّنا عيسىٰ المسيح ، إنّ أرواحنا لا تزال فيها حياة ، ولكنّ أنانيّتنا وأثرتنا أبعدتنا عنك ، إننا حرمنا نفوسنا روحك المقدّسة ، وتغافلنا عن نصرتك وتأييدك ، اغفر لنا ما مضىٰ لنا ، وأصلحنا فيما نحن فيه ، وأرشدنا بروحك فيما يستقبلنا ، حتّى تتجلّىٰ عظمة خلقك في نفوسنا ، وفي نفوس الخلق بواسطة عيسىٰ المسيح الذي هو مولانا وملكنا» .

أما الصلاة في الكنيسة الإنجليكانية ، فتتقدم العبادة أجراس تدَقّ إيذاناً بالصلاة ، وتُتلىٰ قطعة من الإنجيل ، وكلمة الإيمان كنشيد يغنّىٰ به .

وفي مناسبات خاصة يُحتفل بتقليد العشاء الربّاني ، ويعتقد التابعون لهذه الكنيسة أنّهم بإحياء هذه الذكرىٰ يزكُّون نفوسهم ، ويقوّون أرواحهم(١) .

«الصلاة» في الديانة الهندكية :

أما (الصلاة) ـ أو العبادة بتعبير أصحّ ـ في الديانة الهندكية ، فسمتها البارزة الاضطراب الهائل في أساليبها ومناهجها ، وتقاليدها ، وأحكامها ، باختلاف الأقاليم والولايات ، والأزمنة والعصور ، والمذاهب والطوائف ، فيجد الباحث في ذلك نفسه في غابة كثيفة تكثر

---

(١) اقرأ للتفصيل The Book Of Common Prayer, The Chursh Of India Pakiston, Burma And Ceylon, 1963.

فيها الوهاد والنجاد ، وتلك سمة العقائد والمبادىء والمناهج الدينية ، والتقاليد الشائعة في الهند ، لذلك وجد كثير من المشرِّعين وعلماء الدين صعوبة عظيمة في تعريف «الهندوكي» دينياً وتحديده المنطقي الضابط .

فالعبادة المفروضة في الديانة الهندكية مضطربة اضطراباً عظيماً ، شديدة المرونة والسعة ، متشتتة الأساليب والمناهج ، غامضة الحدود والشروط ، مبهمة في الأوضاع والأشكال ، تنقصها الوحدة الشكلية ، والجامعة الاعتقادية ، لذلك قلما يجد الباحث صورة واضحة كاملة لها في كتاب ، أو بحث لكاتب هندوكي من أساطين الفلسفة ، والشريعة ، ولعلّ الصورة التي عرضها عالم هندوكي كبير ، وآثرنا نقلها تمثل أكبر منطقة في الهند ، وأعم أشكال العبادة فيها .

يقول الأستاذ (T.M.P.Mahadevan) رئيس قسم الفلسفة في جامعة «مدراس» في كتابه «مجمل الديانة الهندوكية» (outlines of Hinduism[1]) وهو يتحدث عن نظام العبادة الطقسي في الديانة الهندكيّة :

«إن تماثيل «وشنو» وتجسّداته ، وأصنام «شيو» و«شكتي» هي الأصنام المقبولة عند العامة ، التي تُعبد في الهياكل والبيوت ، ولكن تماثيل «كرشن» في الشمال وتماثيل (kortikaya) في الجنوب ، التي لا تُعدّ ولا تحصىٰ ، هي الأصنام الشعبية التي يؤثرها الدهماء من الهنادك ، إن العامة من الهنادك يؤمّون هذه الهياكل علىٰ اختلاف طبقاتهم ونحلهم ، ويشاهدون فيها الإله الواحد ، ويعبدونه .

إن الهندوكي يتلقىٰ إلهه في بيته كضيف كريم ، ويؤم الهيكل ، وهو

---

(١) كتاب متوسط في ٢٩٩ صفحة ، نشرته مؤسسة (The Tana, Limited, Bombay, India) عام ١٩٥٦ م ، قدم له الأستاذ الكبير راداكرشنن ، رئيس الجمهورية الهندية الأسبق ، وأثنىٰ عليه .

يحمل معه الفواكه والأزهار ، ليقدمها إلىٰ «ملك الملوك» رمزاً لحبّه وإجلاله ، ونظام العبادة هو في الحقيقة محاكاة للتقاليد التي يقوم بها إنسان لضيفه الكريم ، أو ملكه العظيم ، فيرحّب بإلهه ، ويعيّن له مكاناً للجلوس ، ويغسل قدميه ، ويقدِّم إليه الصندل ، والرز ، كرمزٍ للولاء والتقدير ، ويقلّد التمثال عقداً من خيوط ، ويلطِّخ جبينه بعجين الصندل ، ويقدِّم له الرياحين ، ويبخّر العود ، ويوقد له السُّرج ، ويديرها حوله ، ويضع أمامه الطعام ، ثم يقدِّم له التنبول[1] ، ويحرق الكافور ، ويقدِّم إليه الذهب كهدية ، ويسمّىٰ زهر الذهب ، وفي الأخير يودع الإله أو الآلهة .

يعامل الإله في الهياكل ، كما يعامل الملوك ، فيوقظونه بالموسيقا والأغاني ، وبعد الاغتسال التقليدي يُكسىٰ اللباس الملوكي ، ويحلّىٰ بالحلىٰ والرياحين ، وتدار حوله الأضواء المتفنّنة ، ، ويقدِّم لها الطعام في أوقات معيّنة ، ويجلس الملك المجلس الملكي كل يوم ، ويشرِّف عباده بمشاهدته ، ويسمع شكاويهم ، ويشملهم بعطفه ، ونعمته ، ويخرج في جولة في موكب ملوكي في الأعياد والمواسم .

وتمثل هذه المسرحية الربّانية الغامضة في جميع الهياكل في الهند ، لإغراء أولئك الذين لا يتخلصون من سبل الحياة المملّة التي لا تؤدي إلاّ إلىٰ مناطق الظلام الحالك[2] .

وهنا وصف آخر ، وتصوير للعبادة الهندكية ، بقلم مؤلف أوربي ، يطابق الوصف الأول ، ويزيده وضوحاً وتفصيلاً ، يقول Louisgenon في كتابه «Hinduism» :

---

(١) ترافقها بعض المواد الحجرية التي تطيب الفم ، وتقدم إلىٰ الضيوف .

(٢) Outlines Of Hinduism, page, 48 - 50.

«رغم أن العصور القديمة ، لم تكن تعرف عبادة التماثيل ، ولكن مع تقدُّم صناعة نحت الأصنام والتماثيل ، انتشرت عادة عبادة التماثيل ، لقد أصبح مع الزمن نحت تمثال الإله أو الآلهة ، ونصبه في مقام مقدَّس ، والنظر إليه ككائن حيّ ، وتدهينه بالزيوت تقاليد هامة .

إنّ مبدأ النشاط الديني الرئيسي هو العبادة ، وطريقته الشائعة في الأوساط الدينية أن «العابد» يرحِّب بالإله كضيف كريم ، فيغسله ويكسوه اللباس ، ويزيّنه ويطيّبه ، ثم يقدِّم له الطعام ، وينشر حوله الزهور والرياحين ، ويحمل المصباح المشتعل أو الشمعة ، ويطوف حوله مغنّياً مزمّراً ، وقد يخرج به في موكب فاخر يلفت الأنظار ، ويثير الإعجاب ، وهنا تلتقي الأساطير الدينيّة القديمة مع الأساطير الشعبية ، وهذه التقاليد تؤدى في شكل جماعي شعبي في المعابد ، لا يتخلّىٰ فيه الفرد عن واجبه الشخصي .

إن بعض الناس ، ولعلّ الكثرة الكاثرة من العامة ينظرون إلىٰ التمثال كإله بنفسه ، وذلك ما يطلق عليه لفظ عبادة الأصنام ، وعند بعض الناس ، ليس التمثال إلاَّ رمزاً لِقِيَم خاصة ، وليست عبادة الأصنام وتقديسها إلاَّ «تجسيماً» لهذه القيم المعنوية .

إنّ العابد خصوصاً إذا كان متصلِّباً في ديانته ، ليستعدّ استعداداً عظيماً قبل أن يشرع في العبادة ، فيغتسل ويتنظّف ، ويحدِّد الغذاء «بصوم ، أو كفٍّ عن تناول الطعام» ويحافظ علىٰ وضع خاص للجسم ، والأصابع ، ويحبس النفس ويتمثّل تسلط الإله علىٰ نفسه ، وتملّكه لها ، ويردّد الكلمات المقدّسة «منتر» في هدوء وسكوت ، والكلمة المقدسة «منتر» قد لا تعدو كلمة واحدة ، وقد تتألف بمئة صوت أو أكثر ، فإذا طالت هذه الكلمات ، وردّدها القائل ، فلا أهمية إذاً للّفظ والصوت ، فيصبحان شكلاً مجرداً ، ففي العبارات التقليدية قد تتجرّد الألفاظ والأصوات عن

المعاني ، وقد تشتمل بعض الكلمات المردّدة «منتر» علىٰ اسم بسيط «الله مثلاً رام رام» فتساعد هذه العبادة علىٰ تركيز الفكر علىٰ نقطة واحدة ، ويعتقدون أن الفرد يجد فيها الأمان ، ويفي بنذوره ، ويكفِّر بها عن سيّئاته.

ومن أوضاع العبادة الشخصية الأخرىٰ تلاوة الكتب المقدّسة ، وأكثر من ذلك المراقبة بطريقة خاصة ، وُصفت وشُرحت في يوكا «Yoga» ، ومن الممكن أن تورث المراقبة كيفية من الذهول ، والتجرد من الأنانية ، وتتعانق بها الروح بالحقيقة اللانهائية ، التي لا فناء لها ، وذلك ما تعتبره جميع الديانات الهندية المقصد الحقيقي ، والغاية الرئيسية.

وإلىٰ حدٍّ ما ليست العبادة المفروضة ، إلاَّ ما يؤدِّيها الفرد في منزله ، ويقوم بها ثلاث مرات في اليوم ، في الصباح ، وفي الغداة ، وفي المساء ، ويقدِّم كثير من الناس نذوراً للآلهة ، والآباء ، والأسلاف»[1].

ويلاحظ المتتبع لمناهج العبادة وتقاليدها في أقاليم الهند وبيئاتها المختلفة وحدتين تجمعان بين هذه المناهج قديماً وحديثاً ، وشرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً.

أولهما: العناية الزائدة بالغناء والموسيقا ، فقلَّما تتجرَّد العبادة في المعابد والمنازل عن التغنِّي والعزف ، والتصفيق[2] بطريقة خاصة ، وقد دخلت الأغاني والموسيقا في صلب الديانة البرهميّة ، وأصبحت ركناً أساسياً من أركانها ، والتجأ إليها كثير من علمائهم ، وفلاسفتهم ، وكهنتهم ، لإثارة الرقة والعاطفة ، والشوق في قلوب العبّاد من الذكور

---

(١) Louis Renon: Hinduism: Page: 14,15,16.

(٢) وقد كان ذلك جزءاً لازماً ، وركناً في عبادة الزعيم «غاندي» التي كان يقوم بها كل يوم مساءً ، وكانت له طريقة خاصة ، يعلمها بعض خاصته للضيوف الجدد.

والإناث ، واشتركت في ذلك جميع الديانات التي اعتمدت علىٰ التجارب الإنسانية ، وعبثت بها يد التحريف ، ودخل فيها الشرك ، وقد قال الله تعالىٰ عن أهل الجاهلية العربية : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾[١] وإن كانت هذه الأغاني المطربة ، والمعازف الرنّانة ، والتصفيقات المثيرة ، أفادت من ناحية الرقّة والحنان ، كما يحكيه بعض الناس ، فقد أضرّت كثيراً من ناحية الخشوع ، والسكينة والهدوء ، الذي تتطلبه العبادة لله تعالىٰ .

والوحدة الثانية : التي تجمع بين هذه المناهج المختلفة في المكان والزمان ، هي التمسك بعبادة الأصنام ، وإلحاح الفلسفة الهندية ، ودياناتها المختلفة علىٰ قيمتها وفوائدها ، وآثارها في النفس ، ويعجب الباحث إذا رأىٰ مثل مصلح الديانة البرهمية ، ومجدِّدها العظيم شنكر أشاريا sankar Acharya من رجال القرن السادس المسيحي ، وهو الذي نفىٰ الديانة البوذية من الهند ، وأعاد الديانة البرهمية القديمة إلىٰ مركزها واعتبارها ، يدافع عن عبادة الأصنام والتماثيل ، ويعتبرها مرحلة طبيعية لازمة في تقدم الفكر الديني ، يقول الأستاذ الهندوكي الكبير ، V.S. Ghate ، رئيس قسم الدراسات الهندوكية في جامعة بومباي ، في مقالة ، في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» :

«إنَّ شنكر أشاريا لم يعارض فكرة عبادة الأصنام ، ولم يهاجمها ، إنه يعتبر التمثال رمزاً ومظهراً ، وإنه ذمّ النظام العسسي «Ritualism» وفلسفة العمل وجزاءه ، ولكنه دافع عن الآلهة المقبولة عند العامة ، إنه يقول :

---

(١) مكاءً أي صفيراً ، وتصدية ، أي تصفيقاً ، روي أنهم كانوا يطوفون عراة ، الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون ، «مقتبس من روح المعاني للعلامة الألوسي» وروي عن كبار الصحابة والتابعين نحو هذا «راجع تفسير ابن كثير الجزء الثاني ، ص ٣٠٧».

«إن الوثنية حاجة من حاجاتنا الفطرية في مرحلة خاصة من مراحل التطوُّر ، حين تنال الروح الدينية نصحها واكتمالها ، وتبلغ سنّ الرشد يستغني الإنسان عن «الوثنية» فيجب هنالك رفض العلامات والرموز»(١) .

وقد جنت هذه الوثنية ـ مهما نظر إليها الفلاسفة وعلماء الديانات الوثنية ، كرمز ومرحلة عابرة ـ علىٰ عقيدة التوحيد ، والابتهال إلىٰ الله والإخبات له ، وأصبح عبّاد الأصنام مقتصرين علىٰ عبادة هذه الأصنام عاضّين عليها بالنواجذ يعيشون عليها ويموتون ، لا يعرفون غيرها ، ولا يلتجئون إليه في حاجاتهم وكُربهم ، والذي يعبُر هذه المرحلة وينتهي إلىٰ الحقيقة النهائية ، والغاية في هذه العبادات ، كما تخيّل هؤلاء الفلاسفة ، ويخلص لله تعالىٰ العبادة والدعاء ، أعزّ من الكبريت الأحمر ، والعنقاء المُغربِ في هذه الأمم والبلاد ، قد لا يتجاوز عددهم رؤوس الأنامل في أمة كبيرة ، تملأ البلاد ، لذلك كان ما حكاه الله تعالىٰ عن إبراهيم من قول وشكوىٰ ، حقاً ومنطبقاً كل الانطباق علىٰ عبّاد الأوثان والأصنام والآفاق ، ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إن هذه الأوثان لم تُضل في الحقيقة ، ولم تكن لها دعوة دينية ، ولكنها استحوذت علىٰ عقول عبّادها ، وسيطرت عليها ، وألهتهم عن عبادة الواحد القهّار ، فتشاغلوا بها عنه ، وحُرموا سعادة الله ولذتها ، فكان ذلك هو الضلال المبين.

السنن الرواتب ، وصلاة الوتر :

ونعود إلىٰ الصلاة في الإسلام فنقول قد سنّ رسول الله ﷺ ركعات معدودة يصلى بعضها قبل بعض المكتوبات ، وبعضها بعد بعض

(١) Encyclopaedia Of Religion and Ethics 4th Edition 1958 - Vol XI, Article - Sanka iechaiya

المكتوبات ، ويواظب عليها في الحضر ، وكانت كخنادق تُحفر لحراسة حصنٍ ، أو كسور يقام حول المدينة ، فلا يمسها سوء ولا يصل إليها عدو حتى يعبر هذه الخنادق أو يقتحم هذا السور ، فمن حافظ عليها ، كان أجدر بأن يحافظ علىٰ الصلوات المكتوبة ، وكان أحرص عليها ، وألزم لها ، ثم إنها تُكمل ما وقع في الصلوات المفروضة من نقص ، وتجبر ما طرأ عليها من كسر[١] .

وقد جاء في الحديث ، عن ابن عمر قال: «صلّيت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، قال ، وحدثتني حفصة ، أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين حين يطلع الفجر[٢] وفي رواية : «من صلىٰ في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة ، بُني له بيت في الجنة ، أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل صلاة الفجر[٣] وعن عائشة رضي الله عنها رفعته: «من ثابر علىٰ اثنتي عشرة ركعة من السنة ، بنىٰ الله له بيتاً في الجنة ، أربع ركعات قبل الظهر وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر»[٤] .

وأخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: كان يصلي في بيتي

---

(١) روى الترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته ، فإن صلحت ، فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت ، فقد خاب وخسر ، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تعالىٰ: انظروا ، هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر أعماله علىٰ ذلك».

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي عن أم حبيبة.

(٤) الترمذي والنسائي.

قبل الظهر أربعاً ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيصلي ركعتين ، وكان يصلي بالناس المغرب ، ثم يدخل ، فيصلي ركعتين ، ثم يصلي بالناس العشاء ، ويدخل بيتي ، فيصلي ركعتين ، . . .وكان إذا طلع الفجر صلىٰ ركعتين[١] .

وكان يُوتر بعد صلاة العشاء ، أو بعد قيام الليل ، ولا يتركه في سفر ولا حضر ، وقد صحّ عنه أنه قال: «الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا ، الوتر حق فمن لم يوتر ، فليس منّا[٢]» وفي رواية عنه أنه قال: «إن الله أمدّكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم ، الوتر ، جعله الله فيما بين صلاة العشاء إلىٰ أن يطلع الفجر»[٣] .

وأهم هذه السنن الراتبة ، هي ركعتان بعد طلوع الفجر ، قالت عائشة رضي الله عنها: «لم يكن النبي ﷺ علىٰ شيء من النوافل أشد تعاهداً منه علىٰ ركعتي الفجر[٤]» .

وروىٰ أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ، قال النبي ﷺ: «لا تدعوهما ولو طردتكم الخيل»[٥] .

---

(١) لمسلم وأبي داود (باختصار) .

(٢) رواه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي وأبو داود عن خارجة بن حذافة رضي الله عنه .

(٤) للستة إلا مالكاً .

(٥) قال العلامة ابن القيم : كان رسول الله ﷺ في السفر يواظب علىٰ سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن ، ولم ينقل عنه في السفر أنه ﷺ صلى سنة راتبة غيرهما . (زاد المعاد ج١ ص٨١) وقال في موضع آخر: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون فيتطوعون قبل المكتوبة وبعدها ، وروي هذا عن عمر وعلي ، وابن مسعود وجابر وأنس وابن عباس وأبي ذر ، وأما ابن عمر فكان لا يتطوع قبل الفريضة ولا بعدها إلا من جوف الليل مع الوتر ، وهذا هو الظاهر من هدي النبي ﷺ ، أنه كان لا يصلي قبل الفريضة المقصورة ولا بعدها شيئاً ، ولم يكن يمنع =

تنوع الصلوات ، وتنوع أغراض المسلم منها :

وليست الصلاة مقصورةً علىٰ فريضةٍ تؤدّى في وقتها ، ويتخلّىٰ بها المسلم عمّا أوجبه الله عليه من فرض ، فذلك فرض لا يقبل الله عنه صرفاً ولا عدلاً ، ولكنها جُنة المسلم وسلاحه ، والمفتاح الدائم الذي يفتح به كل قفل ، ويكشف به كل ما غُمّ عليه ، وأهمّه ، أو شغل خاطره ، ففي الخوف صلاة ، وللاستسقاء صلاة ، وللكسوف صلاة ، وللاستخارة صلاة ، وللحاجة صلاة ، وللتأهب للموت والشهادة صلاة[1] .

سيرة السلف في هذه الصلاة ، ونظرتهم إليها :

وعلىٰ المسلم أن يألف هذه الصلاة ، ويرىٰ فيها الأنيس المؤنس ، والمغيث المنجد ، ويتعوّد كلما التوىٰ عليه شيء أو أعياه أمر ، أو كَربَه همّ أن يبادر إلىٰ باب الكريم فيطرقه ، ويلجّ به حتىٰ يؤذن بالفتح ، وقد كان الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ، والتابعون لهم بإحسان في كل جيل ، قد تعوّدوا ذلك ، وكان شأنهم مع الصلاة شأن الجندي مع سيفه ، وشأن الغني مع ثروته ، وشأن الطفل الصغير مع بكائه وصراخه ، واستعطافه للأم الحنون ، بل كانوا أكثر إدلالاً وثقة بصلاتهم ، وأقوىٰ إعتماداً عليها من كل ذلك ، وأصبح ذلك طبيعة لهم لا تفارقهم ، فإذا أُفزعوا أو أثيروا ، وإذا دهمهم عدوٌّ ، أو تأخر عليهم فتح ، أو التبس عليهم أمر ، التجؤوا إلىٰ الصلاة وفزعوا إليها .

= من التطوع قبلها ولا بعدها ، فهو كالتطوع المطلق ، لا أنه سنة راتبة بالصلاة كسنة صلاة الإقامة ، (زاد المعاد ج١ ص ١٢٩) .

(١) روىٰ البخاري في صحيحه «في باب كرامة الأولياء وفضلهم» عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن خبيباً لما خرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل ، قال لهم خبيب : دعوني أصلي ركعتين فتركوه ، فركع ركعتين ، فقال : والله! لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع لزدت ، وكان خبيب هو الذي سن هذه السنة .

وقد كان علىٰ هذه السيرة أئمة الإسلام ، وأعلام هذه الأمة ، وقادة المسلمين في كل عصر ، وقد حُكي عن شيخ الإسلام ابن تيميّة ، أنه إذا أشكلت عليه آية ، أو التوىٰ عليه علم ، عمد إلىٰ بعض المساجد المهجورة ، فقام يصلّي فيعفّر وجهه بالتراب ويطيل السجود ، ويقول: «يا معلّم إبراهيم علّمني ، وكان شديد الابتهال ، عظيم التذلُّل لله تعالىٰ ، يفتخر بأنه سائل مستجد ، عريق في «الشِّحاذة» ورثها أباً عن جدٍّ ، وقد سُمع ينشد في بعض مناجاته ودعواته :

أنا المكدّي وابن المكدّي ... وهكذا كان أبي وجدّي[1]

قيام الليل ، فضله وتأثيره ، وشأن السلف فيه ، وحاجة العالمين والدعاة إليه :

وأقوىٰ وسيلة لتغذية الروح وشحن «بطّارية» القلب ، قيام الليل الذي أكثر القرآن من الحثّ عليه ، والترغيب فيه ، ومدح أصحابه حتىٰ كأنه مُلحق بالفرائض ، وتابع لها ، ولذلك سمّي نافلة ، وكان رسول الله ﷺ لا يتركه في حضر وسفر[2] ، ويذهب كثير من علماء الإسلام ، أنه كان فرضاً عليه[3] ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا

---

(١) مدارج السالكين ج١ ص٢٩٦ ، طبعة (المنار).

(٢) قال العلامة ابن القيم : «ولم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً ، وكان إذا غلبه نوم أو وجع ، صلىٰ من النهار اثنتي عشرة ركعة» (زاد المعاد ج١ ص٨٤).

(٣) قال العلامة بحر العلوم : «اختلفوا ، أكانت صلاة التهجد فرضاً عليه أم تطوعاً ، ذهب إلىٰ الأول جمع ، ومنهم أصحاب الأصول من مذهبنا ، وقال القسطلاني : إليه ذهب أكثر الأصحاب يعني الشافعية ، وذهب جمع إلىٰ الثاني» رسائل الأركان ، ص١٣٤ طبع لكهنؤ .

طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[1] وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[2]ولذلك كان رسول الله ﷺ شديد المحافظة عليه، عظيم الحرص والرغبة فيه، وكان يقوم حتىٰ تتورّم رجلاه، يقول المغيرة بن شعبة: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[3] وروىٰ الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: «قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة».

ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، والذي يطالع دواوين الحديث، وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم، حتىٰ أصبح شعاراً لهم، وقد وُصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم «بالليل رهبان وبالنهار فرسان» ويصفهم سيد التابعين، ومن أعرف الناس بالصحابة، الإمام الحسن البصري، فيقول:

«إن المؤمنين لمّا جاءتهم هذه الدعوة من الله صدَّقوا بها وأفضىٰ يقينها إلىٰ قلوبهم، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدَّقوا به، فنعتهم الله في القرآن أحسن نعت» قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلىٰ أن يقول: ثم ذكر ليلهم خير ليل، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾[4] ينتصبون لله علىٰ أقدامهم، ويفترشون وجوههم سجّداً لربهم، تجري دموعهم علىٰ خدودهم فرقاً من ربِّهم، قال الحسن: لأمر ما سهروا

---

(١) سورة المزمل ١ ـ ٩.
(٢) سورة بني إسرائيل ٧٩.
(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي.
(٤) سورة الفرقان ٦٣ ـ ٦٤.

ليلهم ، ولأمر ما خشعوا نهارهم»[١] .

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين ، والدعاة والمجاهدين ، والمربِّين المصلحين في كل عصر ، وفي كل طبقة ، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ، ولأشغالهم التي تتطلَّب قوة خارقة للعادة ، وصبراً لانفاد له ، زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ، ومن يقظتهم في الأسحار ، ولا يفهم الإنسان سرَّ قوة أولئك العلماء الربَّانيين ، والدعاة المصلحين ، ومثابرتهم علىٰ الجهاد في التعليم والإصلاح ، وتحمُّلهم للمشاق والمحن ، إلاَّ من رأىٰ مواقفهم بالليل ، وشأنهم مع ربهم تبارك وتعالىٰ. حتى كان أولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم ، أنهم كانوا من علماء الظاهر ، ويتَّهمهم بالجفاف والخشونة ، من كبار المهتمِّين بقيام الليل ، والذكر والتسبيح ، فما ظن القارىء الكريم ، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد ، ورقة القلب والانقطاع إلىٰ تربية النفوس ، أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ أحمد عبد الأحد السرهندي ، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندي ، يقول العلامة ابن قيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية . . .

«صلَّىٰ شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالىٰ إلىٰ قريب من انتصاف النهار ثم التفت إليَّ ، وقال ، هذه غدوتي ، ولم أتغدَّ ، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي ، أو كلاماً قريباً من هذا»[٢] .

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية ، فيقول المؤرخ ابن كثير ،

---

(١) كتاب قيام الليل (للمحدث الكبير محمد بن نصر المروزي المتوفي ٢٩٤ هـ) طبع لاهور ١٣٢٠ هـ.

(٢) مجموعة الوابل الصيب لابن القيم ، ص٧١٩ ـ ٧٢٠ (مطبعة المنار).

وهو يصفه : «لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يطيلها جداً ويمدّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك»(١) .

ويقول العلامة ابن رجب الحنبلي : «وكان ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلىٰ الغاية القصوىٰ ، وتأله ولهج بذكر الله ، وشغف بالمحبة والإنابة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ ، والانكسار له ، والاطراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك»(٢) .

وأغرب من ذلك كله ، أمر العلامة الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الذي هو زعيم النُقاد ، وحامل لواء الردّ علىٰ غلاة الزهّاد والعبّاد ، يقول سبطه أبو المظفر ، وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام ، وقال ابن النجّار : له حظ من الأذواق الصحيحة ، ونصيب من شرب حلاوة المناجاة ، وقد ذكر ابن القادسي : «إنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله»(٣) .

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم ، وزعماء الإصلاح والتجديد ، ورجال التعليم والتربية ، ومن نفع الله المسلمين بنفوسهم وأنفاسهم ، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل ، والقبول العظيم والذكر الجميل ، من أصحاب العبادة والسهر في الليالي ، والقيام في الأسحار ، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالىٰ ، وهكذا كان وسيظَلّ ، فلا تنشأ يقظة عن غفلة ، ولا نهضة عن جمود وخمود ، ولا حياة من موت ، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور :

---

(١) البداية والنهاية ج١٤ ـ ص٣٣٥ .
(٢) التاج المكلل ، ص٤١٧ ، نقلاً من طبقات الحنابلة .
(٣) ملتقط من التاج المكلل ـ للعلامة الأمير صديق حسن خان .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[١].

ثمرة النوافل ، والإكثار من الصلاة ، وآثاره:

وللمحافظة علىٰ الصلوات ـ بقالبها وروحها ـ والإكثار من النوافل تأثير لا يعرف لغيرها في صفاء النفس ، والسمو الروحي ، والاتصال بعالم القدس وتلقّي التجليات الأخروية ، لذلك جاء في الحديث «أما ، إنكم سترون ربكم كما ترون هذا[٢] ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا علىٰ صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قال: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾»[٣].

وقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه: «أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: يا بلال! حدثني بأرجىٰ عمل عملته في الإسلام؟ فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة ، قال: ما عملت عملاً أرجىٰ عندي ، أنيّ لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار ، إلاَّ صلَّيت بذلك الطهور ما كُتب لي أن أصليّ»[٤].

والنوافل والإكثار منها سبب كبير في تقوية محبة الله تعالىٰ ، وجلب رحمته واصطفائه ، لذلك أشار النبي ﷺ علىٰ من طلب منه المرافقة في الجنة بتكثير النوافل وكثرة السجود ، فقد روىٰ مسلم ، عن أبي فراس ربيعة بن كعيب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ ومن أهل الصفة رضي الله تعالىٰ عنهم ، قال: «كنت أبيت مع رسول الله ﷺ ، فآتيه بوضوئه وحاجته ، فقال: سلني! فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة! فقال: أو

---

(١) سورة الأحزاب ٦٢.

(٢) قال هذا ، وأشار إلىٰ القمر.

(٣) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري.

(٤) رواه البخاري (ج١ في باب فضل الطهور).

غير ذلك ، قلت: هو ذاك! قال: فأعني علىٰ نفسك بكثرة السجود»[١] .

وهي كذلك تورث اضمحلال العبد في إرادة الله تعالىٰ وخشيته ، وحبه ، والانسلاخ عن الطبيعة السبعية ، أو البهيمية ، التي هي مصدر الظلم والطغيان ، والإثم والعدوان ، ومصدر الهوىٰ ، ومخالفة أمر الله ، ولذلك جاء في الحديث الصحيح ، «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنّـه»[٢] .

تفاوت الصلوات التفاوت الكبير ، وتفاضل أهلها التفاضل العظيم :

وليست الصلاة قالباً حديدياً ، وشيئاً جامداً محدوداً ، يتساوىٰ فيه الناس ، ويتوقف المصلي فيها علىٰ مستوىٰ واحد لا يتجاوزه ، إنما هي ساحة واسعة يتدرج فيها المصلي من حال إلىٰ حال ، ومن بدءٍ إلىٰ كمال ، ومن كمال إلىٰ ما لا يخطر علىٰ البال ، ويتفاضل فيها الناس تفاضلاً كبيراً ، فليست الصلاة مع الغفلة والجهل مثل الصلاة مع الاستحضار والتفقه ، وليست صلاة عامة المسلمين مثل صلاة العارفين ،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ، يقول العلامة ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث نقلاً عن بعض العارفين ، «إنه حمله على مقام الفناء والمحو ، وأنه الغاية التي لا شيء وراءها ، وهو أن يكون قائماً بإقامة الله له ، محباً بمحبته له ، ناظراً بنظره له ، من غير أن تبقىٰ معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم ، أو تتعلق بأمر ، أو توصف بوصف ، ومعنى هذا الكلام: إنه يشهد إقامة الله له حتىٰ قام ، ومحبته له حتىٰ أحبه ، ونظره إلىٰ عبده حتىٰ أقبل ناظراً إليه بقلبه» (فتح الباري ج١١ ص٢٩٦).

وأهل اليقين ، ولا يجب أن تكون صلاة كل أحد في اليوم مثل صلاته بالأمس ، وقبل شهور وسنين.

ولذلك يذكر القرآن نوعين من الصلاة ، يذم أحدهما ويمدح الآخر فيقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[(١)] ويقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[(٢)] كذلك يذكر رسول الله ﷺ ، نوعين من الصلاة ، صلاة خاشعة مقبولة ، وصلاة ساهية منقوصة ، فيقول عن النوع الأول ، وقد توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال: «من توضأ وضوئي هذا ، ثم يصلي ركعتين لا يحدِّث نفسه فيها بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه»[(٣)] وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليها بقلبه ووجهه ، إلاَّ وجبت له الجنة»[(٤)] وقال عن النوع الثاني ، كما روىٰ عنه عمار بن ياسر ، قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلاَّ عشر صلاته ، تسعها ، ثمنها ، سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها»[(٥)] وقال: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته ، قالوا : يا رسول الله! وكيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ، ولا سجودها»[(٦)] وعن أنس رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتىٰ إذا

---

(١) سورة الماعون ٤ ـ ٧.
(٢) سورة المؤمنون ١ ـ ٢.
(٣) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه ، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه أبو داود والنسائي.
(٦) رواه الدارمي وأحمد.

اصفرَّت ، وكانت بين قرني الشيطان ، قام ، فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلاَّ قليلاً»[١] .

وتفاضل النَّاس في الصلاة تفاضلاً حتىٰ كانت صلاة الواحد منهم لا تقاس بصلاة الآخر ، وكانت صلاة رسول الله ﷺ أفضل ، وأكمل ، وأسمىٰ ، وأرقىٰ ، وأثقل عند الله في الميزان من كل صلاة ، وكانت صلاة أبي بكر رضي الله تعالىٰ عنه أقرب إلىٰ صلاة رسول الله ﷺ ، وأشبه بها من صلاة غيره ، لذلك اختاره رسول الله ﷺ ، ليكون في مكانه ، ويؤم الناس في وجعه الأخير ، وقال ـ مع اقتراح عائشة أم المؤمنين أن يؤم عمر ـ مروا أبا بكر فليصل بالناس»[٢] وكذلك كان .

والناس يتفاضلون في الصلاة قبل أن يتفاضلوا في غيرها ، ـ من فضل علم أو ذكاء ـ وهي المقياس الصحيح ، وبها يُحكم علىٰ دين الرجل ، ومكانتهِ في الإسلام ، وليس امتياز هؤلاء الرجال الذين خلد التاريخ ذكرهم ، وكان لهم فضل في الأقران والمعاصرين ، ولسان صدق في الآخرين ، إلاَّ لامتيازهم في هذه الصلاة ، وتفوقهم فيها علىٰ معاصريهم وأضرابهم ، وبلوغهم فيها درجة «الإحسان» ووصولهم فيها إلىٰ أسمىٰ مكان .

فضل الصلاة والقرآن بعد وفاة الرسول ﷺ ، وختم النبوة :

كانت النبوة شمساً وهاجة تُشرق علىٰ هذا العالم ، وتملأ النفوس والقلوب نوراً وحرارة ، وقوة وحياة ، وتربطها بخالقها ربطاً قوياً وثيقاً في أقل وقت وأكثر عدد ، وتنقل ـ من أراد الله به الخير ـ من حضيض الجهل والغواية ، والغفلة والبطالة ، وسوء المعرفة والضلالة إلىٰ ذرا العلم

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه البخاري في الصحيح .

والحكمة ، والطموح وعلو الهمة ، وإلىٰ أقصىٰ مدارج الوصول والكمال ، وإلىٰ أعلىٰ منازل القرب والولاية ، واتصلت بعثاتهم ودعواتهم صلوات الله عليهم حتىٰ كانت بعثة محمد ﷺ علىٰ فترة من الرسل ، فكانت شخصيته هي أقوىٰ شخصيات الرسل ، وكانت دعوته هي أتم الدعوات ، وكانت صحبته هي الإكسير الأعظم ، الذي يحوِّل العداء الشديد حباً وتفانياً والبعد عن الله والوحشة منه قرباً منه ، وأنساً به ، ووصولاً إليه ، وكان الناس يشعرون في صحبته ، كأنما يمرّ بهم التيار الكهربائي ، وكانوا ينتقلون في لحظات من الشك في الدين ، والظن والتخمين إلىٰ أعلىٰ درجات الإيمان واليقين[1] وكان وجوده ﷺ في أمته أقوىٰ سبب الاتصال بالله تعالىٰ ، وقطع منازل القرب والولاية .

ولكن الله تعالىٰ قدّر لهذه الحياة الكريمة نهاية كما قدَّر لحياة غيره ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[2] وأكمل به دينه ، وأتم به نعمته ، فقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[3] وختم به الأنبياء والرسل ، ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[4] وانقطع اتصال السماء بالأرض لوحي جديد ، أو رسالة جديدة ، فكان لا بدّ أن يملأ هذا الفراغ الذي يتركه انقطاع النبوات ، وانتقال آخر الأنبياء وخاتم الرسل من هذه الدنيا ، ويربط الخلق بالحق ربطاً وثيقاً مباشراً ، ويملأ صدورهم إيماناً ، وحكمة

---

(١) اقرأ قصة فضالة وما وقع له في عمرة القضاء ، وهو يريد قتل النبي ﷺ في الطواف ، واقرأ ما حكىٰ عمرو بن العاص عن نفسه عند موته في صحيح مسلم ، واقرأ قصة عكرمة بن أبي جهل وقوة إيمانه وحسن بلائه بعد إسلامه ، في كتب السيرة والتاريخ ، والأخبار في ذلك أكثر من أن تستقصىٰ .

(٢) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٣) سورة المائدة ٣ .

(٤) سورة الأحزاب ٤٠ .

وقوة روحية ، ويشعل عاطفتهم ، ويُلهب جذوة قلوبهم ، ويصلون به أعلىٰ درجات الإيمان واليقين ، ومنازل القرب والولاية .

وكان ذلك العِوض والخليفة هو الكتاب المعجز الخالد ، الذي يتدفق بالحياة والقوة ، والذي لا تبلىٰ جدته ، ولا تنقضي عجائبه ، «والصلاة» التي تزخر بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله والوصول إليه ، وقطع منازل القرب والولاية ، ما ليس لشيءٍ آخر في الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كل عصر وجيل إلىٰ مكانة في الإيمان واليقين ، والعلم والمعرفة ، والربانية والروحانية ، والقرب والولاية لا يصل إليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا في عدد يفوت العدَّ والإحصاءَ ، ولا يزالان يفيضان النموّ والحياة ، والجدة والنشاط ، والروحانية الصافية الدافقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغني بهما هذه الأمة عن نبوة جديدة وبعثة جديدة ، وتعيش متصلة بالله مرتبطة به في كل دور من أدوار حياتها ، وفي كل عهد من عهود التاريخ ، تستمد لنفسها من القرآن والصلاة رابطة قلبية ، وقوة روحية ، وتمد إلىٰ العالم المعاصر يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[١] .

الصلاة ميراث النبوة ، بروحها وأحكامها ، متوارثة في الأمة بظاهرها وباطنها :

والصلاة ميراث النبوة ، والتراث النبوي الخالد العظيم ، الذي يجب

(١) سورة الحج ٧٨ .

أن تتوارثه ، وتتناقله هذه الأمة جيلاً بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، وطبقة بعد طبقة ، يجب أن تتوارثها بأوضاعها وآدابها ، وتفاصيلها وأحكامها ، وقد فعلت ذلك بفضل التوارث والتعامل ، وبفضل جهود المحدثين والفقهاء الذين رووا أخبارها ، ودوَّنوا أحكامها ، وما يُفرض ، وما يجب ، وما يندب إليه وما يستحب ، وما هو سنة وما يخالفها ، وما يجوز وما لا يجوز ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وهكذا كان يجب أن تتوارث هذه الأمة روحها وحقيقتها ، وخشوعها وإنابتها ، وحرارتها ورقتها ، وقد كانت صلاة الرسول ﷺ جامعة بين أوضاع وأحكام ، وبين روح وحقيقة ، وخشوع ورقة ، وقد سُئِل عن الإحسان ، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] وقد كانت صلاته ﷺ هي المثل الكامل للإحسان ، وقد روىٰ مطرف عن أبيه ، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلّي وفي صدره أزيز كأزيز الرحىٰ من البكاء»[٢].

وقد كانت صلاة الخلفاء الراشدين والصحابة ، وكثير من التابعين ، ومن جاء بعدهم من المخلصين والربانيين ، وأهل القلوب الصادقة الخاشعة صورة للصلاة النبوية ، ومرآة لها ، وقد روت كتب التاريخ ، والطبقات والتراجم الشيء الكثير من طولها وجمالها ، وخشوعها ورقتها ، فقد جاء في حديث الهجرة عن عائشة رضي الله عنها ، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن»[٣] وقالت لما أمر النبي ﷺ في شدة مرضه ، أن يتقدم أبو بكر ، فيصلي بالمسلمين ، وقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»: «إن أبا بكر رجل رقيق ، وفي رواية

---

(١) حديث متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) الجامع الصحيح للبخاري ـ الجزء الأول (باب هجرة النبي ﷺ إلىٰ المدينة المنورة).

أسيف ، إذا قرأ غلب عليه البكاء»[١] وقال الحسن البصري رحمه الله : «كان عمر رضوان الله عليه ، يمرّ بالآية من ورده بالليل فيبكي حتىٰ يسقط ، ويبقىٰ في البيت حتىٰ يعاد للمرض ، «وعن ابن عمر رضي الله عنه ، قال : غلب علىٰ عمر رضوان الله عليه البكاء وهو يصلي بالناس صلاة الصبح فسمعت خنينه من وراء ثلاثة صفوف ، «وعن علقمة بن وقاص قال: «كان عمر يقرأ في العشاء الآخرة يوسف ، وأنا في مؤخر الصفوف حتىٰ إذا ذكر يوسف عليه السلام سمعت نشيجه»[٢] وعن عبد الله بن شداد : سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف ، يقرأ : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣] .

واجب قادة الإصلاح ، ورجال التعليم والتربية ، والحركات الدينية :

ومن واجبات هذه الأمة وعلمائها ومربيها بالأخص ، ألا ينقطع هذا الإرث ، وألا تضيع هذه الثروة المباركة ، وألا ينطفىء هذا النور مهما تغيرت الأوضاع ، وغزت المادية القلوب والنفوس ، فإنها خسارة لا تعوض بشيءٍ ، وفراغ لا يملأ بأكبر قسط من الأحكام الفقهية ، وأسرار التشريع ، وذلاقة اللسان وسيلان القلم ، ولا أمل في حركة إصلاحية ، أو محاولة لبعث إسلامي ، إلا إذا ألهبت جذوة الإيمان ، والحب والحنان ، في نفوس أصحابها ودعاتها ، وأعادت إلىٰ الأمة ـ عن طريق دعوتها وتربيتها وجهادها ـ ظلال تلك الصلاة الخاشعة الرقيقة ، التي امتازت بها القرون المشهود لها بالخير ، وعرفت كيف تقوم أمام ربّها في الصلاة قبل أن تعرف كيف تقِف أمام عدوها ، وفي المشكلات

---

(١) الصحيح للبخاري (باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة).

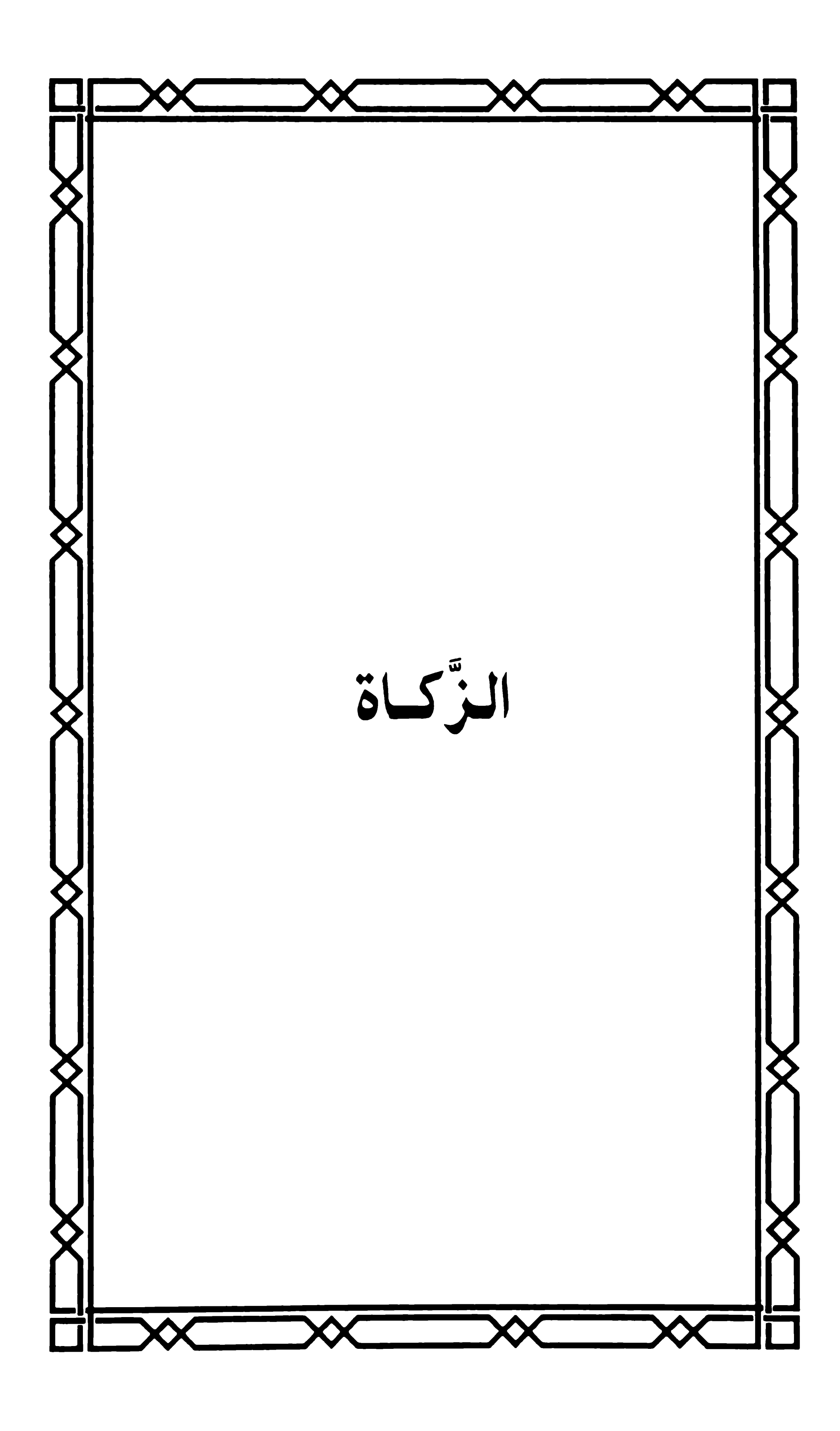
(٢) تاريخ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن الجوزي.

(٣) ذكره البخاري.

والأزمات ، وصدق إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، إذ قال: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» وفي القرآن العظيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[١].

* * *

(١) سورة المؤمنون ١ ـ ٢.



الزَّكـاة

الزَّكـاة

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[1]

صلة الرب والعبد ، وما توجبه من حب وإخلاص ، وبذل وإيثار :

لاحظ الصلة الغريبة الفريدة التي تقوم بين الربّ والعبد ، وهي صلة لا يوجد لها نظير ولا أساس للقياس من بين الصِّلات في الأصالة والعمق ، والسعة والاحتواء ، والشمول والإحاطة[2] ، وأقل ما يقال فيها : إنها صلة الخالق والمخلوق ، والرب والمربوب ، والرازق والمرزوق ، والمالك والمملوك ، والحاكم والمحكوم ، إنها صلة بين سيّد كريم وربّ رحيم ، وبين إنسان فقير وعبد ذليل ، توجب صفات هذا الرب الكريم الكماليّة ، وأفعاله البديعة ، وربوبيّته الحكيمة الرّحيمة ، ورعايته اللطيفة الدقيقة أن يخلص له الحب ، ويهيم به القلب ، وتبذل في سبيله المهج والأرواح ، فضلاً عن الأموال والأملاك .

مظاهر الربوبية والعناية بالإنسان :

وتأمّل في مظاهر ربوبيته الشاملة ، وهدايته الواسعة في هذا العالم ،

---

(١) سورة التوبة ١١ .

(٢) سبق له بحث طويل في موضوع الصلاة .

وعنايته الفائقة بهذا الإنسان ، فهو الذي خلع عليه لباس الوجود المتناسب ، وهيّأه للانتفاع بخيرات الأرض وطيّباتها ، وذخائرها وكنوزها ، ووسائلها وطاقاتها تهيئة حكيمة دقيقة ، وألهمه حبّها والبحث عنها والفناء في سبيلها وطرق استخدامها ، والتعاون في تنظيمها ومبادلتها مع أبناء جنسه .

وقد تجلّت صفة الربوبيّة والهداية في جميع الأنواع والأجناس ، وفي جميع الأصناف والموجودات ، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1] وكان للإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض من ذلك النصيب الأوفر ، والمركز الرئيسي ، ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2] فذلّل له مناكب الأرض ، ووطأ له أكنافها ، وحثّه علىٰ استثارة دفائنها ، واستخراج خيراتها ومكامنها ، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾[3] وسخّر له منابع القوت ومصادر الغذاء ، وقوائم الحياة ، وهي الحبوب ، والماء ، والنّار ، الوسائل الأصيلة الفطريّة ، الأساسية الرئيسية ، التي تقوم عليها الحياة البدائية فضلاً عن المدنيّة الراقيّة ، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾[4] .

---

(١) سورة طه : ٥٠ .

(٢) سورة الإسراء : ٧٠ .

(٣) سورة الملك : ١٥ .

(٤) سورة الواقعة : ٦٣ ـ ٧٣ .

الطبيعـة البشريـة ، ومـا لهـا مـن أثـر فـي الحيـاة والمدنيـة :

ثمّ أودع طبيعته ـ خلافاً لطبائع الجمادات والحيوانات ـ حب التجمّل والأنـاقـة والتظـرُّف والنظـافـة ، والتنـوع ، والتـوسـع فـي المطـاعـم والمشارب ، والزيادة في الحرث والنسل الطبيعية التي تكتسب بها الحياة البشرية حرارتها ونشاطها ، وحماستها وكفاحها ، ويكتسب بها هذا العالم عاطفة التقدّم والرّقي ، والتغيّر والطرافة ، فأرخىٰ له العنان :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[1] ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾[2] .

وألهمه التعاون وضمانة الحقوق ، والحرص علىٰ سلامة الطرق وأمن البلاد ، وحبّ الأسفار والمغامرات في سبيل الرزق الكريم ، وجلب المنافع المشتركة ، فأودع كلّ ذلك الطبيعة البشرية علىٰ اختلاف أدوارها وتنوّع أمصارها ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[3] .

الوضـع والواقـع ، يقتضيـان ألا يُقـرر لـلإنسـان ملـك ولا يضـاف إليـه شـيء ، وأن يكـون الملـك كلـه لله :

فكان هذا الوضع الفطري ، وكان هذا الواقع العملي الذي ظهر فيه عجز الإنسان وفقره ، وضعفه وتفاهته في أجلىٰ أشكالها ، وظهرت فيه الربوبيّة الإلهيّة في أروع مظاهرها ، يقتضي بحكم العقل والمنطق والوجدان السليم ، ألا يُـقـرَّر للإنسان ملك ، ولا يتحقق له حقّ ، ولا يضاف إليه شيء ، إلاّ كما يُضاف إلىٰ طفل صغير ، أو رضيع

---

(١) سورة الإسراء : ٢٠ .

(٢) سورة الإسراء : ٢١ .

(٣) سورة قريش .

محمول ، يتقلب في حنان أمّه وعطف أبيه ، ويحبو ويدرُج في نعمتهما ، ويرتع ويسرح في ظل جهدهما وكدحهما ، بل هو أقلّ شأناً وأكثر هواناً في هذا الكون الكبير وبجوار هذا الرب العلي القدير من هذا الطفل الصغير في بيت أبيه الكبير ، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] ووجب أن يُضاف كلُّ شيء مما تملّكه الإنسان ، وأضافه إلىٰ نفسه جهلاً من أموال ومكاسب إلىٰ من خلقها ونمّاها ، وحرسها وصانها ، ومكّن الإنسان منها لغرض محدود ، ووقت محدود ، وطريق محدود .

الفكرة الأساسية في النظام الاقتصادي الإسلامي ، تقرير الملكية الحقيقية لله تعالىٰ :

ولهذه الحقيقة التي تسيطر علىٰ الحقائق كلها ، وهي الروح التي تسيطر علىٰ جميع النظم الدينية الخلقية والاقتصادية ، أضاف القرآن هذه الأحوال الإنسانية كلها إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ ولم يقرر للإنسان إلا منصب الأمانة والخلافة ، فخاطب المسلمين تارة بقوله : ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾[2] وطوراً بقوله : ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾[3] وقرر أن الله هو المالك الحقيقي ، والوارث الحقيقي ، فليس لإنسان يرضخ بجزء يسير من هذا المال منٌّ ولا فضل ، وليست له مأثرةٌ يدِلّ بها ، ولا مفخرة يتيه بها ، فقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[4] وكان مقتضىٰ هذا الوضع ، أن يطلب من الإنسان أن يتخلىٰ عن كل ما يملكه ، ولا يُمنح حتىٰ التصرف في ماله في قليل ولا كثير ،

---

(١) سورة الروم : ٢٧ .
(٢) سورة النور : ٣٣ .
(٣) سورة الحديد : ٧ .
(٤) سورة الحديد : ١٠

وأن يبقىٰ مغلول اليد ، مقيد الإرادة ، مشلول الحرية .

سر إضافة الأموال والملكية إلىٰ الإنسان ، وفائدتها :

ولكن الله سبحانه وتعالىٰ لم يفعل ذلك ، ولم يجر القرآن ـ وهو الكتاب السماوي الأخير ـ علىٰ نمط واحد من إضافة هذه الأموال ونتائج الجهود الإنسانية وثمرات كفاحه إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ في كل مناسبة ، فلو فعل ذلك لما أثار دهشة واستغراباً لما قدمناه ، ولكنه لو فعل ذلك لأفقد الإنسان ثقته بنفسه ، واعتزازه بكرامته ، واعتماده علىٰ قواه وطاقاته ، وحرمه عاطفة الكدح ، ونشوة الطموح ، ودافع التنافس ، ولذة الحياة التي يجدها الإنسان في نسبة الأشياء إلىٰ نفسه ، ورؤية نتائج سعيه وجهده ، هذه هي اللذة الفطرية التي تراود الأطفال الصغار لنسبة كل ما حواه بيتهم ، أو ملكه آباؤهم ، إلىٰ أنفسهم ، وحرم بذلك الإنسان دافع الحب والإشفاق ، والنصح والإخلاص ، في حراسة هذه الأموال والأملاك ، وتزكيتها وإنمائها ، وإثمارها وإنتاجها ، وجرّد الحياة البشرية من أقوىٰ عوامل زحفها وصراعها ، وجهادها وكفاحها ، وأصبح العالم كلُّه مصنعاً كبيراً ، يتحرك فيه بنو آدم كآلات صمّاء ، لا قلب لهم ولا ضمير ، ولا متعة لهم ولا لذة .

فلذلك كانت إضافة القرآن للأموال إلىٰ أصحاب كسبها وإنتاجها ، واقتنائها وإحرازها ، أكثر من إضافتها إلىٰ خالقها ورازقها ، فقال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

---

(١) سورة البقرة : ١٨٨ .

﴿ يَحْزَنُونَ ﴾(١) وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾(٢) وقال: ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾(٣) وقال: ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾(٤) إلىٰ غير ذلك من الآيات القرآنية التي أضيف فيها المال والكسب إلىٰ الإنسان.

وقد وسّع الله في ذلك، وكرّم الإنسان حتىٰ سمّىٰ ما ينفقه المسلم في سبيل الله، ويساعد به عباد الله قرضاً، فقال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾(٥) وقال: ﴿ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴾(٦) وقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾(٧)

كيف غرس القرآن فكرة الأمانة والخلافة في نفوس المسلمين؟ :

وقد كانت هذه الحقيقة التي قرّرها القرآن، وهي حقيقة ملك الله المطلق، وأنه هو المالك الحقيقي لكل ما وُجد في هذه الأرض، أو اكتسبه الإنسان وأحرزه تُسيطر علىٰ تفكير المسلمين الأولين، وتتحكم في حياتهم، فلا يرون أنفسهم إلاّ أمناء مستخلفين في هذه الأموال: فلا افتئات بالرأي، ولا الحريّة المطلقة في التصرف فيها، ولا رياء، ولا فخر، ولا أشر، ولا بطر.

وقد غرس القرآن فكرة «الأمانة والخلافة» وأرسخها في نفوسهم وعقولهم بطرق شتىٰ، وأساليب تربويّة حكيمة، وأعلم المسلمين بأن

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٢.
(٢) سورة البقرة: ٢٦٧.
(٣) سورة النساء: ٥.
(٤) سورة محمد ﷺ: ٣٦.
(٥) سورة البقرة: ٢٤٥.
(٦) سورة التغابن: ١٧.
(٧) سورة المزمل: ٢٠.

هذه الأموال إذا كانوا اكتسبوها وتملّكوها بكدِّ اليمين وعرق الجبين ، وببراعتهم في طرق الكسب ، وحذقهم في الصناعات وأنواع التجارات ، فقد انتقلت إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ مرة ثانية بحكم ميثاق الإسلام ، والتخلي لله تبارك وتعالىٰ عن جميع الحقوق والدعاوي ، وهو الذي يقرره الإنسان ويقطعه علىٰ نفسه بدخوله في الإسلام ، ونطقه بالشهادتين ، فلله أن يستردَّ وديعته متىٰ شاء ، ويطلب سلعته التي اشتراها متىٰ شاء ، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[1] وأنذر من استحوذ عليه حب المال ، وآثر نفسه أو راحته وشهواته علىٰ الجهاد في سبيل الله ، وأداء حقوق الله ، ورأىٰ لنفسه حقاً وحريّة في التصرف فيه ، والضَّنَّ به ، والحدب عليه ، فقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[2] .

وأنذر المسلمين كذلك بأن الإضراب عن الإنفاق في سبيل الله بسخاء وعلو همّة ، وبذل النفس والنفيس لله تعالىٰ ، وخذلان هذا الدين الذي به بقاؤهم وحياتهم ، وانتصارهم وازدهارهم سعيٌ في هلاك النفس ، ومرادف لما يُسمّونه اليوم «الانتحار» فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] .

كيف آمن المسلمون الأوّلون بفكرة الأمانة والخلافة ، وكيف خضعوا لها؟ :

وقد كانت هذه سيرة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم فيما كانوا يملكون

---

(١) سورة التوبة: ١١١ .

(٢) سورة التوبة: ٢٤ .

(٣) سورة البقرة: ١٩٥ .

من مالٍ ومتاعٍ ، وعقار وملك ، وحرث ونسل ، وقد وضعوها تحت تصرُّف رسول الله ﷺ ومصالح الإسلام ، قد كانت هذه سيرتهم في مكة قبل الهجرة ، وقد مثَّلها خير تمثيل أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وصهيب الرومي ، وأبو سلمة ، وغيرهم من كبار المهاجرين وأغنيائهم ، وقد كانت هذه سيرتهم وسيرة الأنصار رضي الله تعالىٰ عنهم في المدينة.

وتجلَّت هذه الفكرة والعاطفة بكل وضوح وقوة فيما قاله سعد بن معاذ قبل معركة بدر فقد جاء في الخبر:

«ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون ، فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً ، فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثاً ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال يا رسول الله! كأنك تعرِّض بنا ، وكان إنما يعنيهم ، لأنهم بايعوه علىٰ أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم ، فلما عزم علىٰ الخروج ، استشارهم ليعلم ما عندهم ، فقال له سعد: لعلك تخشىٰ أن تكون الأنصار ترىٰ حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم ، وإني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتىٰ تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك ، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»[١].

الحث علىٰ إنفاق الفضل في سبيل الله وقيام المسلمين به في نشاط وحماس:

ولما رسخت هذه العقيدة في قلوب المسلمين ، وملكتهم هذه الفكرة

---

(١) زاد المعاد ج١ ص١٧٣.

والنظرة الخاصة إلىٰ المال ، واعتباره مال الله الذي استخلفهم فيه ، وتغلغلت في أحشائهم ، طلب منهم أن ينفقوا من أموالهم ما فضل وفاض عن حوائجهم «الشرعية الأساسية» فنزل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾[1] .

وامتثلوه وطبّقوه بنشاط وحماس ، فقد هان عليهم كل شيء بعد إقرارهم بأن المال مال الله ، وأنهم أمناء أوصياء ، حتىٰ بلغوا إلىٰ أن أنفقوا علىٰ خصاصة وحاجة ، وآثروا غيرهم علىٰ أنفسهم وأولادهم ، وكان من خبر أبي طلحة الأنصاري ما كان ، وسجله قلم التاريخ مثالاً رائعاً للسخاء والإيثار يندر نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية ، فقد روىٰ البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتىٰ رجل إلىٰ رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلىٰ نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ : «ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله» فقام رجل من الأنصار ، فقال: أنا يا رسول الله! فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء، فنوِّميهم وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل علىٰ رسول الله ﷺ، فقال: «لقد عجب الله عزَّ وجلَّ ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة» وأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2] .

---

(١) سورة البقرة ٢١٩ قال ابن كثير في تفسير «العفو» ما يفضل عن أهلك ، وكذا روي عن ابن عمر ، ومجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والقاسم ، وسالم ، وعطاء الخراساني ، والربيع بن أنس وغير واحد ، أنهم قالوا في قوله «العفو» يعني الفضل.
وقال ابن بطال في تفسيره : أي ما فضل عن الكفاية.

(٢) سورة الحشر: ٩ . قد جاءت تسمية هذا الأنصاري في صحيح مسلم بأبي طلحة.

الـزكاة بمعنـىٰ الإنفـاق والصدقــات :

وقـد جاء ذكر «الزكـاة» فـي السور المكية ، وهي لا تعني غير الإنفـاق والـصدقـات ، فقـال تعالـىٰ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[١] وقال : ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٢] . وقد ذُكرت في تعاليم الرسول وفضائل الإسلام ، أمام بعض ملوك العصر ، وقد قال جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي : «وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لانشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام»[٣] وذلك في العام الخامس من البعثة .

الحاجـة إلـىٰ نظـام معيـن للـزكاة وتشريـع يوافـق الطبقـات والعـصـور :

ولما بلغ المجتمع الإسلامي غايته من رسوخ العقيدة والتربية الخلقية ، والطاعة والانقياد ، والسخاء والإيثار ، والتجرُّد من الأنانية الفرديّة والجماعية ، وقوي الإسلام بأهله وإيثار أتباعه ، وتوسَّع هذا المجتمع ، وتنوّعت فيه الأنماط البشرية والمستويات الخلقية والروحية ، ففيه الغني والفقير والمتوسط بينهما ، وفيه السخي الأريحي ، الذي هوايته في الإنفاق والإيثار ، وفيه الشحيح وفيه المقتصد والمتوسط ، وكان ما يشرع في هذا المجتمع من أحكام ، وما يطالب به من أعمال ، هي الشريعة الخالدة العامة العالمية التي يمتثلها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي أوائل العصور وأواخرها ، وفي بداية المدنية وبساطتها ، وفي أوجها وتعقدها ، ومع القوة الإيمانية التي تحتمل أكبر

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ٤ .

(٢) سورة فصلت : ٦ ـ ٧ .

(٣) سيرة ابن هشام .

مغامرة ، وتهون أعظم تضحية وتُسيغ أكبر مشكلة ، ومع ضعف الإيمان الذي قد يوجد في أطراف العالم الإسلامي البعيدة ، وفي الأجيال المسلمة المتأخرة اقتضت حكمة الله ولطفه بعباده ، أن يُشرع للزكاة نظامٌ مبين الحدود واضح المعالم معيّن النصاب ، معلوم المقادير والأعداد ، ويكون وسطاً بين الكثير والقليل ، لا يستهين به الأغنياء الأسخياء أولو الهمم ، ولا يقصر عنه المتوسطون أو دون المتوسطين ممن استوفى شروطها.

وألا يوكل ذلك إلى الرأي ، ولا إلىٰ همة الأفراد وطموحهم ، ولا إلىٰ الانفعالات الوجدانية العاطفية التي تكون في مد وجزرٍ ، وقوة وضعف ، ولا إلىٰ تشريع المشرعين ، وحكمة العلماء والحكام ، فلا ثقة بها في كلٍّ زمان ومكان ، ولا يؤمن عليها من اتِّباع الهوىٰ والأغراض ، ففرضت الزكاة ، وحدِّدت نصبها ، ومقاديرها[1].

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة التعيين والتحديد في أحكام الزكاة ونظامها ، فقال:

«ثم مسّت الحاجة إلىٰ تعيين مقادير الزكاة ، إذ لولا التقدير ، لفرط المفرط ، ولاعتدىٰ المعتدي ، ويجب أن تكون غير يسيرة لا يجدون بها

---

(١) نرجح أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة ، وكان ذلك قبل السنة الخامسة علىٰ الأرجح ، فقد جاء ذكرها كفريضة ، وركن من أركان الإسلام ، في حديث ضمام بن ثعلبة ، وفي حديث وفد عبد القيس ، (وكان قدومه في السنة الخامسة) ، وفي مخاطبة أبي سفيان مع «هرقل» ، وكانت في أول السابعة ، ومما يدل علىٰ ذلك ما ثبت عند أحمد ، وابن خزيمة ، والنسائي ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة ، قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر ، قبل أن تنزل الزكاة ، ثم نزلت فريضة الزكاة ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله» وإسناده صحيح ، وصدقة الفطر تابعة لرمضان وصومه ، وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، والآية الدالة على فرضيته ، مدنية بلا خلاف.

بالاً ، ولا تنجع من بخلهم ، ولا ثقيلة يعسر عليهم أداؤها ، وإلىٰ تعيين المدة التي تجبىٰ فيها الزكاة ، ويجب ألا تكون قصيرة يسرع دورانها ، فتعسر إقامتها فيها ، وألا تكون طويلة لا تنجع من بخلهم ، ولا تدر علىٰ المحتاجين والحفظة ، إلا بعد انتظار شديد ، ولا أوفق بالمصلحة من أن يجعل القانون في الجباية ما اعتاده الناس في جباة الملوك العادلة من رعاياهم ، لأن التكليف بما اعتاده العرب والعجم ، صار كالضروري الذي لا يجدون في صدورهم حرجاً منه ، والمسلم الذي أذهبت الألفة عنه الكلفة أقرب من إجابة القوم ، وأوفق للرحمة بهم[١] .

فيم تجب الزكاة؟ وحكمة التفاوت بين النصب والمقادير :

وحدد رسول الله ﷺ مقدار الزكاة والأموال التي تجب فيها ، ونصاب هذه الأموال ، الذي يجب فيه الزكاة ، وزمن وجوبها[٢] ، فجعلها في أربعة أصناف من المال ، وهي أكثر الأموال دوراً بين الخلق ، أحدها : الزرع والثمار ، الثانية : بهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم ، الثالث : الجوهران اللذان بهما قوام العالم ، وهما الذهب والفضة ، الرابع : أموال التجارة علىٰ اختلاف أنواعها[٣] .

قال الإمام ابن القيم وهو يتكلم في مصلحة اختيار الأموال التي تجب فيها الزكاة ، وحكمة التفاوت بين نُصبِها ، وحكمة تعيين الزمن الذي تجب فيه الزكاة ، وهو حولان الحول ، في كتابه النفيس «زاد المعاد» .

---

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص٣ .

(٢) اقرأ الأحاديث الواردة في كل ذلك ، في كتب الصحاح ، واقرأ شرحها والبحث فيها ، وفهم فقهاء الإسلام لها في كتاب «نيل الأوطار» للعلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفىٰ ١٢٥٠ هـ) .

(٣) ملتقط من زاد المعاد ج١ ص١٤٥ .

«ثم إنَّـه أوجبها مـرة كل عـام ، وجعل حول الزروع والثمار عند كمالها واستوائها ، وهذا أعدل ما يكون ، إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة ، يضر بأرباب الأموال ، ووجوبها في العمر مرة ممّا يضرُّ بالمساكين ، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة ، ثم إنّه فاوت بين مقادير الواجب بحسب سعي أرباب الأموال في تحصيلها ، وسهولة ذلك ومشقته ، فأوجب الخمس فيما صادفه الإنسان مجموعاً محصلاً من الأموال ، وهو الرِّكاز ، ولم يعتبر له حولاً ، بل أوجب فيه الخمس متىٰ ظفر به ، وأوجب نصفه ، وهو العشر فيما كانت مشقة تحصيله وتعبه وكلفته فوق ذلك ، وذلك في الثمار والزروع التي يباشر حرث أرضها ، وسقيها ، وبذرها ، ويتولَّىٰ الله سقيها من عنده بلا كلفة من العبد ، ولا شراء ماء ، ولا إثارة بئرٍ ودولاب ، وأوجب نصف العشر فيما تولَّى العبد سقيه بالكلفة والدوالي والنواضح وغيرها ، وأوجب نصف ذلك ، وهو ربع العشر[1] فيما كان النماء فيه موقوفاً علىٰ عمل متصل من رب المال بالضرب في الأرض تارة ، وبالإرادة تارة ، وبالتربُّص تارة. ولا ريب أن كلفة هذا أعظم من كلفة الزرع والثمار أيضاً ، فإن نمو الزرع والثمار أظهر وأكثر من نمو التجارة ، فكان واجبها أكثر من واجب التجارة ، وظهور النمو فيما يسقىٰ بالسماء والأنهار أكثر ممّا يسقىٰ بالدوالي والنواضح ، وظهوره فيما وجد محصلاً مجموعاً كالكنز أكثر وأظهر من الجميع.

ثم إنه لما كان لا يحتمل المواساة كل مال وإن قلّ ، جعل للمال الذي يحتمل المواساة نُصباً مقدَّرة ، المواساة فيها لا تجحف بأرباب الأموال وتقع موقعها من المساكين فجعل للورق مئتي درهم ، وللذهب عشرين

(١) يعني ٢,٥ بالمئة.

مثقالاً[١] وللحبوب والثمار خمسة أوسق[٢] ، وهي خمسة أحمال من أحمال إبل العرب ، وللغنم أربعين شاة ، وللبقر ثلاثين ، وللإبل خمساً»[٣] .

حكمة مواضع الزكاة وتوقيتها :

ويزيد ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي إيضاحاً

---

(١) وكل مثقال كان يعادل في زمن رسول الله ﷺ ديناراً ، وكل دينار كان في زمنه بعشرة دراهم بالتقويم تعادل عشرين مثقالاً (أو عشرين ديناراً) مئتي درهم. وهكذا تعادل نصاب الذهب والفضة ، واعتمد على ذلك في التشريع بطبيعة الحال ، وكان المعيار في الزكاة في كل عصر ومصر.

ومئتا درهم ، تعادل بالتقويم ستة جنيهات استرلينية ، في هذا العصر ، وعشرون مثقالاً (أو عشرون ديناراً) تعادل ١٢,٥ ليرة ذهبية عثمانية أو ١١٠ جنيهاً بالعملة المصرية.

(٢) «الوسق ستون صاعاً ، وكل صاع ثمانية أرطال».

وهذا مذهب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأكثر العلماء ، فيعتبرون النصاب فيما تخرجه الأرض ، وهو خمسة أوسق ، فليس عندهم في أقل من ذلك زكاة ، وذهب ابن عباس ، وزيد بن علي ، والنخعي ، وأبو حنيفة إلىٰ العمل بالعام ، فقالوا : تجب الزكاة في القليل والكثير ، ولا يعتبر النصاب ، والخلاف دائر على بحث أصولي ، فليرجع إلىٰ كتب الاستدلال للمذاهب ، وكتب أصول الفقه ، وأحكام القرآن.

وقد ذكر شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي حكمة هذه المقادير التي جعلتها الشريعة نصاباً تجب علىٰ من يملكه الزكاة ، فقال: «إنما قدر من الحب والتمر خمسة أوسق ، لأنها تكفي أقل أهل بيت إلىٰ سنة ، وذلك لأن أقل البيت ، الزوج ، والزوجة ، والثالث خادم ، أو ولد بينهما ، وما يضاهي ذلك من أقل البيوت ، وغالب قوت الإنسان رطل ، أو مد من الطعام ، فإذا أكل كل واحد من هؤلاء ، ذلك المقدار كفاهم لسنة ، وبقيت بقية لنوائبهم ، أو إدامهم وإنما قدر من الورق خمس أواق (يعني مئتي درهم) ، لأنها مقدار يكفي أقل أهل بيت سنة كاملة ، إذا كانت الأسعار موافقة في أكثر الأقطار ، واستقرئت عادات البلاد المعتدلة في الرخص والغلاء» (حجة الله البالغة ج٢ ص٣٢).

(٣) ملتقط من كتاب «زاد المعاد» ج١ ص٢٤٦.

ويشرح حكمة اختيار مواضع الزكاة وتوقيتها ، فيقول :

«والأبواب التي اعتادها طوائف الملوك الصالحين من أهل الأقاليم الصالحة ، وهو غير ثقيل عليهم ، وقد تلقتها العقول بالقبول ، أربعة : الأول : أن تؤخذ من حواشي الأموال النامية ، فإنها أحوج الأموال إلىٰ الذب عنها ، لأن النمو لا يتم إلا بالتردّد خارج البلاد ، ولأن إخراج الزكاة أخف عليهم لما يرون من التزايد كل حين فيكون الغُرم بالغنم ، والأموال النامية ثلاثة أصناف : الماشية المتناسلة السائمة ، والزروع ، والتجارة .

والثاني : أن تؤخذ من أهل الدثور والكنوز ، لأنهم أحوج الناس إلىٰ حفظ المال من السرَّاق وقطاع الطريق ، وعليهم إنفاقات لا يعسر عليهم أن تدخل الزكاة من تضاعيفها .

والثالث : أن تؤخذ من الأموال النافعة التي ينالها الناس من غير تعب كدفائن الجاهلية وجواهر العاديين[١] ، فإنها بمنزلة المجّان يخفّ عليهم الإنفاق منه .

والرابع : أن تلزم ضرائب علىٰ رؤوس الكاسبين فإنهم عامة الناس وأكثرهم ، وإذا جبي من كل منهم شيء يسير كان خفيفاً عليهم ، عظيم الخطر في نفسه .

ولما كان دوران التجارات من البلدان النائية وحصاد الزروع ، وجني الثمرات في كل سنة ، وهي أعظم أنواع الزكاة قُدِّر الحول لها ، ولأنها تجمع فصولاً مختلفة الطبائع وهي مظنّة النماء ، وهي مدة صالحة لمثل هذه التقديرات .

---

(١) يعني القدماء .

والأسهل والأوفق بالمصلحة ألا تجعل الزكاة إلا من جنس تلك الأموال فتؤخذ من كل صرمة من الإبل ناقة ، ومن كل قطيع من البقر بقرة ، ومن كل ثلة من الغنم شاة مثلاً»[١] .

مصارف الزكاة ، وقيام نظامها الاجتماعي :

وبيّن الله تبارك وتعالىٰ مصارف الزكاة في آية من سورة براءة ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[٢] وقد كان نزول سورة براءة بعد فتح مكة . وقد استقرَّت دعائم الإسلام ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فقام نظام الزكاة الاجتماعي[٣] ، وبعث رسول الله ﷺ السعاة والعاملين علىٰ

---

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص٣٠ .

(٢) سورة التوبة : ٦٠ .

راجع تفسير هذه الكلمات ومعرفة مدلولها وما فيه من أقوال ومذاهب «أحكام القرآن» للإمام أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي (المتوفىٰ سنة ٣٨٠ هـ) . «أحكام القرآن» للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي (م سنة ٥٤٢ هـ) وكتب التفسير والفقه للمذاهب الأربعة .

وهذه المصارف المنصوصة في القرآن باقية دائمة مع بقاء حكم الزكاة إلا المؤلفة قلوبهم ، فقال أكثر الأئمة وفقهاء الإسلام : قد سقط سهمهم بانتشار الإسلام وغلبته ، واستدلوا علىٰ ذلك بامتناع أبي بكر من إعطائهم ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلىٰ جواز التأليف . ويعجبني في ذلك قول القاضي أبي بكر العربي ، «والذي عندي إن قوي الإسلام زالوا . وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم . كما كان يعطيه رسول الله ﷺ . فإن الصحيح قد روي فيه «بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ» (أحكام القرآن ص٣٨٥) .

(٣) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة . قال الإمام أبو جعفر الطبري . «ثم دخلت سنة تسع . . . وفي هذه السنة فرضت الصدقات . وفرق فيها رسول الله ﷺ عماله علىٰ الصدقات (تاريخ الطبري الجزء الرابع من المجلد الأول . مطبعة بريك ليدن ص١٧٢٢) . =

الصدقات يتسلَّمون هذه الصدقات من أصحابها ، وبيّن رسول الله ﷺ أحكام تحصيلها وآدابها ، وأوصاهم في ذلك وصايا ، تتجلىٰ فيها الحكمة مع الرحمة ، والمصلحة الاجتماعية بجوار المصلحة الفردية[١] وقد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلىٰ اليمن في العام العاشر الهجري[٢] ، وأوصاه وصية ، أصبحت أساس قانون الزكاة ومنشورها الرسمي ، قال له:

«إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فتردُّ علىٰ فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٣] .

مصالح الزكاة الأساسية:

اعتاد كثير من الكتاب الإسلاميين المعاصرين الذين خضعوا في قليل أو كثير للنظم الاقتصادية الحديثة ، وأهمية علم الاقتصاد وسيطرته علىٰ جميع النظم ومناهج التفكير في هذا العصر ، أن يفيضوا ويسترسلُوا في مصالح الزكاة الاقتصادية والاجتماعية ، وما تعود به علىٰ المجتمع الإسلامي من فوائد ومنافع ، واعتبروها ـ وبالأصح بفهم القارىء لكتاباتهم وبحوثهم أنهم يعتبرونها ـ جباية مالية من أعدل الجبايات ،

= وقد وهم رحمة الله في قوله: فرضت الصدقات. فقد سبقت فرضيتها بسنين. كما قدمنا. وإنما كان في هذه السنة بعث العمال علىٰ الصدقات. وتفريقهم في الأمصار.

(١) اقرأ هذه الوصايا ، والتوجيهات النبوية ، في دواوين الحديث والسيرة.

(٢) ذكره البخاري في أواخر المغازي.

(٣) رواه الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنه.

وأكثرها اتزاناً واعتدالاً في جميع الجبايات التي عرفها تاريخ الاقتصاد في العالم ، ولذلك يعتبرون أنها أكبر أساس ، وأقوىٰ دعامة «للاشتراكية» التي يعتقدون أن الإسلام دعا إليها وتحققت في أفضل عصوره ، وكادوا يغفِلون ـ إلا من عصم الله ووفقه ـ روح الزكاة التي تسيطر عليها ، وهي روح العبادة والتقرب إلىٰ الله ، وحكمتها الأساسية الأولىٰ ، وهي حكمة تزكية النفس من الشح والحرص ، والأثرة وحب المال ، وظلم حقوق الفقراء وقسوة النفس وتزكية المال وتنميته ، وحلول البركة فيه برضا الله سبحانه وتعالىٰ وقبوله ، وبفضل مواساة الفقراء الضعفاء ، وانعطاف قلوبهم ورقتها ، ودعائهم ، وقد ذكر الله هذه المصلحة الأساسية ، ونوه بها في القرآن ، ويكاد القرآن يقتصر عليها ، فقال مخاطباً للرسول ﷺ: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[1] وقال مقارناً بين الربا والزكاة: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[2] وقد أخرج أبو داود عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، قال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم».

وتلي هذه المصلحة الأساسية مصلحة الجماعة والمجتمع ، وهي كفالة المجتمع ، الكفالة اللازمة الضرورية ، وسد حاجات الفقراء الطبعية البدائية ، وتهيئة كل عضو من أعضاء المجتمع أسباب الحياة الشريفة التي يستطيع بها القيام بحقوق الله وحقوق النفس ، والوصول إلىٰ الكمال المطلوب ، والغاية المطلوبة من كل فرد مسلم.

وقد كان العلماء الذين كانت دراستهم للإسلام والكتاب والسنة ،

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.
(٢) سورة الروم: ٣٩.

دراسة أصيلة عميقة ، ولم يعرفوا إلا مدرسة النبوة التي يتتلمذون عليها ، ويتخرجون فيها ، والذين أتوا البيوت من أبوابها في فهم الإسلام وفقه الكتاب والسنة ، يراعون الترتيب بين هذه المصالح ، وينزلون كل واحدة منها منزلتها التي عيَّنها الكتاب والسنة ، وفهمها الصحابة رضي الله عنهم وتلقَّاها المسلمون جيلاً بعد جيل ، وهنا ننقل نماذج من ذلك لبعض كبار علماء الإسلام :

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وهو يبحث في مصالح الزكاة الرئيسية ، وحكمة التشريع فيها :

«واعلم أن عمدة ما روعي في الزكاة مصلحتان ، مصلحة ترجع إلىٰ تهذيب النفس ، وهي أنّها أحضرت الشح ، والشح أقبح الأخلاق ، ضار بها في المعاد ، ومن كان شحيحاً ، فإنه إذا مات بقي قلبه متعلقاً بالمال ، وعذِّب بذلك ، ومن تمرَّن بالزكاة ، وأزال الشح من نفسه ، كان ذلك نافعاً له .

وأنفع الأخلاق في المعاد بعد الإخبات لله تعالىٰ ، هو سخاوة النفس ، فكما أن الإخبات يعدّ للنفس هيئة التطلع إلىٰ الجبروت ، فكذلك السخاوة تعدّ لها البراءة عن الهيئات الخسيسة الدنيوية ، وذلك لأن أصل السخاوة قهر الملكية البهيمية ، وأن تكون الملكية هي الغالبة ، وتكون البهيمية منصبغة بصبغها ، آخذة حكمها ، ومن المنبهات عليها بذل المال مع الحاجة إليه ، والعفو عمن ظلم ، والصبر علىٰ الشدائد في الكريهات ، بأن يهوّن عليه ألم الدنيا لإيقانه بالآخرة ، فأمر النبي ﷺ بكل ذلك ، وضبط أعظمها ، وهو بذل المال بحدود ، وقرنت بالصلاة والإيمان في مواضع كثيرة من القرآن ، وقال تعالىٰ عن أهل النار : ﴿ قَالُواْ لَمْ

نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[١] .

ومصلحة ترجع إلىٰ المدينة ، وهي أنها تجمع لا محالة الضعفاء وذوي الحاجة ، وتلك الحوادث تغدو علىٰ قوم ، وتروح علىٰ آخرين ، فلو لم تكن السنة بينهم مواساة الفقراء وأهل الحاجات لهلكوا وماتوا جوعاً ، وأيضاً فنظام المدينة يتوقف علىٰ مال ، يكون به قوام معيشة الحفظة الذابين عنها ، والمدبِّرين السائسين لها ، ولما كانوا عاملين للمدينة عملاً نافعاً ، مشغولين به عن اكتساب كفافهم ، وجب أن يكون قوام معيشتهم عليها. والإنفاقات المشتركة ، لا تسهل علىٰ البعض ، أو لا يقدر عليها البعض ، فوجب أن تكون جباية الأموال من الرعية سنة .

ولما لم يكن أسهل ولا أوفق بالمصلحة من أن تجعل إحدىٰ المصلحتين مضمومة بالأخرىٰ ، أدخل الشرع إحداهما في الأخرىٰ»[٢] .

ويقول العلامة بحر العلوم اللكهنوي[٣] :

«إن الزكاة ليست غرامة ، بل عبادة خالصة لله تعالىٰ كسائر العبادات .

ولا بد في أداء الزكاة من النية ، لأن الزكاة عبادة عظمىٰ ، أحد أركان الإسلام كالصلاة ، لا يقصد منها إلا الثواب ، فلا بد من النية ، وإن أدىٰ بلا نية لا يتأدىٰ الزكاة كالصلاة ، لأن الصلاة تلغو بلا نية ، بخلاف الزكاة من دون النية ، فإنها تصير هبة ، وينال ثواب الهبة ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً»[٤] .

---

(١) سورة المدثر : ٤٣ ـ ٤٥ .

(٢) حجة الله البالغة ج٢ ص٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) هو العلامة عبد العلي محمد ابن العلامة نظام الدين السهالوي اللكهنوي ، كان إماماً جوالاً في الأصول والمنطق. ومن أشهر مؤلفاته (فواتح الرحموت ، شرح مسلم الثبوت). توفي سنة ١٢٢٥ هـ.

(٤) رسائل الأركان ص١٦٣ .

سمـاتُ «الـزكـاة» البـارزة:

وللزكاة المشروعة في الإسلام سمات تميزها عن أنواع الجبايات والإتاوات التي تفرضها الحكومات أو المجتمعات، أو تُسن في القوانين الوضعية البشرية، وتجعل لها هذه السمات طابعاً خاصاً، وطبيعة خاصة، وتضفي عليها قدساً دينياً، وتجعل لها تأثيراً في الحياة والأخلاق، وفي الصلة بين العبد وربّه لا يوجد «ولا يمكن أن يُوجد» في الجبايات وأنواع الضرائب والإتاوات، مهما بلغت من العدل والنزاهة، والخفة والضآلة.

التبشير والإنذار:

فمن أبرز هذه السمات، ومن أعمقها في التأثير ما يقترن بهذه الفريضة، ويرافقها من روح الإيمان والاحتساب[1]، وهي الروح التي تتجرد منها الضرائب الرسمية، والجبايات القانونية بطبيعة الحال، بل بالعكس من ذلك ترافق هذه الأخيرة روح المقت والسآمة والسخط، والاستثقال والاستكثار، فإن دفع هذه الضرائب لا يعتقد أنها مشروعة من الله، ولا يرجو عليها أجراً وثواباً، بل يعتقد في أكثر الأحيان أن مصدرها تشريع أفراد مثله، أو أخسَّ منه، وتُنفق في كثير من الأحيان في الأهواء والشهوات، وفي المحافظة علىٰ السلطات، أو لخدمة أشخاص معدودين، أو أحزاب محدودة، ثم لا يُرافق هذه الأحكام والتشريعات شيء من الترغيب والترهيب الدينيَّين، بل يتبعها تهديدات وغرامات زمنية، أو مناشير ومراسيم قاسية جافة، تزيد دافعها كراهة وسخطاً، وتذمراً ومقتاً.

---

(١) سبق شرحها في موضوع الصلاة، راجع بحث «التطهر وما يورثه من اهتمام».

ولهذه الحكمة البالغة التي لا يقدر عليها إلاَّ العلي الحكيم ، جاءت الزكاة في القرآن والحديث ، وفي التعليمات النبوية مقرونة بالفضائل ، وما لها من نتائج في الدنيا والآخرة ، وما وعد الله لفاعلها من الأجر والثواب ، والنمو والبركة في المال ، والعقاب الأليم لمن امتنع عنها ، ومحق ماله.

فيقول الله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] ويقول : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] ويقول ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[4] ويقول : ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[5] ويقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[6] والآيات في ذلك كثيرة.

وكذلك تبع هذا التبشير الذي هو حاجة الإنسانية ومقتضىٰ الطبيعة البشرية ، إنذار وتخويف علىٰ اكتناز الأموال ، وحيازتها من الفقراء

---

(١) سورة البقرة : ٢٦١ ـ ٢٦٢ .
(٢) سورة البقرة : ٢٧٤ .
(٣) سورة البقرة : ٢٧٧ .
(٤) سورة الحديد : ١١ .
(٥) سورة الحديد : ١٨ .
(٦) سورة الروم : ٣٩ .

وذوي الحاجات ، والامتناع من أداء حق الله وحق الفقراء في هذه الأموال التي تفيض عن الحاجة وتتكدس عند أصحابها ، تسلية بها ، وتطاولاً وشحاً وحرصاً ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾(١) .

وعلىٰ هذا النسق الحكيم جرىٰ لسان النبوة الأخيرة ، ففاض الحديث النبوي ببشارات ووعود كريمة علىٰ أداء الزكاة ، وآثارها الطيبة في المال والنفس ، وفي الدنيا والآخرة .

فمن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال: «ما تصدق أحد بصدقة من طيِّب ـ ولا يقبل الله إلاَّ الطيِّب ـ إلاَّ أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو في كف الرحمن حتىٰ تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله»(٢). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل في فلاة من الأرض ، فسمع صوتاً في سحابة: اسقِ حديقة فلان ، فتنحىٰ ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرَّة ، فإذا شرجة من تلك الشراج ، وقد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم في حديقة يحوّل الماء بمسحاته ، فقال: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: فلان! للاسم الذي سمع في السحابة ، فقال: يا عبد الله! لِمَ سألتني عن اسمي؟ قال: سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه. يقول: اسقِ حديقة فلان. باسمك. فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأَرد فيه ثلثه»(٣)

(١) سورة التوبة : ٣٤ـ٣٥.
(٢) الستة إلا أبا داود.
(٣) لمسلم.

وقال : قال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال من صدقة ، أو قال : ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً ، وما تواضع عبدٌ لله إلا رفعه الله»[١] وعنه ، رفعه ، قال: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما: «اللهم أعط منفقاً خلفاً» ويقول الآخر: «اللهمّ أعط ممسكاً تلفاً»[٢] . ومنها ، ماروت عائشة أُم المؤمنين ، قالت: «إنهم ذبحوا شاة ، فقال النبي ﷺ ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلُّها ، إلا كتفها»[٣] .

وكذلك أنذر الرسول ﷺ مانعي الزكاة ، ومن لا يؤدي حقّ الله والفقراء في ماله ، بالعقاب الشديد في الآخرة ، وبالنتيجة الوخيمة في الدنيا ، فقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه ، يعني شدقيه ، ثم يقول: أنا مالك ، أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآية»[٤] وعنه أنه قال: «قال رسول الله ﷺ : إذا اتخذ الفيء دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وتعلم لغير الدين ، وأطاع الرجل امرأته ، وعقّ أمّه ، وأدنىٰ صديقه ، وأقصىٰ أباه ، وظهرت الأصوات في المساجد ، وساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأُكرم الرجل مخافة شرّه ، وظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور ، ولعن آخر هذه الأمة أوّلها. فارتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة ، وخسفاً ، ومسخاً ،

---

(١) لمسلم والترمذي والموطأ.

(٢) للشيخين.

(٣) للترمذي.

(٤) رواه البخاري.

وقذفاً. وآيات تتابع كنظام قطع سلكه فتتابع»(١).

وقد كانت نتيجة هذه الفضائل، وما جاء في القرآن والحديث في الترغيب والترهيب، أن المسلمين كانوا رقباء أنفسهم، وكانوا سعاة بيت المال المتطوِّعين، ووكلاء فقراء المسلمين، في أموالهم، وحرثهم، ونسلهم، فكانوا يبحثون عن المصارف، ومستحقي الزكاة بحثاً أميناً دقيقاً، ويتحرَّوْن مواضعها، ويحرصون علىٰ أداء ما يجب عليهم من حقّ الله، فلا يطيب لهم عيش، ولا يهنأ لهم طعام حتىٰ يتخلَّوا عن ذلك، ومن تتبَّع حياة الصحابة رضي الله عنهم، ودرس سيرتهم وسيرة التابعين لهم بإحسان، رأىٰ مواقفهم في ذلك، وعرف ما بلغ الإيمانُ وأخبار الترغيب والترهيب من نفوسهم، حتىٰ أصبحت بذلك الزكاة كالصلاة، التي يحرص علىٰ أدائها المسلم، ويحافظ عليها بدقَّة، ولا يقرُّ له قرار حتىٰ يقوم بها.

وقد فطن لأهميّة هذه الفضائل، وما لها من فضل في إثارة الشعور الديني، علماء الإسلام، فحرصوا علىٰ إيراد هذه الفضائل والترغيب والترهيب في كتبهم، وأشادوا بها في مواعظهم وخطبهم، وكان لها التأثير المطلوب في المجتمع الإسلامي، فلولا هي لتعطّل أداء الزكاة، ولهجر المسلمون القيام بها بأنفسهم، بعدما تركت الحكومات الإسلامية المطالبة بها، والإشراف عليها.

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الإشارة إلىٰ أهميّة هذه الفضائل ومكانتها في التشريع الإسلامي. فقال:

«ثم مسَّت الحاجة إلىٰ بيان فضائل الإنفاق والترغيب فيه، ليكون برغبة وسخاوة نفس، وهي روح الزكاة، وبها قوام المصلحة الراجعة

---

(١) رواه الترمذي.

إلىٰ تهذيب النفس ، وإلىٰ بيان مساوىء الإمساك والتزهيد فيه ، إذ الشح هو مبدأ تضرر مانع الزكاة ، وذلك إما في الدنيا ، وهو قول الملك : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، والآخر : اللهمّ أعط ممسكاً تلفاً ، قوله ﷺ : «اتقوا الشحّ ، فإن الشحّ أهلك من قبلكم» الحديث ، وقوله ﷺ : «إن الصدقة لتطفىء غضب الرب» وقوله ﷺ : «إن الصدقة تطفىء الخطيئة ، كما يطفىء الماء النَّار» وقوله ﷺ : «فإن الله يتقبَّلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها» الحديث[1] .

تـؤخـذ مـن أغنيائهـم وتـردّ علـىٰ فقرائهـم :

والسمة الثانية البارزة التي تميِّز الزكاة عن سائر الجبايات والضرائب ؛ التي كانت تُفرض في زمن الملوك والسلاطين ، وفي عهد الحكومات الشخصيّة ، أو في عصرنا الحاضر في الجمهوريات وحكومات الشعُوب ، وتجعلها تختلف عنها اختلافاً واضحاً في البداية والنهاية ، وفي النتائج والآثار ، هي وضعها الشرعي الذي قرَّره الرسول ﷺ بلفظه المعجز الحكيم ، وتعبيره النبوي الدقيق الذي يُعدّ من جوامع الكلم . فقال : «تؤخذ من أغنيائهم ، وترد علىٰ فقرائهم» ، وذلك وضع الزكاة الأصيل الشرعي الذي كانت عليه ، ويجب أن تكون عليه ، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها ، ويملكون النصاب المعيَّن المنصوص ، وتصرف في مصارف عيَّنها الله تعالىٰ في القرآن ، ولم يكلها إلىٰ رأي مشترِع أو مقنِّن ، أو حاكم أو عالم ، وهو قوله تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ الآية ، وتفضِّل الشريعة ، وترجِّح الأحاديث النبويّة أن تصرف هذه الصدقات علىٰ فقراء البلد الذي تجبىٰ فيه .

---

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص٣٠ ـ ٣١ .

وكذلك كان نظام الزكاة حتىٰ في الحكومات التي لم تكن دقيقة كلّ الدقة ، ولا أمينة كلَّ الأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية ، وتحقيق المُثل الإسلامية العليا في الحكم والسياسة. فلم يُحرم الفقراء والمساكين حقّهم في ظلِّ هذه الحكومات ، ولم تتعطَّل حدود الله كلَّ التعطل[1] ، في هذه الحكومات ، التي يبالغ كثير من المؤرخين المغرضين ، والباحثين المستشرقين في ذمها ، وانحرافها عن تعاليم الإسلام ، بل ثورتها عليها ، كما يقولون.

وبالعكس من ذلك ، الجبايات والضرائب والمكوس ، التي تفرضها الحكومات اليوم ، فهي صورة مقلوبة معكوسة للزكاة ، فهذه الضرائب ـ العادلة منها والمجحفة ، والصغيرة منها والضخمة ـ تؤخذ من الفقراء وأوساط النَّاس ، وتُردّ علىٰ الرؤساء والأغنياء والأقوياء ، إنَّها تجتمع بعرق جبين الفلاَّحين ، والعملة والصنَّاعيين ، والتجَّار الذين يشتغلون ليلَ نهارَ في متَاجرهم ودكاكينهم ، وتُصرف هذه الأموال بسخاء بل بقسوةٍ نادرةٍ ، ووقاحة زائدةٍ في استقبال رؤساء الجمهوريات الزَّائرين للبلاد ، وفي ولائمهم التي تشبه ولائم «ألف ليلة وليلة» الخيالية الأسطورية وفي المهرجانات التي يُحتفل بها بين حين وحين ، وفي مآدب السفارات في البلاد الأجنبية التي تجري فيها الخمر جري الأنهار ، وفي دعايات الحكومة التي تستنفدُ موارد الشعب وتمتصُّ دماءه ، وتحول بين رجل الشعب وقوته ، وفي جعالات الصحفيين الأجانب ، ووكالات الأنباء ، ورواتب المذيعين البارعين الذين حذقوا فن تلفيق الأخبار ، واتِّهام الأبرياء ، وتشريح الأحياء من المنافسين والأعداء وتكاليف الصحف التي

---

(١) كتاب الخراج لقاضي القضاة ، الإمام أبي يوسف ومقدمته بصفة خاصة برهان ساطع علىٰ ما كان من اهتمام في أوج الدولة العباسية بأحكام الخراج والزكاة والصدقات فإنه كتب هذا الكتاب العظيم باقتراح من أمير المؤمنين «هارون الرشيد».

تُعتبر أهمّ وأنفع من أقوىٰ الجيوش ، وأحدث الأسلحة ، فما من حكومة شعبيّة ديمقراطية ، ولا من حكومة شيوعيّة أو اشتراكية ، إلاّ وهي تمتص دم الشعب كالإسفنج ، وتصبّه في بحر الدعاية والرشاء السياسي ، والتلبيس الصحفي ، ومحاكمة المعارضين ، من المجرمين وغير المجرمين ، فلا أدقّ تصويراً ولا أصدق تعبيراً في وصف هذه الضرائب ، التي تقوم عليها الحكومات اليوم ، من قولنا إنّها «تؤخذ من فقرائهم وتردُّ علىٰ أغنيائهم» لذا كانت الزكاة الإسلامية التي فرضها الله علىٰ عباده الموسرين لطفاً ورحمة بالأمة ، ونتيجة لنعمة النبوّة التي لا نعمة فوقها ، ضريبة إذا كان لا بد من إطلاق هذه الكلمة أقل الضرائب مقداراً وأخفَّها مؤنة ، وأعظمها يُمناً وبركة ، وأكثرها فائدة ، لأنّها «تؤخذ من أغنيائهم وتردّ علىٰ فقرائهم» .

روح التقـوىٰ والتواضـع والإخـلاص :

والسمة الثالثة المميزة للزكاة ، هي روح الإخلاص ، والتواضع والامتنان (لا المنّ) والإكرام الذي يجب أن يقترن به أداءُ الزكاة ، ويتّصف به صاحبها وهي الآداب الدقيقة والأخلاق السامية النبيلة ، والروح الدينيّة التي حثّ عليها القرآن وأشاد بها ، ووصف كرام القائمين بهذه الفريضة بالتَّلبُّس بها ، فتارة نهىٰ المتصدِّقين وأصحاب الخير والبرّ ، عن أن يكدِّر أعمالهم ، ويُقلل من قيمتها المنّ والأذىٰ ، فقال في الأسلوب القرآني المعجز : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ

عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١].

وتارة مدح أصحاب الخير والبر بروح التواضع والإشفاق الذي يسيطر عليهم عند اشتغالهم بهذه الخيرات وتلبُّسهم بها، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[٢] وقال: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[٣]، وتارة مدح القائمين بهذه المبرات وأعمال المواساة بالإخلاص التام، والتجرد عن الأغراض المادية أو المعنوية، فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[٤].

وكذلك حثَّ علىٰ أن يكون حظ الله وحظ عباده الفقراء من المال الطيِّب الكريم الذي ترغب فيه النفس، ويكرم به الرجل لا من المرذول الرديء الذي يُزهد فيه، ويُستهان بقيمته، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾[٥].

وفي الحديث: «أن عائشة أرادت أن تتصدَّق بلحم منتن، فقال لها النبي ﷺ أتتصدقين بما لا تأكلين؟!»[٦].

وبالعكس من ذلك الجبايات التي تجبيها الحكومات ـ عدلاً أو ظلماً ـ

---

(١) سورة البقرة: ٢٦٢ ـ ٢٦٤.

(٢) سورة المؤمنون: ٦٠.

(٣) سورة المائدة: ٥٥. قال العلامة أبو حيان الأندلسي في «بحر المحيط»: «والركوع هنا ظاهره الخضوع لا الهيئة التي في الصلاة» ج٣ ص١٤.

(٤) سورة الدهر: ٨ ـ ١٠.

(٥) سورة البقرة: ٢٦٧.

(٦) رواه أحمد.

تتجرد من هذا الروح الخلقي والتعبدي ، وعن تواضع النفس ، والخوف علىٰ العمل من الرياء وعدم الإخلاص ، وتحرّي المال الطاهر الطيِّب الأثير الكريم ، ففي غالب الأحيان تقترن هذه الجبايات بروح المقت والضجر والاحتيال القانوني ، وتعمُّد المال الذي جاء من طرق غير شرعية ، وتلك طبيعة الأحكام والقوانين العلمانية الزمنية ، التي لا تسندها عقيدة ، ولا فكرة دينية ، أو قدسي روحي .

الفرق بين الزكاة والربا :

إن الزكاة والربا يتناقضان «علىٰ خط مستقيم» فهما من الأضداد المعنوية ، والمتناقضات الخلقية ، التي تفترق من بدايتها ، ولا تلتقي إلىٰ النهاية ، فدوافع الواحد منهما تناقض دوافع الآخر ، وكذلك الأهداف والغايات ، وكذلك الآثار في النفس ، وفي الفرد والجماعة ، وفي المجتمع الإنساني بصفة عامة .

فروح الزكاة خشية الله وطاعته ، وابتغاء رضوانه ، والمواساة والعطف علىٰ الفقراء والرثاء لأحوالهم ورقة القلب ، والإخلاص والتجرد عن الأغراض ، حين كان روح الربا معصية الله ، ومبارزته بالحرب ، وقسوة القلب ، والشح المفرط ، والنهامة المسرفة للمال ، وتضخُّمه وتناسله[1] من كل طريق ، وانتهاز فرصة حاجة الفقير الملحَّة ، واستغلال فقره وضعفه .

وحين كانت نتيجة الزكاة ، وأثرها النفسي زيادة الإيمان ، وانشراح القلب ، وطيب النفس والرسوخ في الكرم والنّبالة ، والسخاء والسماحة ، كانت نتيجة الربا انقباض النفس ، وقسوة القلب ، وبلادة

(١) ذلك لأن مال المرابي يلد المال ، ويبيض ويفرخ من غير مقابل ، من جهد أو تجارة ، حتى يكون أضعافاً مضاعفة .

الروح وشراسة الخُلق ، والضراوة باللحم الإنساني وماء الوجه ، وديباجة الحياة الإنسانية ، وانتهاك كرامتها ، والتمتع والالتذاذ بمواضع الضعف والعجز في المجتمع والحياة.

وحين كانت نتيجة الزكاة فشوّ روح المواساة والكرم في المجتمع ، وانتشار الغنىٰ في أعضائه ، والبركة في الأموال ، والألفة في القلوب ، والتحابب في النفوس ، والثقة بين الأفراد ، كانت نتيجة الربا تكدس مال المجتمع ، وحصيلة جهود أعضائه في مكان واحد ، أو في فرد واحد ، أو في أفراد في أقل عدد ممكن ، فكان المرابي في هذا المجتمع ، هو الحوض الصغير الذي تنتهي إليه جميع السواقي في هذا البلد ، ويبقىٰ من غير ماء ، أو كجبل المغناطيس الذي جاءت قصته في رحلات سندباد البحري في «ألف ليلة وليلة» ، الجبل الذي يقال أن سفينة رماها الطوفان إليه ، فجعل الربّان يبكي وينوح ، فسُئل عن السبب ، فقال: ابتلانا الله بجبل المغناطيس الواقع في هذا البحر. وإنه سيجز جميع المسامير الحديدية ، فتتحطم السفينة وتتناثر ألواحها وأجزاؤها ، فيلقمها البحر. وكذلك كان ، فالمرابي ، أو جماعة المرابين في بلد يملكون ذلك المغناطيس والمال ، الذي يجتذبون به جميع المسامير والروابط التي تربط أجزاء الحياة وقوائمها ، بعضها ببعض ، فتتناثر هذه الأجزاء ، وتتفكك هذه العرىٰ والروابط ، وينزف جسم المجتمع دمه القاني الأصيل ، ويُصاب بالسل الخُلقي والاقتصادي ، فإذا عاش ، عاش مسلولاً مشلولاً ، وإذا مات ، مات حزيناً سليباً.

وكذلك نتيجة الربا: التباغض بين الأفراد ، وزوال الثقة المتبادلة في المجتمع ، وفشو روح السخط والتشاؤم ، والشماتة بين المتعاملين بالربا ، وبين الفقراء والأغنياء ، ووجود طبقتين متميزتين تمام التميز ، كانت إحداهما من جنس البشر ، والأخرىٰ من الحيوانات والدواجن ،

وهما طبقة الأثرياء ثراء فاحشاً ، وطبقة الفقراء فقراً مدقعاً.

لذلك يذمُّ القرآن الربا ذماً شديداً ، ويشنِّع عليه ويقبِّح تصويره ، بمقدار ما يمدح الزكاة ويحث عليها ، بل قد يكون تشنيعه علىٰ الربا ، وذمّه له أقوىٰ وأعنف ، من مدحه للزكاة والصدقات ، وذلك أسلوب القرآن الحكيم في العقائد المنحرفة ، والأخلاق الذميمة ، والأعمال القبيحة. فكانت صيغته لذمِّ الربا ، وعبارته فيه من أشد أساليب الذم والإنكار ، وأفظعها ، الأسلوب الذي تقشعر له الأبدان ، وتنخلع منه القلوب ، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[1]. وصوَّر آكل الربا تصويراً دقيقاً يثير المقت والكراهة في نفس القارىء المؤمن ، فيقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

وقد قارن القرآن بين الربا والصدقات ، وآثارهما ونتائجهما ، في أكثر من موضع ، فقال في إيجاز ، هو الإعجاز ، وفي لفظ يحتاج تفسيره إلىٰ مجلَّد ضخم ، وإلىٰ استعراض تاريخ علم الاقتصاد ، وما آل إليه أمر البلاد والمجتمعات التي عاملت بالربا فقال: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[3] وقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِي

(١) سور البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.
(٣) سورة البقرة: ٢٧٦.

﴿أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[١].

وكذلك فعل الرسول ﷺ ـ وكان خُلقه القرآن ـ فمدح الزكاة والصدقات ، وذكر آثارها ونتائجها في المال وفي جماعة المسلمين ، وقد مرَّت الأحاديث التي وردت في البركة في المال الذي يتصدق منه ، وإعانة العبد المتصدق من الله ، وبالعكس من ذلك ، أنذر علىٰ منع الزكاة بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، فقد روىٰ بريدة عنه ، قال: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسِّنين»[٢].

وهكذا أنذر علىٰ الربا والمعاملة به بالعقوبات في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، فقال: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أُخذوا بالسَّنة ، ما من قوم يظهر فيهم الرِّشا ، إلا أخذوا بالرعب»[٣]. وقال : «لعن الله آكل الربا ، وموكله وكاتبه ، ومانع الصدقة»[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «أتيت ليلة أُسري بي علىٰ قوم ، بطونهم كالبيوت ، ففيها الحيّات ترىٰ من خارج بطونهم ، قلت من هؤلاء يا جبريل؟! قال: هؤلاء أكلة الربا»[٥] وقال: «إذا أراد الله بقرية هلاكاً أظهر فيهم الربا»[٦].

ومن اطَّلع علىٰ تاريخ المجتمع الإسلامي ، ودرسه من النَّاحية الخلقيّة ، ومن ناحية تطبيقه للأحكام الشرعيّة ، والأوامر الإلهية ، وما جرَّ ذلك عليه من يمن وبركة ، وأمن وسلامة ، وسعادة ورخاء.

---

(١) سورة الروم: ٣٩.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك ، والنسائي في السنن.
(٤) رواه الحاكم في المستدرك ، والنسائي في السنن.
(٥) رواه أحمد وابن ماجه.
(٦) كنز العمال مروياً عن أبي هريرة رضي الله عنه ج٢ ص٢١٣.

وإخلاله بالشريعة ، وتعطيله للحدود والفرائض ، وما جرّ ذلك عليه من بلاء وشقاء ، ومن ضيق وضنك ، صدق هذه الأخبار النبويّة الصادقة ، وهذه الأحاديث الواردة ، وصدق الله العظيم : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2] .

الإصلاحات التي قام بها الإسلام في تشريع الزكاة :

قام الإسلام بدوره الإصلاحي ، في قانون الزكاة وأحكامها ، كما قام بدوره الإصلاحي في سائر الأركان ، كالصلاة ، والصيام ، والحج ، وجاءت شريعة الزكاة وأحكامها كافلة بجميع المصالح الفرديّة والاجتماعية ، مبرأة من كل تحريف وفساد ، أدخلتهما الأمم السابقة ، وتلوثت بهما الأديان المحرفة .

الصدقات في الديانات الأخرىٰ :

إن الذي اعتاد المنهج العلمي التشريعي ، الذي يشتمل علىٰ حدود وقوانين وأحكام فقهيّة ، وتفاصيل قانونية في الشريعة الإسلامية بما فيها من كتاب وسنة وكتب فقهيّة يفاجأ بحيرة ، وشعور بالإخفاق إذا بحث عن مثل هذا القانون المعيّن المحدود ، واضح المعالم ، معلوم الحدود لفريضة الزكاة ، أو الصدقات وفي أسفار الديانة الهندكية وفي كتب العهد القديم أو العهد الجديد ، أو في تلمود ، ويكتشف أنَّها مقتصرة علىٰ مواد مبعثرة ، وأحكام هي أشبه بالتوجيهات الخُلقيّة أو الروحية ، أو بوصايا عامة منها بأحكام فقهيّة ، أو تفاصيل قانونية ، فلا يطلع بعد البحث

---

(١) سورة النحل : ٩٧ .

(٢) سورة طه : ١٢٤ .

الدقيق علىٰ مباحث أساسية تعطي لهذه الفريضة صورة فقهيّة قانونية .

فمثلاً ، إذا حاول أن يعرف علىٰ من تجب الزكاة وفيما تجب؟ وما هو نصابها؟ وما هو القدر الواجب ، وما هي مصارفها بالضبط ، أو من يستحقها وتدفع إليه؟ أسئلة تكفَّلت كتب السنَّة ، والفقه في الإسلام بالإجابة عنها ، وتكوَّنت في تفصيلها هذه المكتبة الفقهيّة الهائلة في الإسلام بالإجابة عنها ، لم يجد جواباً شافياً ، ولا يرجع الباحث في المقال الخاص بالزكاة أو الصدقات ، Charity في دائرة معارف الديانات والأخلاق بطائل كبير في هذا الموضوع رغم دراسة الكاتبين المختصين له دراسة واسعة ، وتتبعهم للمراجع القديمة تتبُّعاً دقيقاً .

ويواجه الباحث المسلم هذا الوضع الغريب المختلف عن الوضع الإسلامي الفقهي في كل باب من أبواب الفقه في كل ديانة قديمة تقريباً ، فتصعب الدراسة المقارنة للإسلام والديانات القديمة في العبادات والمعاملات ، وأبواب الفقه والأحكام .

«الصدقات» في الديانة الهندوكية :

نقدم أولاً ملخص المقال الذي كتبه الأستاذ (A.S. GEDEN) في «دائرة معارف الأخلاق والديانات» حمل فكرة الصدقات في الديانة الهندوكية ، وأنواعها ، وطرقها ، ووضعها في مختلف أدوار التاريخ ، إنها محاولة دراسية موضوعية إلىٰ حد كبير ، اكتفىٰ فيها صاحب المقال بعرض المبادىء والنظريات فحسب ، ولم يتعرض للنقد والمقارنة والاستنتاج . إنه يقول :

«الصدقة واجب ديني عند الهنادك ، وهي تختلف عن الصدقات عند الغربيين في المبدأ والتطبيق لعدة اعتبارات وجيهة ، إن الصدقة بدافع البر والمؤاساة والرفق والعطف لا توجد في الديانة الهندوكية ، ولكن مع ذلك

إن تقاليد الأريحية والسخاء ، واشتراكية العقارات والأموال ، وسد حاجات الفقراء والمساكين عامة في هذه البلاد لا يدانيها أي بلد آخر في هذا المضمار ، وذلك طبيعي ، فإن الجماعات التي تجول في طول البلاد وعرضها عالة علىٰ المتصدقين لا يمكنها أن تستمر في عملها الدائب؛ إلا إذا كانت علىٰ ثقة بأنها ستنال نصيبها من الرزق ، وذلك لا يتيسر طبعاً إلا في مكان عمّت فيه هذه الفكرة ، ونالت رواجاً وتطبيقاً في المجتمع ، لقد قال «منّو»: إن السخاء والعطاء واجب علىٰ الجميع في هذا العهد ، ولكنهم حصروا الذين ينالون الصدقات والإعانات في طبقة خاصة هي طبقة البراهمة ، وبعض طوائف النسّاك المعروفة الأخرىٰ ، فهم وحدهم يستحقون المنح والعطاء والصدقة (DAKSHINA) دون طوائف المجتمع الأخرىٰ ، أما جزاء هذه الصدقة وثوابها فهو علىٰ مقدارها وكميتها.

وهكذا حملت الصدقات في الهند هدفاً دينياً ، وهو الجزاء الحسن في الحياة الثانية[١] والحصول علىٰ المنافع الذاتية ، إن التعليمات الدينية للهنادك ، وكتبهم الدينية لا تعني كثيراً بالسخاء المخلص الذي يتجرَّد عن كل غرض وفائدة ، ولكن أكثر الهنادك تجاوزوا عن ديانتهم في هذا المجال. أما الفكرة الغربية للصدقة والبر ، فإنها لا توجد هنا إلا في بعض الطوائف من النسّاك الذين يبذلون بعض الوقت في إغاثة الملهوفين وإسداء الخير ، ولا ريب أن هذه الأعمال لا تخلو من تأثير تعاليم بوذا الرقيقة الأريحية ، إن سدنة المعابد الكبار يقيمون مآدب غنية في الأعياد الدينية الخاصة للزائرين ، والضيوف ، غير مبالين بالنفقات الباهظة ، ولكن الفكرة الأساسية في كل هذه الأمور والتصرفات هندية ، وليست غربية أو

(١) لا ينبغي أن ينسىٰ القارىء أن الديانة الهندوكية تدين بالتناسخ والانتقال المستمر من حياة إلىٰ حياة ، بحسب الأعمال والأخلاق في الحياة السابقة ، وقد يكون ذلك بالظهور في صور حيوانات مختلفة بحسب تلك الأعمال والأخلاق.

مسيحية ، الحق أنَّ الكهنة والنسّاك لا بد أن يعاهدوا علىٰ السخاء والعطاء ، ويجب عليهم أن يتصدقوا بكتبهم إذا لم يجدوا شيئاً آخر ، ولكن الأمر بالعكس عملياً ، فإنهم يأخذون في معظم الأحوال ولا يعطون ، أما في الجماهير وغير البراهمة ، فإنهم يملؤون هذا الفراغ بتقاليد الأسر المشتركة ، حيث تلزم فيها الصدقات في عدة مناسبات ، وتكون الجماعة مسؤولة عن الفرد الجائع الملهوف.

وكانت فكرة الصدقات تحتل مكانة محترمة ملحوظة في عقول الشعراء في زمن الأدعية المقدسة «لويدا» فيتغنىٰ الشعراء بأجر المتصدِّق وعلو منزلته ، ويلهجون بذلك ، وتحتل الصدقات المكانة الأولىٰ في الحقوق والواجبات التي تعود علىٰ أصحاب الأسر ، في الأدب الويدي ، وفي صحف الأزمنة الأخرىٰ ، وكتبها الدينية ، ودققت في تحديد الطبقات التي تستحق هذه الصدقات ، وإن كانت الآراء قد اختلفت في هذا التحديد والوصف ، إنَّ «منو» وضع في هذا الباب أُسساً ومبادىء وأحكاماً واضحة تأثرت بها التقاليد الهندوكية (في نطاق الصدقات) تأثراً بالغاً.

وعلاوة علىٰ تلك النواحي التي تأثرت فيها التقاليد الهندوكية بالتقاليد الغربية ، فإنها اعتبرت هذه الصدقات (DHARMASTHAM) يعني وسائل الأجر والثواب ، وقد خصَّ SKUNDPURNA باباً كاملاً لمبادىء الصدقة ، كما خص HEMADRI النصف الأخير من كتابه لهذه القضية وحدها.

وهكذا عاش عامة النسّاك الهندوكيين عالة علىٰ الصدقات ، إنَّ أمثال هذه الجماعات تحيا حياة بؤس وضيق وجهاد في الغرب ، ولكن بالعكس إن النسّاك الهنديين لا يكسبون عيشهم بكدّ اليمين وعرق الجبين ، ولا يقدرون علىٰ ذلك ، إن نظام التسوّل الواسع النطاق الذي وصفناه ، توارثته الأجيال في الهند منذ زمن عريق في القِدم ، ولا شك في أن عبء

هذا الجيش من المتجولين والمتسولين كان ثقيلاً علىٰ الطبقات الكادحة الفقيرة في المجتمع في جميع الأحوال.

إنّ الديانة البوذية ورثت فكرة الصدقة من البرهمية ، إنها طوَّرت فكرة الصدقة للذين يهبون حياتهم للدِّين ، ووسعت أُسسها ومبادئها ، إنَّ SAK YAMUNI (يعني بوذا) نفسه كان في «حياته الأولىٰ» DAM ASURA يعني بطل الجود والسخاء ، ولذلك لم تكن هذه التقاليد والعادات غريبة علىٰ الكيان الخلقي والاجتماعي في الديانة البوذية ، أما الديانة الجينيّة فإنها لم تعترف بهذا الحق المبالغ فيه للبراهمة ، ولكنها ألقت مسؤولية كل فرد من النسّاك علىٰ الشعب ، إنّ أي واحدة منهما (أعني الجينية والبوذية) لم تُشرِّع مبدءاً جديداً ، بل إنهما اعترفتا بتقليد الصدقة والبر للذين يعلِّمون مبادىء الدين ، وتمسكتا به عبر القرون.

وكانت هذه العطايا والمنح تنقسم إلىٰ نوعين: الأول وقف العقارات «الأبنية والبيوت» وغلات القرىٰ ، أو دفع العُشر من دخل الفرد في الصدقة ، وكان البراهمة ـ علاوة علىٰ ذلك ـ ينالون الشيء الكثير من الصدقات في الأعياد والمهرجانات الدينية ، والتقاليد الاجتماعية نقوداً وطعاماً ، ويدخل في ذلك ما يأخذه المتسوِّلون المتجولون من متاع وأثاث من القرويين الجهلاء بسبب عقائدهم الخرافية التي يدينون بها ، وبما كان يساورهم من خوف ووجل إذا منعوا هذه الصدقات ، وردُّوا هؤلاء المتسوِّلين خائبين محرومين.

وكان عدد الصدقات التي كانت تعتبر أفضل الصدقات MHADAN يتراوح بين عشرة وستة عشر نوعاً ، أهمها الذهب وتليه الأبنية وغلاَّت القرىٰ ، ونحو ذلك ، وكان أهم نوع من صدقة الذهب الذي يعلوها قيمة وأجراً ما يسمىٰ بـ: TULADAN أو TULAPURSA كان المعطي يزن نفسه بالذهب ، ثم يقسم ذلك الذهب في البراهمة الموجودين ، ويقال:

إن أميراً هندوكياً في «قنوج» تصدق مئة مرة بهذه الصفة ، وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ، وقدم هذا النموذج وزير في ولاية صغيرة في «بهار» تسمىٰ (MITAHALA) في القرن الرابع عشر ، وقد ذكر الرحالة الصيني المعروف ب هوئن سوانج HIVEN TSANG أخباراً عجيبة مدهشة لملك قنوج (SILADITYA) فقد كان يتصدق بكل ما كان يملكه من أسباب ومتاع بعد كل خمس سنوات ، وكانوا يستبدلون الفضة بالذهب أحياناً وكانت البقرة المصنوعة بالذهب ، أو زهرة «كنول» ظاهرة هامة في التقليد الذي يسمىٰ بـ: «الزنار». وكانت هذه البقرة تحطم عند نهاية مهرجان خاص بهذا التقليد تكسر وتوزّع في البراهمة ، أو توقف علىٰ معبد ، وكان الأمراء والأغنياء يهبون أواني الذهب والفضة المستعملة لضيوفهم ، أما الوقف علىٰ زوايا البراهمة من محصول الأرض ونحوه ، فإنه من التقاليد القديمة في الهند ، يجب ذكرها في حفريات: «أشوكا» ويروىٰ أن هذا الملك منع قسراً عن هذا الإسراف في الصدقات والعطايا في الأيام الأخيرة من حياته ، الذي كاد يودي بنفسه وأسرته.

إن هذا النوع من الصدقة علىٰ البراهمة وزواياهم ليس شيئاً غير عادي حتىٰ اليوم ، فإطعام البرهمي لا يزال يعتبر براً ، لا سيما إذا كثر عددهم ، وهي ظاهرة توجد إلىٰ حدٍّ ما في كل تقليد عائلي ، أو مهرجان ولادة أو مأدبة ، أما في الأعياد المشهورة ، فكان يتسع هذا النطاق كثيراً ، حيث يتوافد إليها جماعات كثيرة من الزوّار والنسّاك ، ويقمن عدة أيام ، ويُستشهد علىٰ ذلك بشخصية (USAVADATA) الذي عاش في القرن الأول (كما يقولون) لقد دلّ أثر تاريخي عثر عليه في غار قديم أنه كان يفتخر بأنه كان يسدُّ حاجات مئة ألف من البراهمة ، ويتصدق بمئة ألف بقرة ، وست عشرة قرية ، وحدائق ونحو ذلك ، نحن نجد في العصور القديمة عدداً من الملوك ، يكفلون عدداً من البراهمة زمناً طويلاً أو مدىٰ

الحياة ، فكانت جماعات من النسّاك تنعم وتترفه بالأوقاف والعقارات والأموال ، شأن الزوايا والتكايا في القرون المتوسطة في أوربا ، وقد يدخل معظم إيراد المملكة وأملاكها في حوزة هؤلاء النسّاك ، وفي ملكهم . إنَّ العادة المتبعة الشائعة في شمال الهند من تقديم مال مقرر أو عشر دخل الفرد إلىٰ جماعات النسّاك أو «المعلّم» الذي يمتاز في نوع من العلم ، ويتزعم مدرسة فكرية ، قليلة بالنسبة إلىٰ جنوب الهند ، والحق أن سلطان رجال الدين في الشمال ضئيل بالنسبة إلىٰ الجنوب ، فإنهم يحصلون علىٰ الأموال بحكم القانون وقوة اليد ، ويستخدمون في ذلك كل طريقة ممكنة ، هؤلاء الزعماء الروحيون ورجال الدين ، يتجولون في مدن خاصة ، ويطالبون بهذا المبلغ المقرر لهم المعترف به عند الجميع .

إن الأوقاف التي تُحبس علىٰ الأمور الخيرية ، هي التي تَدِرُّ علىٰ المؤسسات الدينية في جنوب الهند ، وتقوم بنفقاتها ، وبكفالة النسَّاك والعبَّاد المقيمين فيها ، أما في شمال الهند ، فلا يوجد فيه هذا النظام بهذا الشكل الواسع ، والعناية الفائقة .

وكان هناك مبدأ خاص ، وهو ألا يتصدق الإنسان بكل ما يملك فيصبح عائلاً فقيراً ، وألا تتجاوز صدقة البقرة ألف بقرة ، وكانت هناك آداب وأحكام لأنواع أخرىٰ من الصدقة ، وألا يقبل أحد تلك الصدقة التي رفضها البرهمي ، وألا يتصدق في نفس اليوم الذي قبض فيه ، أما مستحقو الصدقات فقد جرىٰ تصنيفهم بحسب استحقاقهم ، منهم من يحرم دفع الصدقات إليه ، ويأثم فاعله ، وكان الواجب علىٰ كل هندكي ينتمي إلىٰ أصل شريف أن يهب كل ماله ومتاعه للبراهمة إذا قضىٰ مدة معينة من حياته العائلية ، ورزق ولداً يبقىٰ به نسله ، وأن يغادر مسكنه ومأواه ويتوجه إلىٰ الغابات ويعيش فيها عيشة VANAPRASTHA ثم يكون ناسكاً يجمع قوته وطعامه بالتكفف ، والوقوف علىٰ الباب ، هؤلاء

النسّاك لا يجوز لهم أن يملكوا شيئاً ، إنهم يحملون كشكولاً من نارجيل ، وكوباً من ماء ، وعصاً ، وسبحة طويلة في العنق ، وقد نجد من أفراد الطبقة المثقفة في العصر الحديث ، رجالاً وسَّع الله لهم في الرزق ، واتسعت لهم الدنيا ، قد رفضوا أسباب الحياة وزهدوا فيها ، ووهبوا حياتهم الأخيرة للفقر والمراقبة الدينية .

وهناك نوع آخر قديم من الصدقة ، هو تقديم المنح والعطايا لمستشفيات الحيوانات ، إن هذه المؤسسات والمستشفيات قديمة جداً ، في بعض الأماكن ، يعنىٰ فيها بالأبقار المريضة الضعيفة الهزيلة ، وتجد فيها العلف ، والماء ، والمأوىٰ ، وذلك شيء يتبرع له الصالحون بكل سخاء ، ويتبرع له المؤمنون المتحمسون يومياً ، وأعتقد أن مقدار هذا النوع من الصدقة كثير جداً في هذه البلاد[١] .

إن هذا الاقتباس يدلُّ قارىء الكتاب علىٰ أن البراهمة كانوا هم المحور الوحيد الذي يدور حوله هذا النظام الكبير للصدقات ، والذي يمتد علىٰ حقبة طويلة في التاريخ ، ورقعة كبيرة من الأرض ، ويردف البراهمة النسّاك ، وهكذا نشأت في المجتمع الهندوكي ـ من غير شعور وإدراك ـ طبقة بقيت عالة في كل شيء علىٰ الصدقات والإعانات ، وعاشت غنية بالاستجداء والتكفف ، أما ما جرَّ ذلك من قبائح خلقية ، واستغلال وانتهازية ، وتواكل وكسل ، وبطالة ، وإخلاد إلىٰ الراحة ، فهو شيء طبيعي لا يعسر فهمه أو تقديره علىٰ الوجه الصحيح .

إن حياة التسوُّل هذه لم تكن (ولو قيل أنها من خصائص عصر التدهور) محمودة في هذا المجتمع فحسب ، بل كانت لازمة لها ، وواجبة لتزكية النفس ، ولذلك اعتبروا الاستجداء والتكفف وسيلة فذّة

---

(١) Encyclopadia of Religions and Ethics Vol 1.

للسمو الروحي ، وصفاء النفس ، وأصبح من واجبات الحياة اليومية لبعض الطبقات ، هذه الطبقة من النسَّاك المتكففين (بهبونحي) توجد في البلاد التي أغلبيتها من البوذيين ، وفي بورما خاصة تجلب هذه الظاهرة أنظار الأجانب[1] ، وقد أحدث عددهم المتزايد في هذه البلاد ، وبطالة جزء كبير من المواطنين بطالة تامة ، وأوضاعهم الخلقية والاجتماعية مشكلات وعقداً في حياة البلاد .

وفي جانب آخر اختص أكبر جزء من هذه الصدقات والعطايا بالبقرة فحسب ، من أجل تقديسها ، وعقيدة التناسخ التي لم تزل شعار الديانات الهندكية ، وأنفقت عليها مبالغ باهظة بخست حق ذوي الحاجة من بني آدم ، وأفراد الأسرة البشرية التي كرَّمها الله .

ويبدو لنا أنَّ هذا النظام وما فيه من التعاليم الدينية ، والتوجيهات ، ينقصه ذلك التنظيم والتحديد ، والضبط الذي تتسم به الديانات السامية كلها بوجه التقريب ، فنجد في هذا النظام حرية كاملة في الاختيار ، ومرونة مفرطة للأوضاع ، وخضوعاً زائداً للملابسات الزمنية والمحلية ، جعله مختلفاً عن الآخر باختلاف البيئات والأقاليم ، فكأنها أجزاء متناثرة لديانات مختلفة متنافرة .

الصدقات في اليهودية :

يقول العلامة السيد سليمان الندوي ، رحمه الله ، في كتابه المشهور سيرة النبي (المجلد الخامس) تحت عنوان «الزكاة في الأديان الماضية» :

«الزكاة أيضاً من العبادات التي فرضت في سائر الأديان السماوية ،

---

(١) سافر مؤلف الكتاب في عام ١٩٦٠ م إلىٰ (بورما) ، وزار (رنجون) و(ماندلي) وبعض الأماكن التاريخية المشهورة ، ورأىٰ هذا النوع من الناس عن كثب ، وشاهد حياتهم اليومية ، واطلع علىٰ مناظر من التسول لا ينساها .

ولكن أتباع هذه الأديان تناسوا هذه الفريضة ، حتىٰ لم يبقَ لها اسم ولا رسم في قائمة الأحكام والتعاليم الدينية لهذه الأديان ، مع أن القرآن يعلن بصراحة ، وبتصديق الصحف السماوية أن الزكاة كانت جزءاً لازماً لهذه الأديان مثل الصلاة تماماً ، فالميثاق الذي أخذ من بني إسرائيل احتوىٰ علىٰ الصلاة والزكاة معاً. يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1] ويقول في موضع آخر:

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[2] ويذكر إسماعيل عليه السلام ، فيقول:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[3] ويقول علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[4].

إنّ التوراة تدلُّنا علىٰ أن عُشر محصول الأرض والأنعام كان واجباً علىٰ بني إسرائيل ، ونصف مثقال من الدينار لمن كان في عشرين من عمره ، أو فوق العشرين غنياً كان أم فقيراً. جاء في الخروج: «كل من اجتاز إلىٰ المحدودين من ابن عشرين سنة ، فصاعداً ، يعطي تقدمة للرب ، الغني لا يكثر ، والفقير لا يقلل عن نصف الشاقل ، حين تعطون تقدمة الرب للتكفير عن نفوسكم» (الخروج ٣٠ ـ ١٤ ـ ١٥) وكانوا يتركون بعض السنابل في المزارع والحقول عند الحصاد ، وبعض الثمار في الأشجار ، فكان ذلك زكاة يؤدونها بعد كل ثلاث سنوات ، وكان هذا المال يدفع إلىٰ

---

(١) سورة البقرة: ٤٣.
(٢) سورة المائدة: ١٢.
(٣) سورة مريم: ٥٤ ـ ٥٥.
(٤) سورة مريم: ٣١.

بيت مال القدس ، ينال واحداً من الستين منه رجال الدِّين ، أما العشر ، فكان يناله اللاويون من آل هارون ، وكان يوقف عُشره لضيافة الوافدين والحجاج ، وينفق علىٰ إطعام عامة المسافرين والفقراء ، والأيامىٰ واليتامىٰ يومياً»(١) .

أما الأموال التي كانت تجبىٰ بزكاة نصف مثقال ، فكانت تدفع إلىٰ خيمة الاجتماع (أو مسجد القدس) ، فكانت تنفق في شراء أواني المذبح والآلة» (الخروج ٣٠)(٢) .

إن اليهودية (التي قامت علىٰ أساس التعاليم النبوية علىٰ كل حال ، والتي عاشت تحت ظلال النبوة أكثر من جميع الأديان التي نشأت في النسل الآري) أقرب إلىٰ تعاليم الإسلام ، وقيمه ومفاهيمه ، وأحكامه؛ بالنسبة لهذه الأديان بطبيعة الحال ، إن اليهودية لم تنظر إلىٰ حياة البطالة نظرة إعجاب واستحسان ، ولم تشجعها شأن الديانة الهندوكية التي مضىٰ ذكرها ، بل إنها بالعكس حاولت إيجاد الثقة بالنفس والاعتزاز في الفقراء والمساكين ، يقول بنسيرا(BANSIRA) «إن العيش في كوخه المصنوع من قصب أفضل كثيراً من الراحة والهناء في بيت غيره ، التجوُّل والتسوُّل آفة كبيرة» (SIRA - 22 - 24 - 29) ، وأما ما قيل في فضائل الصدقة ، ومنافعها العاجلة والآجلة ، فهو أقرب إلىٰ تعاليم الإسلام ، إنَّ التنوع في الصدقات والتوسع في نطاقها ، وشمولها لكل صغير وكبير يجلب الراحة للآخرين ، ويدخل السرور علىٰ القلوب يشبه الأحكام الإسلامية وتعاليم القرآن والسنّة ، فقد نرىٰ هناك رعاية للعواطف الإنسانية ، والمشاعر المرهفة اللطيفة ، تجلَّت في أروع صورها ومظاهرها ، ووصلت إلىٰ

---

(١) Charity Incyclopedia Britanica Edition H.

(٢) سيرة النبي ج٥ ـ ص١٤٨ ـ ١٤٩ .

قمتها في النظام الإسلامي جاء في (ABOTH - 1) «إن الزكاة وا لصدقة ركنٌ من أركان المجتمع الإنساني ، وجاء فيه : «إنَّ الصدقة لا تختص بالأغنياء وحدهم بل إنَّ الفقير يتقرَّب بها ، كما يتقرب بها الغني» .

إنَّ التعاليم اليهودية تفرض علىٰ اليهودي أن يتصدق بعشر دخله ، ولكنها لا تسمح له بالخمس ، لئلا يقع في ضائقة ، ويحتاج بنفسه إلىٰ الصدقات ، (KETHUBOTH - 50A) وقد سمح بتدخل الحكومة أيضاً في تحصيل الصدقات ، إذا دعت إليه الحاجة : جاء في - KETHUBOTH 19B إذا رفض البخلاء الصدقة أو لم يتصدَّقوا كما ينبغي ، فعلىٰ الحكام أن يرغموهم علىٰ ذلك ، أو يضربوا العصاة إذا اقتضت الضرورة حتى يذعنوا للأمر» . وهكذا أعطت اليهودية أسرة المتصدق حقاً كاملاً في الاستفادة من الصدقات ، واعتبرتها أحق بها دون غيرها وهو شيء يشبه الحديث النبوي : «ابدأ بمن تعول»[١] . جاء في BABAMEZIA : «أسرة المتصدق أولىٰ بالاستفادة من هذه الصدقات ، والوالدان أحق بها ، ثم الأخوة والأخوات ، ويليها فقراء القرية ومساكينها ، ويأتي بعدها دور فقراء قرىٰ أخرىٰ» وذلك يشبه التعليم الإسلامي الوارد في حديث مشهور : «تؤخذ من أغنيائهم ، وتردّ علىٰ فقرائهم» ، ويمكن أن تقدم الصدقات إلىٰ اليهودي وغير اليهودي سواء ، (GILTIN 61A) أما فك الرقاب بالفدية فهو أفضل وأسمىٰ من غيره من الصدقات والمبرات BABA BATHRA 88 ويجب أن نلاحظ كرامة الشخص الذي ينال الصدقة ، (SHABBUTH 63A) والصدقة عابساً أو كارهاً تحبط العمل BABA BATHRA - 98 .

وجاء في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» ما يلي : «كان هناك نظام

---

(١) الصحيح للبخاري .

خاص مستقل لإعانات الفقراء ، وأهل الحاجة في عهد التلمود ، وهو يتلخص في تقديم وجبات الطعام يومياً ، والنقود أسبوعياً ، وكان العهدة في هذا الأمر علىٰ شخصين أو ثلاثة من الثقات الأمناء ، فكانوا يجمعون التبرعات من الجماعة ، كما كانت جماعة أخرىٰ مؤلفة من ثلاثة أفراد تقع عليها مسؤولية الفحص في أمر السائلين والفقراء BABA AATHRA 8A وكان يجب عليهم أن يكملوا مهمتهم ، ويؤدوا واجبهم مهتمين بعواطف الفقراء والمساكين ومشاعرهم KETHUBOTH 6B وقد استمر هذا التقسيم إلىٰ زمن طويل 3 - 9 MIAMLOCVIT.

وكان اليهود المتدينون متمسكين بأداء العشر الذي قررته شريعتهم باهتمام وانتظام ، وكانت عادة التسوُّل شاذة في المجتمع اليهودي في القرون المتوسطة ولكنها نالت رواجاً كبيراً في القرن السابع عشر ، وانتشر السائلون المحترفون في كل طائفة يهودية ، وبدأ منظرهم كريهاً ، جديراً بالاحتقار ، نحن نجد صورة رائعة لمثل هذا الاستجداء الوقح في كتاب ملك الشحاذين KING OF SHINOWET لمؤلفه (TANGWILL) ولكن التنظيم اليهودي الجديد للمبرة الاجتماعية ، قضىٰ علىٰ هذه الحرفة أخيراً.

ورغم هذا التشابه الجزئي بالتعاليم الإسلامية في هذا الموضوع ، الذي قدمنا بعض أمثلته في السطور الماضية ، نجد هناك فرقاً كبيراً بينه وبين نظام الزكاة والصدقات في الإسلام ، وهو أنه توجد في اليهودية فرقة خاصة لأخذ الزكاة ، وتدبيرها وتوزيعها في هذه الفرقة ، وهي فرقة تنتمي إلىٰ سلالة خاصة ، ونسب خاص ، وهم يرثون هذا المنصب أباً عن جد ، يقول الكاتب اليهودي GFMOORE في كتابه (JUDAIESM) : «إن المبدأ الأساسي لهذا التنظيم (جمع الضرائب للأمور الدينية) كما جاء في القانون الأساسي لليهود ، هو أن يقدم عشر الإنتاج الزراعي إلىٰ «اللاويين» ويقدم

هؤلاء عُشر هذا العشر إلىٰ رجال الدِّين».

ويذكر الكاتب ذلك الشره للمال، والاستحصال بالقوة، وهضم الحقوق، الذي اتسم به هذا النظام، فيقول:

«كان علماء اليهود يجمعون هذا العشر عن طريق عصابات قوية، يوفدونها إلىٰ الأراضي الزراعية نفسها، فتأخذه قهراً وبطشاً، وكانت تضرب الأحبار الصغار الضعاف، الذين كانوا يريدون أن يستأثروا به بحق».

أما نشاط اليهود في أداء هذه الفريضة، وتحمسهم لها، وشعورهم بالمسؤولية نحوها، وتطبيقهم علىٰ المجتمع في مختلف أدوار التاريخ، فيقول عنه المؤلف:

«لعلَّ أداء العشر في اليهود تُرك إلىٰ ضمير صاحب الضريبة، مع أن التجربة تدل علىٰ أن الاعتماد علىٰ الضمير في هذه الناحية لم يأتِ بخير، حتىٰ أن هذا النظام الذي يقوم علىٰ التطوع، أخفق في منطقة صغيرة مثل جوديا(JUDEA) التي كانت تحت حكم إيران، فقرروا إرسال زعيم ديني مع اللاويين لجمع الأموال (NEH - 7 -38F) ولكن هذه الحيلة أيضاً باءت بالفشل، فقد جاء في (NEH - 13 - 10): إن أداء العشر تعطل بتاتاً، حتىٰ اضطر اللاويين إلىٰ ترك معبدهم، وتوجهوا إلىٰ مكان آخر ليحرثوا أرضهم بأنفسهم وينالوا قوتهم»، (MAL - 3 -8F).

ويقول مستطرداً:

«ولا عجب في ذلك فقد كان الفلاح لا يعتمد عليه مطلقاً في أداء الضرائب الدينية، حتىٰ المتدينين منهم كانوا يؤثرون تقاليد الآباء والأجداد وكانوا يحسبون أن العادات القديمة أولىٰ وأفضل من فتاوىٰ المدارس، والإيضاحات الدينية، ويقول:

«وقد أزعجت هذه الغفلة السائدة العامة قادة الدِّين ، وأقلقتهم ، ولكن جميع المساعي والمحاولات لتنفيذ هذه الأحكام الدينية ، باءت بالإخفاق في صورة عامة ، ولم يبقَ هذا الانحراف فردياً ، بل أصبح جماعياً ، فقد أصبح ابتزاز حق الله في أموال العبيد ، وانتهابه جناية قومية ، ذاقت الأمة وبال أمرها ، فقد كان من المقرر ، أن اليهود لا يستردون ما فقدوه من فضل الله وبركاته إلا بالإصلاح الشامل ، واستعادة حياة الطاعة والانقياد».

MAL 3 - 8 - 12 MIDRASH - TEBELHORON ISLAM 51 2 Co, 8 - 9.

ويقول:

«ولا شك أن علماء الدِّين أنذروا قومهم ونصحوهم بأن هذا الخداع والمكر والانحراف عن أداء العشر إثم كبير ، ولكنهم لم ينجحوا في إصلاح القوم».

بعد هذه الشهادات المحليّة الواضحة لعلماء اليهود ومؤرخيهم ، ومع العلم بأن اليهود ظلوا في جميع أدوار حياتهم شعباً مغرماً بالثراء الفاحش والاكتناز ، استخدم جميع الوسائل وكل ذكائه ، لتنمية الأموال وتكثيرها ، وكان له الزعامة في عمل الربا ، وصناعة الصِّرافة والنقود ، والبراعة في الأعمال التجارية في كل عصر ومصر ، يحلو لنا أن نتلو تلك الآيات الكريمة المعجزة التي ذُكر فيها بخلهم وحرصهم الزائد ، وتماطلهم في أداء الحقوق ، وميلهم إلىٰ التأويل والتعليل ، وعسىٰ ولعل ، وكلماتهم الوقحة الجريئة في مثل هذه المناسبات وعند أداء الواجبات:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟

وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[١] .

وقد قالوا حينما طلب منهم الإيثار ، والسخاء ، والبذل في سبيل الله في وقاحة وجرأة «يد الله مغلولة» :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾[٢] .

ويبدو لنا ـ في ضوء القرآن ـ أن يهود الحجاز الذين كانوا مسيطرين علىٰ اقتصاد البلاد محتكرين لتجارتها ، قصروا دائماً في الصدقات ، والمبرات ، وأداء الزكاة ، يقول القرآن : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[٣] .

الصدقات في الديانة المسيحية :

وبما أن المسيح عليه السلام لم يأتِ لأتباعه بقانون عام شامل ، وبشريعة تضارع شريعة موسىٰ عليه السلام ، بل إن عمله ظل مقصوراً[٤]

---

(١) سورة آل عمران : ١٨١ . جاء في تفسير ابن كثير في تفسير هذه الآية :
«قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ الآية ، رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم» .
(تفسير ابن كثير الجزء الثاني ص١٦٨ طبع بيروت) .

(٢) سورة المائدة : ٦٤ .

(٣) سورة البقرة : ٨٣ .

(٤) يقول الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ بن مريم عليه السلام : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ =

علىٰ إصلاحات وتغييرات شتىٰ ، وإن دعوته الأساسية كانت تهدف إلىٰ بعث روح صادقة للعبودية والإخلاص ، وإيقاظ عواطف الحب الإلهي والعطف علىٰ الإنسان ، وإحلال الحقيقة محل الصور والأشكال ، وكان ذلك إزاء التقليد الأعمىٰ للعادات والأشكال التي أسرف اليهود في التمسك بها ، والعضّ عليها بالنواجذ ، فلم يقدم إلىٰ أمته نظاماً مستقلاً للصدقات ـ شأنه في الأركان الأخرىٰ للدين وشعب الحياة ـ يتضمن تعليمات وتشريعات دقيقة حيال الشريعة اليهودية ، وأحكام التوراة ، إنه حاول فقط إيقاظ الشعور بالحقيقة والروح ، والإخلاص والحق ، والحب الإلهي والأخوة الإنسانية في النظام السابق ، وذلك هو السبب في عدم وجود نظام واضح ، وقانون منظم للصدقات في ضوء توجيهات الكنيسة ، وكل ما يوجد في هذا الموضوع لا يعدو توجيهات خلقية عامة ، ومواعظ دينية.

ما هي مكانة الصدقات في العهد الجديد[1] وكيف كانت تعاليم سيدنا عيسىٰ عليه السلام الأساسية حولها ، وتوجيهاته ، وعواطفه الشخصية نحوها؟ وإلىٰ أيّ حدٍّ بقيت هذه الفكرة في عهد الكنيسة بعده ، وما هو مدىٰ تعامل العالم المسيحي بهذه الفكرة؟ يتحدث كاتب مسيحي وهو يستعرض هذا الموضوع بإيجاز في موسوعة الديانات والأخلاق ، يقول:

«لقد ذكر السيد المسيح واجب الصدقات في خطابه علىٰ الجبل ، وفي مناسبات أخرىٰ بنفس التأكيد والإخلاص الذي كان يتظاهر به علماء اليهود قبله ، فتجب الصدقة علىٰ أتباعه ، ولكن يجب أن تكون هذه الصدقة نابعة من الإخلاص ، وبنيّة الخير فحسب ، إن كل مسيحي يريد أن يكتمل

= ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [سورة آل عمران: ٥٠].

(١) الإنجيل.

في ذاته كما كان «الأب» الذي هو في السماء مكتملاً في شخصيته ، ولا ينبغي أن تشوب نيّته شائبة من الرياء ، وطلب المدح ، والعلو الشخصي (MT - 6 - IFF)كما أن الموعظة التي توجد في إنجيل لوقا تنطوي علىٰ أحكام الصدقات هي أوضح من غيرها «أعطوا تُعطون ، أعطوا من يسألكم ، ومن أخذ متاعكم فلا تسترجعوه منه ، أحبُّوا أعداءكم ، وأقرضوهم ، ولا تؤيسوهم ، وستجزون جزاءً كبيراً على ما تفعلون ، حتىٰ تكونوا أبناء تلك الذات العالية الرفيعة ، لأنها ترحم الجميع وتعطف علىٰ الكفور المعربد أيضاً» (LUKE - 6 - 30- 35) .

لقد عمل السيد المسيح بما علَّم الناس (بل كان عمله أكثر من تعليمه) إنه بذل قسطاً كبيراً من أوقاته بعد النبوة في إزالة متاعب الناس ، وخدمة الجماهير ، وإبراء الذين كان الشيطان قد مسهم ، لأن الله كان معه - AC) .1038)

ولكن لا ينبغي لنا أن نعتقد أن المسيح كان ضعيفاً في انتصاره للإنسانية ، فقد قال: إنه ينبغي للإنسان أن يكون طالباً «لملكوت الله» وللحق قبل كل شيء ، أما الصفات الحميدة الأخرىٰ ، فإنها ستنشأ فيه بنفسها ، وقال: يجب أن يكون تفكير الإنسان (وهو يساعد الآخرين) في سلامة أرواحهم فوق تفكيره في سلامة أجسادهم ، فقد كان هو نفسه حينما يعالج الناس ، أو يساعدهم في أمورهم يفكر في مصلحة (الروح) الدائمة أكثر من مصالحهم المؤقتة ، كما أن هاهنا ناحية لا بدَّ من النظر فيها ، وهي أن السيد المسيح قد اعتبر أساس المساعدة والبرّ تلك العلاقة التي يتصل بها الإنسان بربّه ، فهذه هي العلاقة التي تجعل الناس إخواناً ، وعلىٰ هذا فبما أن الناس كلهم أعضاء أسرة واحدة في الحقيقة يتحتم عليهم أن يساعد بعضهم بعضاً علىٰ أساس كونهم عباد رب واحد .

وقد قال بولس: «وآزروا وتعاونوا فيما بينكم كالسيد العظيم ،

واعملوا بقانون سيدنا عيسىٰ عليه السلام» ، (GAL - 62) ولكن الذي لا غبار عليه أنه ما دامت علاقة السخاء والصدقة بهذه الغايات السامية ، والنية الخالصة ، فلا مجال فيها للرياء والمباهاة.

ولننظر إلىٰ أي حدٍّ تأثر أتباع عيسىٰ عليه السلام وأنصاره الأولون بتعاليمه التي جاء بها وبالأسوة التي قدمها هو نفسه ، وقد برز نظام اشتراكي كنتيجة حتمية لنزع الروح في يوم (PENTA COST) أقامه الناس حسب رغباتهم ، وأنفق فيه أغنياء الجماعة جلَّ أموالهم ، أو ما يقارب الكل علىٰ سد حوائج جيرانهم الفقراء (45 - 44- 2- AC) ولم يبع كل الناس جميع أموالهم ، فالذين لم يكن عندهم مال فوق حوائجهم ظلوا ينفقونه على سدّ مطالبهم ، أما الذين كانت عندهم أموال تفضل عن حاجاتهم ومطالبهم باعوها كذلك ، أو أنفقوها في مصالح الجماعة ، (35 - 34 - 4) ولا شك أن صدقة عظيمة كهذه لا تدوم إلىٰ أمد بعيد ويبدو من أمثلة ANANIA وSAPHIRA أن دافع الخدمة المطلوب كان مصطنعاً متكلفاً في أكثر الأحيان ، ولعل جميع تلك المفاسد التي تنشأ بمساعدة الكسالىٰ والعجزة من الناس ظهرت في كنيسة القدس ، كما يبدو بتهديد بولس أن هذه المفاسد تعدَّت إلىٰ الكنائس الأخرىٰ كذلك (2TH - 3 -10 FF).

ولو أن صدقة العهد البدائي لم تدم علىٰ حالها السابق حينما فتر الحماس السابق في الناس ، غير أن الصدقة بقيت قائمة ، وظلت ميزة خاصة لجميع الكنائس المسيحية ، بل بقيت ميزة الكنيسة ، ولما قدم المسيحيون الجدد أيمانهم لبولس للحلف والوحدة ، أنفقوا بوجه خاص علىٰ مساعدة الفقراء (سواء كانوا من غير المسيحيين) إن هذا المبدأ هو الذي كان بولس يحرص علىٰ إبقائه والاحتفاظ به ، (10- 2 - GAL) وبالنظر إلىٰ هذه الغاية ، وانتشار الاتحاد بين كنائس اليهود وغير

المسيحيين ، قام بولس بتنظيم كنائس مقدونية(ACHAI) بحيطة بالغة ، وجمعت تبرعات الصدقة فقام نفسه بإيصالها إلىٰ سدنة القدس ، وشاركه في هذا العمل بعض الممثلين من الكنائس الأخرىٰ (2Co, 8 - 9) .

أما ما أصدره بهذه المناسبة من الأمر بالتبرعات الأسبوعية ، فأصبح أساساً ـ فيما أظن ـ لذلك التبرع الأسبوعي الذي بقي في عدة كنائس بوجه عام ، ولا يزال باقياً في أكثر الكنائس في زمننا الحاضر ، ولا يقلّ حثّ الزعماء المسيحيين ـ عدا بولس ـ علىٰ التصدُّق والترحم علىٰ الفقراء ، فقد شنّع (السانت جيمس) بكلمات قوية علىٰ ذلك الظلم والتعدّي ، الذي يصبُّه الأغنياء علىٰ الفقراء (6- 6- 1- 2 - TA5) ولكنه صوَّر قانون الخدمات الدينية تصويراً مجملاً يقول :

«إن الديانة الأصيلة التي لا شية فيها في نظر الإله والأب ، هي تفقد أحوال الأيتام والأرامل ، والعطف عليهم ، والمشاركة في أحزانهم ، وتزكية النفس من غرور الفخر والمباهاة (27- 1)» .

وقد وجّه مؤلف «رسالة إلىٰ اليهود» وصية عملية إلىٰ مخاطبيه في آخر خطابه ، يقول :

«أحسنوا ، ولا تنسوا توزيع الصدقات ، فإن الله لا يرضىٰ بهذه الذبائح ، وقدم (السانت جوهن) فريضة الصدقة بغاية وضوح وجلاء ، إنه يعتبر دافع خدمة الإنسان نابعاً من عاطفة الحب لله ، يقول :

«الذي تتوفر لديه أسباب الراحة والمتعة ، ثم هو يهرب من مساعدة أخيه الفقير ، وهو يعلم مدىٰ احتياجه ، كيف يدوم فيه حب الله» .

وهكذا يتبيَّن لنا أن الصدقة ، ومساعدة الفقراء تعتبر واجباً أساسياً للحياة المسيحية ، في تعاليم السيد المسيح ، وأتباعه الأولين ، وأن علاقة هذا الواجب الأولىٰ بتلك الصلة ، التي يتصل بها الناس بالرب

تعالىٰ عن طريق السيد المسيح ، وأن النتيجة الحتمية للاعتراف بهذه الصلة هي الصدقة والحسنة»[١] .

دور الإسلام الإصلاحي :

وقام الإسلام بعدة إصلاحات جذرية ، كان لها الأثر الثوري الكبير ، في نظام الزكاة وفي أخلاق المجتمع .

إلغاء الاحتكار الديني والطبقي :

منها أنه ألغىٰ الاحتكار الديني ، والاحتكار العائلي ، الذي كان قد أساء إلىٰ هذه الطبقة المحتكرة في جانب ، فأفسد أخلاقها ، وحوَّلها إلىٰ طبقة مترهلة عاطلة تعيش علىٰ الصدقات ، وتترفَّه علىٰ أساس الأموال ، التي تأتيها عفواً ومجاناً ، ولا تشعر بحاجة إلىٰ الكدح والجهد ، والاكتساب بالطرق الطيّبة الكريمة ، وكان رزقها مضموناً مكفولاً بمجرد أنها من أولاد النبي فلانٍ ، أو من البيت الفلاني ، أو الأسرة الفلانية ، أو أنها تشغل المنصب الديني الفلاني بحكم الوراثة ، وإن لم تقم بحقوقه ومسؤوليته ، فنشأت بذلك طبقة محترفة ، تحتكر الدين وتستغل النسب وتتجرَّد عن كل فضيلة ، أو صفة من صفات الرجولة والمروءة ، والتعفُّف وعزَّة النفس .

وفي جانب آخر أساء إلىٰ الفقراء والمساكين ، وأصحاب الخصاصة المستحقين ، الذين كانت حقوقهم تُهضم ، لأن المتصدِّق كان يفضّل بطبيعة الحال أن تذهب هذه الصدقاتُ إلىٰ من يتشرَّف بمنصب ديني ، أو بدم نبوي ، وسلالة كريمة ، كما يشاهد ذلك عياناً في المجتمع الهندي ، فقد استولىٰ البراهمة ، وسدنة المعابد علىٰ الصدقات ، والنذور فلم

---

(١) Encyclopedia of Religion Ethics W.A.Spooner.

يَدعوا شيئاً لرجل الشعب الفقير الذي لا يعتز بالدم البرهمي المقدَّس ، أو بالسدانة والكهانة ، فحُرم في كثير من الأحيان ما يسدُّ فاقته ويقيم صلبه ، وكان فريسة إهمال الأغنياء ، وترف البراهمة والسدنة ، وضحية الوضع الديني التشريعي ، في الديانة الهندية الآريّة.

بالعكس من ذلك سدَّ رسول الله ﷺ باب هذه الاحتكار الديني والعائلي ، والظلم الاجتماعي إلىٰ آخر الأبد ، وحرَّم الزكاة علىٰ بني هاشم ـ الذين هم أسرة النبوة ، وأهل الفضل في تاريخ الإسلام ، والكفاح الديني ـ فقال في قوة وصراحة : «إن الصدقة لا تحلُّ لنا»[١] وكان يتورّع من أكل الصدقة كل التورع ، وقد رویٰ أبو هريرة رضي الله عنه : «أن رسول الله ﷺ كان إذا أتي بطعام ، سأل عنه ، فإن قيل هدية ، أكل منها ، وإن قيل صدقة ، لم يأكل منها ، وقال لأصحابه: كُلوا»[٢] ويبالغ في منع أهل بيته من أكلها ، حتىٰ لا يتعوَّدوا ذلك ، ولا يحتجَّ به المسلمون ، فيفضِّلوهم ويحرموا غيرهم ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: «أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فوضعها في فيه ، فقال ﷺ : كخ كخ ، ارم بها ، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»[٣].

وقد كان هذا حكماً باقياً في حياته وبعد حياته ﷺ ، فقد روي عنه مرفوعاً ، أنّه قال: «إن هذه الصدقات ، إنّما هي أوساخ الناس ، وأنَّها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد»[٤] وقد جرىٰ العمل بذلك في الفقه الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، وبقي باب الزكاة والصدقات المفروضة مفتوحاً علىٰ مصراعيه لعامَّة المسلمين وفقرائهم ومستحقيهم ، لا تُهضم

---

(١) رواه أصحاب السنن عن أبي رافع عن النبي ﷺ.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

حقوقهم ، ولا يُغلَبون فيها علىٰ أمرهم ونصيبهم[١] .

وقد كانت هذه سيرته ﷺ في أهل بيته وأسرته ، فكان لهم النصيب الأوفر في المغارم ، والنصيب الأقل في المغانم ، فلمّا حرّم الرِّبا ، بدأ بأسرته والأقربين إليه ، ولمّا وضع دماء الجاهلية ، بدأ بدم أحد أبناء أسرته ، فممّا جاء في خطبته في حجة الوداع ، قوله: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ، وكان مسترضعاً في بني سعد ، فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأوّل رباً أضع من ربانا ، ربا عبَّاس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله. . . إلخ[٢] . ولمّا فُرضت الزكاة في الإسلام ، وكان باباً واسعاً ، باقياً مع الإسلام للرزق الواسع ، عمد إلىٰ بني هاشم أهل بيته وأسرته فحرمهم الانتفاع به والتعيُّش عليه ، وتلك طبيعة الأنبياء والرسل ، وسيرة من يكرمهم الله بالرسالة والنبوة ، كان لمحمد ﷺ فيها المقام المحمود.

إسقاط الوسائط في أداء الزكاة:

ومنها : أنه أسقط الوسائط بين مؤدِّي الزكاة وبين مستحقيها الوسائط الدائمة التي كان قد فرضها ممثلو الشريعة الموسوية ، وهم الأحبار والرهبان ، فكانت الفريضة لا تسقط عن صاحبها إلاَّ إذا تسلَّمها الكهان أو الأحبار ، أو سدنة البيت المقدس ، فأنشأ ذلك في هذه الطبقة حبَّ المال الفاحش والنهامة ، وأساؤوا التصرُّف فيها أحياناً كثيرة ، واستولوا عليها ، وحرموا ذوي الحاجة المستحقِّين ، ولذلك قال القرآن: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ

---

(١) انظر البحث في ذلك في كتاب «أحكام القرآن» للجصاص ، وللقاضي ابن العربي.

(٢) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

﴿ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١] فقد أنشأت هذه الوساطة وهذا الاحتكار فيهم الشره والاستيلاء علىٰ أموال الناس ، والاكتناز ، والثراء الفاحش.

وقد أسقط الله هذه الوساطة الكهنوتية ، كما أسقطها في جميع العبادات ، وإقامة الفرائض الدينية ، فكل مسلم يستطيع أن يصلي بنفسه ، ويؤدِّي زكاته بنفسه ، ويصوم ويحجّ بنفسه ، لا يحتاج إلاَّ إلىٰ معرفة أحكامها ، المعرفة التي لا بدَّ منها في أداء هذه الأركان ، والنيّة ، وتحقيق الشروط التي شرطت لها ، فإذا توفرت هذه الشروط لم يكن في حاجة إلىٰ وسيط ، وإلىٰ طبقة دينيّة رسمية.

تمليك المستحقين ، وتحكيمهم فيما يأخذونه :

ومنها : أن بعض الأجزاء من أموال الزكاة ، كما قدَّمنا ، كانت مقيّدة بقيد ، لا يتصرَّف فيها من يأخذها تصرفاً مطلقاً ، فقد كان جزءاً مخصَّصاً لحجاج بيت المقدس ، ولكنه كان مختصاً بضيافتهم وطعامهم ، ولكن الشريعة الإسلامية ، ملَّكت الفقراء والمساكين ، ومن يستحق الزكاة هذه الأموال التي يأخذونها ، فيتصرفون فيها ، كما يشاؤون ، وينفقونها في حاجاتهم ورغباتهم ومصالحهم ، وذلك ما تفيده اللام في قوله تعالىٰ : ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾[٢].

هذه الإصلاحات والتحسينات ، هي التي جعلت نظام الزكاة الإسلامي ، أرقَّ وأدقَّ ، وأوفىٰ ، وأرقىٰ نظام تعبديٍّ واجتماعيٍّ ،

---

(١) سورة التوبة : ٣٤.

(٢) سورة التوبة : ٦٠. انظر البحث في هذه اللام في كتب «أحكام القرآن» وفي كتب أصول الفقه للمذاهب الأربعة.

وأكفل بالمصالح الفردية والاجتماعية»[١].

مكانة الزكاة في الإسلام، ووضعها الشرعي الأصيل:

قُرنت الزكاة بالصلاة في اثنين وثمانين[٢] موضعاً من القرآن، وتكرَّر في القرآن: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٣]، وفي وصف المسلمين، ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[٤] وقد عدّها رسول الله ﷺ من أركان الإسلام وأسسه، فقال: «بُني الإسلام علىٰ خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»[٥]. وسُئل ما الإسلام؟! فقال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»[٦]. وفي حديث ضمام بن ثعلبة، أنه قال له: «أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا، فتقسمها علىٰ فقرائنا؟، قال: اللّهم نعم»[٧]. والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصىٰ، وقد بلغت حدَّ التواتر المعنوي، وانعقد علىٰ كونها قرينة الصلاة الإجماع، وتعاملت الأمة بها جيلاً بعد جيل.

وقد جعل الله إقامة الصلاة وأداء الزكاة علامةً لصحة الإسلام

---

(١) استفدنا في هذا البحث من المجلد الخامس «السيرة النبوية» لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله.

(٢) حسب إحصاء العالم الجليل الأمير قطب الدين خان الدهلوي (م ١٢٨٩ هـ) في ترجمة مشكاة المصابيح وشرحها.

(٣) سورة البقرة: ٤٣ (وغير ذلك).

(٤) سورة المائدة: ٥٥.

(٥) أخرجه مسلم والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) للشيخين عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه.

وأحكامه ، ودخول الرجل في السلم مع الله والإخاء مع المسلمين ، فقال: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١] وقال: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢] وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله» . وأخرج البخاري ، ومسلم ، والنسائي من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله ، ويؤمنوا بي وبما جئتُ به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقها ، وحسابهم علىٰ الله» .

الأصل في الزكاة ، أن تكون بنظام:

وطبيعة الزكاة ، ووصفها الشرعي الأصيل أن تدفع إلىٰ بيت مال المسلمين ، وإلىٰ من يلي أمرهم من الخلفاء والأمراء[٣] ، كما أن طبيعة

---

(١) سورة التوبة: ٥ .

(٢) سورة التوبة: ١١ .

(٣) والمسلمون مكلفون شرعاً بإقامة نظام الخلافة والإمارة ، آثمون بالتهاون فيها والإخلال بها ، كما هو واضح من دراسة كتب الحديث والفقه ، وكما هو ظاهر من فهم روح الإسلام ومقاصده ، وتفيد في هذا الموضوع مطالعة كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، وكتاب «منصب الإمامة» لحفيده العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد ، وكان المسلمون الأولون يستعظمون أن يقضوا أقصر مدة من الزمان من غير خلافة وخليفة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يذكروا بدء السنة في هذه الفترة بقولهم: وحلت سنة كذا ، والمسلمون من غير خليفة ، فكيف لو شهدوا هذه الحقبة الطويلة التي تمر من غير تفكير ، أو توجع لهذا الوضع الشاذ؟!

الصلاة ، ووضعها الشرعي الأصيل أن تؤدىٰ في جماعة .

تمسك أبي بكر الصديق بهذا الأصل ، ومحافظته عليه :

وهذا هو الأصل الشرعي ، الذي فارق عليه رسول الله ﷺ الدنيا ولقي ربه ، وترك المسلمين عليه ، فتمسَّك به خليفته وأمينه في دينه وأمته ، وأفقه الناس لهذا الدين وأسراره ، ومقاصده ، وأغيرهم عليه ، أبو بكر الصديق ، فجدَّ وألحَّ علىٰ أن يقاتل مَن منع الزكاة عن بيت المال .

وقد روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه هذا الخبر مفصلاً ، وما جرىٰ بين أبي بكر وعمر ـ وهما شيخا الإسلام وركناه ـ من الحديث ، وكيف اختلفت وجهة نظرهما حتى وافق عمر ، وأقرّ أبا بكر علىٰ ذلك ، واعترف بعمق نظره ، ودقة فهمه ، وغيرته علىٰ هذا الدين ، وإلىٰ القارىء هذه القصة بطولها ، كما رواها أصحاب الصحاح[١] :

«عن أبي هريرة رضي الله عنه ، لما توفي رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر ، وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلاّ الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه ، إلاّ بحقه ، وحسابه علىٰ الله تعالىٰ؟ فقال : والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حقُّ المال ، والله لو منعوني عناقاً[٢] ، كانوا يؤدُّونها إلىٰ رسول الله ﷺ ، لقاتلتهم علىٰ منعها ، قال عمر : فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق .

---

(١) رواها الجماعة إلا ابن ماجه .

(٢) في لفظ مسلم ، والترمذي ، وأبي داود : «لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه ، بدل العناق» .

لماذا وقف أبو بكر هذا الموقف من مانعي الزكاة؟ :

وقد بحث العلامة الخطّابي[١] ، في أصناف أهل الردَّة ، والبغي ، وحقيقة منعهم للزكاة ، ومراتبه ، وموقف أبي بكر منهم ، ليستطيع به القارىء أن يستعرض الوضع التاريخي في تلك الفترة وأسباب اختلاف فهم الصحابة وحكمهم عليه ، يحسُن أن ننقله هنا باختصار وتلخيص ، يقول رحمه الله :

«أهل الردَّة كانوا صنفين ، صنفاً ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة وعدلوا إلىٰ الكفر ، وهم الذين عناهم أبو هريرة رضي الله عنه ، وهذه الفرقة طائفتان ، إحداهما أصحاب مسيلمة الكذاب من بني حنيفة ، وغيرهم الذين صدقوه علىٰ دعواه في النبوة ، وأصحاب الأسود العنسي ، ومن استجاب له من أهل اليمن ، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدَّعية النبوة لغيره ، فقاتلهم أبو بكر ، حتىٰ قتل مسيلمة باليمامة ، والعنسي بصنعاء ، وانفضت جموعهم ، وهلك أكثرهم. والطائفة الأخرىٰ ارتدوا عن الدين ، فأنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما من أمور الدين ، وعادوا إلىٰ ما كانوا عليه في الجاهلية ، فلم يكن يسجد لله في الأرض إلاَّ في ثلاثة مساجد : مسجد مكة ، ومسجد المدينة ، ومسجد عبد القيس.

والصنف الآخر ، هم الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة ، فأنكروا وجوبها ووجوب أدائها إلىٰ الإمام ، وهؤلاء علىٰ الحقيقة أهل البغي ، وإنما لم يُدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمن خصوصاً ، لدخولهم في غمار أهل الردَّة ، وأضيف الاسم في الجملة إلىٰ أهل الردَّة ، إذ كانت أعظم الأمرين وأهمَّهما ، وأرخ مبتدأ قتال أهل البغي من زمن علي بن

---

(١) نقله من كتاب «نيل الأوطار» للعلامة الشوكاني ج٤ ـ ص١١٩ ـ ١٢٠ .

أبي طالب عليه السلام ، إذ كانوا منفردين في زمانه لم يخلطوا بأهل الشرك.

وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة ، من كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها إلاَّ أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي ، وقبضوا علىٰ أيديهم في ذلك كبني يربوع ، فإنهم قد كانوا جمعوا صدقاتهم ، وأرادوا أن يبعثوا بها إلىٰ أبي بكر ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك ، وفرَّقها فيهم ، وفي أمر هؤلاء ، عرض الخلاف ، ووقعت الشبهة لعمر بن الخطاب ، فراجع أبا بكر وناظره ، واحتج عليه بقول النبي ﷺ : أُمرت أن أقاتل الناس. . . الحديث» وكان هذا من عمر تعلقاً بظاهر الكلام ، قبل أن ينظر في آخره ، ويتأمل شرائطه ، فقال له أبو بكر: إنَّ الزكاة حق المال ، يريد أن القضية قد تضمنت عصمة دم ومال متعلقة بأطراف شرائطها ، والحكم المعلق بشرطين ، لا يحصل بأحدهما والآخر معدوم ، ثم قايسه بالصلاة ، وردَّ الزكاة إليها ، فكان في ذلك من قوله دليل علىٰ أن قتال الممتنع من الصلاة كان إجماعاً من الصحابة ، ولذلك ردَّ المختلف فيه إلىٰ المتفق عليه.

فلما استقر عند عمر صحة رأي أبي بكر ، وبان له صوابه ، تابعه علىٰ قتال القوم ، وهو معنىٰ قوله ، فعرفت أنه الحق ، يشير إلىٰ انشراح صدره بالحجة التي أدلىٰ بها ، والبرهان الذي أقامه نصّاً ودلالة»[1].

---

(١) يبدو لي ، أن قتال أبي بكر للذين ارتدوا عن الدين ، ونابذوا الملة ، وعدلوا إلىٰ الكفر ، والذين أنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة وغيرهما من أمور الدين ، وعادوا إلىٰ ما كانوا عليه في الجاهلية ، وهم الذين عدهم الخطابي من أهل الصنف الأول ، وكذلك الذين فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة ، فأنكروا وجوب الزكاة ، وهم الذين عدهم الخطابي من الصنف الثاني ، كان قتال أبي بكر رضي الله عنه لهؤلاء جميعاً علىٰ أساس أنهم من أهل الردة ، وقد كفروا بإنكار ما صح في هذا الدين بالضرورة ، =

فضل موقف أبي بكر ، وحسن أثره في الإسلام:

قد كان منع الزكاة عن الإمام ثلمة كبيرة في الإسلام ، وباباً واسعاً للثورة والفوضىٰ ، لو سمح أبو بكر ـ لا سمح الله بذلك ـ بفتحه ، وتهاون في سده وإغلاقه ، لما استطاع أحد من بعده أن يسدَّه ، وفتح علىٰ إثره أبواب أخرىٰ في أمر الصلاة فقال قوم: لا لزوم للجمعة والجماعة ، وحسبنا أن نصلي فرادىٰ أو في بيوتنا.

وفي أمر الصيام قيل : لا لزوم لتوقيته برمضان ، أو بمبدئه ومنتهاه ، وكذلك الحج الاجتماعي الذي مناسكه معينة ، وأوقاته محدودة إلىٰ غير ذلك ، وأصبحت الخلافة النبوية ، ونظام الإمارة في الإسلام ، الذي ترتبط به الحدود والأحكام ، وعزة الإسلام ، كبحر العروض اسم ولا ماء ، وانفرط عقد الإسلام والمسلمين علىٰ إثر وفاة الرسول ، كما انفرط بعد قرون وأَحقاب ، فكان موقف أبي بكر ، الذي لا هوادة فيه ولا ليونة ، ولا مساومة فيه ولا تنازل ، موقفاً موفقاً ملهماً من الله ، يرجع إليه الفضل الأكبر في سلامة هذا الدين ، وبقائه علىٰ نقائه وصفائه وأصالته ، وقد أقرَّ الجميع ، وشهد التاريخ بأن أبا بكر قد وقف في مواجهة الردة الطاغية ، ومحاولة نقض عرىٰ الإسلام عروةً عروةً ، موقف الأنبياء والرسل في عصورهم ، وهذه خلافة النبوة التي أدىٰ أبو بكر حقها

= ولذلك قال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال» أما الذين أنكروا وجوب أدائها إلىٰ الإمام فاستبدوا بها واستأثروا ، أو فرقوها في قبيلتهم ، ومن كان يسمح بالزكاة ، ولم يمنعها ، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي ، فأطاعوهم ، كان قتال أبي بكر لهم علىٰ أساس أنهم من أهل البغي. وقتال أهل البغي بت في القرآن. متفق عليه بين المسلمين. فقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [سورة الحجرات: ٩] هذا ، والله أعلم بالصواب.

واستحق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلىٰ أن يرث الله الأرض وأهلها .

تفويض أداء زكاة الأموال الباطنة إلىٰ أربابها :

وبقي الوضع هكذا بفضل جهاد أبي بكر وصلابته ، تُدفع الزكاة والصدقات المفروضة بجميع أنواعها إلىٰ بيت المال حتىٰ كانت خلافة عثمان بن عفان رضي الله تعالىٰ عنه ، فسمح بأداء زكاة الأموال الباطنة ، وهما النقدان إلىٰ مصارفها ومستحقيها ، وأن يتولىٰ ذلك أصحابها بأنفسهم ، وبقيت زكاة الأموال الظاهرة ، وهي المواشي والزروع والثمار ، تدفع إلىٰ بيت المال ، يقول الإمام أبو بكر الجصَّاص الرازي في تفسيره(١) :

أما زكوات الأموال ، فقد كانت تحمل إلىٰ رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، ثم خطب عثمان ، فقال ، «هذا شهر زكواتكم ، فمن كان عليه دين ، فليؤدِّه ، ثم ليزكِّ بقية ماله» ، فجعل لهم أداءها إلىٰ المساكين ، وسقط من أجل ذلك حق الإمام في أخذها ، لأنه عقد عقده إمام من أئمة العدل ، فهو نافذ علىٰ الأمة ، لقوله ﷺ: «ويعقد عليهم أموالهم»(٢) .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ج٣ ص١٥٥ .

(٢) يقول العلامة علاء الدين أبو بكر الكاساني الحنفي (م ٥٨٧ هـ) «وأما المال الباطن الذي يكون في المصر ، فقد قال عامة مشايخنا: إنَّ رسول الله ﷺ طالب بزكاته ، وأبو بكر وعمر طالبا ، وعثمان طالب زماناً ، ولما كثرت أموال الناس ، ورأىٰ أن تتبعها حرجاً علىٰ الأمة وفي تفتيشها ضرراً بأرباب الأموال ، فوض الأداء إلىٰ أربابها» (البدائع والصنائع ج٢ ـ ص٣٥) .
ويقول العلامة ابن الهمام (م ٨٦١ هـ) «وعلىٰ هذا كان رسول الله ﷺ ، والخليفتان بعده ، فلما ولي عثمان رضي الله عنه ، فظهر تغير الناس ، كره أن تفتش السعاة علىٰ الناس مستور أموالهم ، ففوض الدفع إلىٰ الملاك نيابة عنه ، ولم تختلف الصحابة عليه في ذلك ، وهذا لا يسقط طلب الإمام ، أصلاً» (فتح القدير ج١ ـ ص٣١١) .

إخلال حكومات المسلمين بنظام الزكاة ، وعقوبته في الدنيا :

واحتفظت الخلافة الإسلامية ـ بأنواعها ودرجاتها المختلفة ـ بحقها في جباية زكاة الأموال الظاهرة ، واستمرَّ هذا الوضع إلىٰ آخر الخلافة العباسية كما يدل عليه كتاب الخراج للإمام أبي يوسف ، والكتب التي ألفت في أدوار مختلفة في موارد الخلافة وماليتها ، حتىٰ زال هذا الوضع الشرعي زوالاً كلياً في حكومات المسلمين ، التي لم تطبق النظام الشرعي ، ولم ترث خلافة النبوة في مناهجها الخلقية ، وخصائصها الاجتماعية ، وسياستها المالية ، فكان ما رأيناه من اضطراب الحياة في بلاد المسلمين ، وحرمانهم من بركات نفاذ أحكام الشريعة الإسلامية علىٰ منهاجها الصحيح ، ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] .

الزكاة هي الحد الأدنىٰ ، للبر والمواساة :

كانت الزكاة المشروعة في الإسلام ، هي الحد الأدنىٰ للبر والمواساة في أموال المسلمين وثروتهم ، وفريضة لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، وهذا الذي تطالب به الشريعة الإسلامية بكل جد وصرامة ، وتعتبره شرطاً للإسلام ، وشعاراً للمسلم ، وركناً من أركان الدين الأساسية ، ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[2] والذي ينكرها ، ويمتنع عن أدائها ـ عمداً وإصراراً ـ يُعتبر أنه خلع ربقة الإسلام ، وفارق المسلمين ، وقد قاتلهم أفضل الأمة بعد نبيِّها ، وأفقهها لدينه أبو بكر الصديق ، ووافقه الصحابة رضي الله عنهم ، فكان إجماعاً منهم .

---

(١) سورة السجدة : ٢١ .

(٢) سورة التوبة : ١١ .

إن في المال حقاً سوىٰ الزكاة:

ولكن الرسول ﷺ ـ في حياته الخاصة ، وفي ذوقه واتجاهه ، وفي تحريضه وترغيبه ، وفي وصاياه وتوجيهاته لخاصة أصحابه ، ولمن أراد أن يأنس به ، وسمت همته ـ لم يقف عند هذا الحد ولم يعتبره المثل الأعلىٰ في البر والمواساة ، وأداء الحقوق ، وقد عبر عن ذلك في أسلوبه النبوي الموجز المعجز ، الذي تقصر عنه عبارات البلغاء وإطناب العلماء ، بقوله: «إن في المال حقاً سوىٰ الزكاة». فقد روىٰ الترمذي بسنده عن فاطمة بنت قيس ، «سُئل أو سألت رسول الله ﷺ عن الزكاة ، فقال: إن في المال حقاً سوىٰ الزكاة ، ثم تلا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية» وتمام الآية ، ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

النظرية النبوية الخاصة ، إلىٰ الحياة وإلىٰ المال:

وقد دلت سيرته فيما آتاه الله من مال ، وسيرته في أهل بيته ، الذين كان أعظم هذه الأمة براً بهم وحدباً عليهم ، كما قال: «خيركم ، خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي»[2] ، وسيرته في أقرب الناس وأحبهم إليه ، علىٰ نظرته النبوية الخاصة ، التي كان ينظر بها إلىٰ هذه الأموال ، بل إلىٰ هذه الحياة كلها ، بل إلىٰ هذا الكون كله ، نظرة تقصر عن تصويرها ،

---

(١) سورة البقرة: ١٧٧.

(٢) رواه الترمذي والدارمي عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس إلىٰ قوله: لأهلي.

والتعبير عنها المعاجم ، والثروة اللغوية ـ علىٰ سعتها وضخامتها ـ وتُسيء إلىٰ جلالها وسموها ، ونزاهتها ورقتها المصطلحات الاقتصادية الجافة ، إنها نظرة من يستحضر جلال الله وعظمته ، ويتخلق بأخلاقه ، ويستحضر اليوم الآخر ، ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[١] ويحن إليه أكثر من حنين السمك إلىٰ الماء ، وأعظم من حنين الطائر إلىٰ وكره ، فينطلق لسانه قائلاً: «اللهم لا عيش إلاَّ عيش الآخرة»[٢] ويرىٰ إلىٰ هذا المال كزبد البحر ، أو غثاء السَّيل ، أو حصىٰ البطحاء ، لا يقيم له قيمةً ولا وزناً ، ويرىٰ الخلق عيال الله ، ويرىٰ نفسه كوليّ اليتيم ، ويفضل لغيره الخصب والرخاء ، والسعادة والهناء ، ولنفسه ، وعياله ، وأهل بيته الفاقة والجوع ، والتقشف وخشونة العيش ، يقول: «أشبع يوماً وأجوع يوماً»[٣] ويقول: «اللهم ارزق آل محمد قوتاً»[٤]. ويبلغ أزواجه رسالة الله ، وقد صادفت هواه ورغبته ، وذوقه واتجاهه ، فطاب بها نفساً ، وقرَّ بها عيناً ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٥] فلم يكن منهنَّ إلا أن آثرن الحياة مع رسول الله ﷺ ، ولم يؤثرن الحياة مع آبائهنَّ ، وإخوتهنَّ الذين توسَّع عيشهم ، ولانت حياتهم.

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) رواه البخاري ج٢ ص٩٤٩.

(٣) رواه الترمذي عن أبي أمامة مرفوعاً ، «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

(٤) رواه البخاري ج٢ ـ ص٩٥٧.

(٥) سورة الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩.

معيشة الرسول ﷺ ، وأهل بيته:

وكيف كانت الحياة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، التي آثرنها وفضّلنها؟ ، استمع إلىٰ عائشة الصديقة تتحدث عنها في صدقها الموروث ، وتجربتها الواسعة ، وخبرتها التي لا خبرة فوقها ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ما شبع آل محمد من خبز البُرّ ، ولقد كنا نمكث الشهر والشهرين ، لا يوقد في بيتنا نار ، وما كان طعامنا إلاَّ التمر والماء ، ولقد توفي رسول الله ﷺ وما في بيتنا شيء يأكله ذو كبد ، إلاَّ كسرة خبز من شعير علىٰ رفٍّ لي»[1].

ويدخل عليه عمر يوماً ، فيراه علىٰ حصير ، قد أثر في جنبه ، ويرفع رأسه في البيت فلا يجد إلاَّ إهاباً[2] معلقاً ، وقبضة من شعير ، وحصيراً تكاد تبلى ، فيبكي عمر ، فيقول رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا بن الخطاب؟ ، فيقول عمر: يا نبيَّ الله! ومالي لا أبكي ، وهذا الحصير ، قد أثر في جنبك ، وهذه خزائنك لا أرىٰ فيها إلاَّ ما أرىٰ ، وذاك كسرىٰ وقيصر ، في الثمار والأنهار ، وأنت نبي الله وصفوته؟ ، فيقول عليه السلام: أفي شك أنت ، يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»[3].

تحرجه من المال الفاضل ، وقلقه من بقاء مال الصدقة:

وكان لا يجد الراحة مع المال الفائض عن حاجته التي لا حاجة

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وغيرهما.

(٢) الإهاب: كيس من جلد.

(٣) اقرأ الحديث في الجامع الصحيح ، للبخاري ، ومسند ابن حنبل ، وسنن ابن ماجه. والألفاظ متقاربة.

دونها ، ولا زهد فوقها ، والفاضل من أموال الصدقة التي يأخذها للتوزيع علىٰ فقراء المسلمين ، «فعن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : كان لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها ، فشغلني وجع النبي ﷺ ، ثم سألني عنها ، ما فعلت الستة أو السبعة؟ قلت: لا والله! لقد كان شغلني وجعك ، فدعا بها ، ثم وضعها في كفه ، فقال: ما ظن نبي الله ، لو لقي الله عز وجل ، وهذه عنده؟»[١] .

وكان لا يتأخر في وضع هذه الأموال في مواضعها ، وإيصالها إلىٰ غايتها ، ولا يرجىء ذلك إلىٰ وقت آخر ، وقد روي عن عقبة بن الحارث قال: «صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً ، فتخطىٰ رقاب الناس إلىٰ بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم ، فرأىٰ أنهم قد عجبوا من سرعته ، قال : ذكرت شيئاً من تبر عندنا ، فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته»[٢] وفي رواية قال: «كنت خلفت في البيت تبراً من الصدقة ، فكرهت أن أبيته».

حثٌّ وتحريضٌ علىٰ إنفاق الفاضل من الحاجة :

وقد أوصىٰ أصحابه وأمته ، بمثل هذه الأخلاق ، وبمثل هذه السيرة ، وبمثل هذه النظرة إلىٰ المال وصايا مُرقِّقة مُرغِّبة ، يتخيل من يقرؤها في كتب الحديث ، أن ليس لأحد حقٌّ في فضل ماله ، وزائد متاعه ، ويتحرج بعد ما يقرؤها ، ويطّلع عليها من التنعم بما بسط الله له في الرزق ، والتّمتع بما وسّع الله له في الدنيا ، ويضيق ذرعاً ، بميسور العيش ، وفضول الحياة ، وأطايب الطعام وأنواع الثياب ، وما هو إلاّ حثّ وتحريض ، وترغيب وتحريص ، وأسوة الرسول التي يقول الله

(١) رواه أحمد.
(٢) رواه البخاري.

عنها: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١]. وقد صح عنه، أنه قال: «من كان له فضل ظهر، فليعد به علىٰ من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به علىٰ من لا زاد له»[٢] وقال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة، فليذهب برابع»[٣] وقال: «ما آمن بي من بات شبعان، وجاره جائع إلىٰ جانبه وهو يعلم»[٤] وقد روي أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ، وقال له: «اكسني يا رسول الله! فأعرض عنه، فعاد الرجل يقول: اكسني يا رسول الله! فقال له: أما لك جار له فضل ثوبين؟ قال: بلىٰ! غير واحد، قال: «فلا يجمع الله بينك وبينه في الجنة»[٥].

قيمة الإنسان، وقيمة مواساته في نظر الدين الإسلامي:

ورفع قيمة الإنسان، وقيمة مواساته وقضاء حاجته إلىٰ أن بلغ ذلك مبلغاً لا يتصور فوقه، وأصبح من يُقصِّر في ذلك، كمن قصَّر في جنب الله، فقد جاء في حديث قدسيّ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم! مرضت فلم تعدني! فيقول ابن آدم: يا رب! كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما إنك لو عدته، لوجدتني عنده، يا بن آدم! استطعمتك، فلم تطعمني! فيقول: يا رب! كيف أطعمك، وأنت رب العالمين؟ فيقول الله: أما علمت أن عبدي فلاناً، استطعمك، فلم تطعمه؟ أما إنك لو أطعمته، لوجدت ذلك عندي. يا بن آدم! استسقيتك، فلم تسقني! فيقول:

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.
(٢) أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٣) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.
(٤) رواه الطبراني، والبزار، وإسناده حسن.
(٥) رواه الطبراني في الأوسط.

يا رب! كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين؟ فيقول: استسقاك عبدي فلان ، فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندي»[١] . وقد كان غاية ذلك أن قال ، ولا منزلة فوقه في العدل والفضل ، والمواساة والإنصاف: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢] .

تأثير أسوة الرسول وتعاليمه في حياة الصحابة رضي الله عنهم:

وقد أَثَّرت أسوة الرسول ﷺ ، في حياة الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم ، في أذواقهم واتجاهاتهم ، وسيرتهم في أهلهم ، وفي أموالهم ، التأثير المطلوب المتوقع ، وسرت هذه الروح في عروقهم وعقولهم وأخلاقهم ، حتى أصبحت حياتهم صورة ـ بقدر الإمكان ـ لحياة الرسول ﷺ ، وكان أشبه الناس به بطبيعة الحال أقربهم إليه وألصقهم به ، فتجلَّت في حياة الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ، وقد روىٰ التاريخ من أخبار زهدهم وبرِّهم ومواساتهم ، وتورُّعهم في ذات نفسهم وأهلهم ، وإيثارهم لشظف العيش ، وقلة الأسباب والتقشف ، ما لا يزال ذروة في تاريخ الأخلاق والديانات ، لا يصل إليها السابقون في الأمم .

نماذج من سيرة الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة وأهل البيت:

فمن ذلك ما رواه المؤرخون أن امرأة أبي بكر الصديق خليفة المسلمين ، اشتهت حلوىٰ ، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريها به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلىٰ بيت المال ، وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل من ثمن الحلوىٰ ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان. وليس بيت مال المسلمين لتترفَّه به أسرة الحكام ، وتتوسَّع به في المطاعم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

وزهد عمر في حياته وتقشُّفه مضرب المثل في التاريخ ، ويكفي أن تقرأ خبر رحلته ـ بصفته خليفةً وأميراً للمؤمنين ـ إلىٰ الجابية «فكان علىٰ جمل أورق ، تلوح صلعته للشمس ، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب ، وطاؤه كساء أنبجاني ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة ، أو شملة محشوة ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه»[1] .

وأما عثمان ، وهو أكثر إخوانه مالاً ، وأوسعهم أسباباً ، فقد روىٰ شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، كان يطعم الناس طعام الإمارة ، ويدخل في بيته ، ليأكل الخبز والزيت ، وأما علي بن أبي طالب فهو من زهاد الصحابة المعدودين المعروفين ، يصفه صاحبه ضرار بن ضمرة ، فيقول:

«يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه»[2] .

وكان تأثير هذه الأسوة في الصحابة بقدر اتصالهم بصاحبها ، وطول عشرتهم له: فكانت لعائشة أم المؤمنين ، ـ حبيبة رسول الله ﷺ ـ اليد الطولىٰ في ذلك ، وقد روىٰ المؤرخون: «أنها تصدقت مرة بمئة ألف درهم وليس عليها إلا ثوب خلق ، وكانت صائمة ، فقالت لها خادمتها: لو أبقيت شيئاً لتفطري عليه! فأجابتها لو ذكرتني لفعلت ، وتصدَّقت بمئة

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ، ص٥٩ ـ ٦٠ .

(٢) صفوة الصفوة «لابن الجوزي» .

ألف وهي جائعة ، فنسيت نفسها وذكرت الناس![1] .

المواساة والإيثار في المجتمع الإسلامي الأول:

وسرت هذه الأخلاق وهذه الروح في المجتمع الإسلامي الأول ، فكان ذلك دأب الصحابة وديدنهم ، يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «لقد أَتىٰ علينا زمان ـ أو قال: حين ـ وما أحد أحقُّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم»[2] .

وكانت نتيجة ذلك حوادث طريفة في المواساة ، تكاد تبلغ حد المساواة ، وحسن الجوار يكاد يبلغ قمة الإيثار ، من ذلك ما رواه ابن عمر بنفسه ، قال: «أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال: فلان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه ، فبعثه ذلك الإنسان إلىٰ آخر ، فلم يزل يبعث به واحد إلىٰ آخر ، حتىٰ رجع إلىٰ الأول بعد أن تداوله سبعة»[3] .

وانتقل هذا الشعور الدقيق ، والحس المرهف ، والغرام بالمواساة ، إلىٰ الأجيال الإسلامية اللاحقة ، وكان للتابعين بإحسان القدح المعلىٰ في ذلك بطبيعة الحال ، يقول سيد التابعين الحسن البصري: «لقد عهدت المسلمين ، وإن الرجل منهم يصبح ، فيقول: يا أهليّة يا أهليّة! يتيمكم ، يتيمكم ، يا أهليّة! يا أهليّة! مسكينكم ، مسكينكم ، يا أهلية! يا أهليّة! جاركم ، جاركم»[4] وكان لبني هاشم ، وسادة أهل البيت قدَمُ صدقٍ في هذا المضمار ، وقد روىٰ التاريخ عن جود الحسن بن علي وعبد الله بن

(١) رواه الحاكم في المستدرك.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.
(٣) إحياء علوم الدين للغزالي ج٢ ص١٧٤ .
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد.

جعفر ، ورقَّة عاطفتها الشيء الكثير ، وكان لحسين بن علي بن رضي الله عنه وعن آبائه التقدم والرئاسة ، في هذه المآثر والمكرمات ، قال محمد بن إسحاق : «كان ناس بالمدينة يعيشون لا يدرون من أين يعيشون؟ ومن يعطيهم؟ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا في ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلىٰ بيوت الأرامل والمساكين»[١] .

المواساة والإيثار في مختلف العصور والأجيال :

وتوارثت الأجيال الإسلامية الفاضلة هذه السيرة ، وهذا الذوق الرفيع ، وهذا الحس المرهف ، وهذه الحسبة الدقيقة علىٰ نفوسهم وأموالهم ، ومثَّلها الراسخون في العلم والدين ، والربَّانيُّون والمربُّون أجمل تمثيل وأروعه في كل عصر وفي كل بلد ، وزخرت بأمثالها وروائعها كتبُ التاريخ والتراجم ، وما فاتها ، وأفلت من استقصاء مؤلفيها البارعين ، فذكر في غير مظانه أغرب وأروع مما حوته كتب التاريخ. وكان شعار الربانيين ، والشيوخ المربين ، ومبدؤهم ألا يبيت عندهم درهم ولا دينار ، وأن يؤثروا علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يكون ما يكرمهم الله به من أموال وهدايا وطرف ، وخيرات تأتيهم من الملوك والأمراء والأغنياء والأثرياء ، وقفاً علىٰ فقراء البلد وذوي الحاجات ، الذين لا سبيل لهم إليها ، فكان مبدؤهم وسيرتهم أن «تؤخذ من أغنياءهم وتُردُّ علىٰ فقرائهم» ، فكانت مائدتهم من أوسع الموائد وأغناها ، لجميع طبقات الناس ، كما كان قلبهم من أوسع القلوب

---

(١) أكثر الأمثال والحكايات ، التقطناها من كتاب «اشتراكية الإسلام» لصديقنا المرحوم مصطفىٰ السباعي.

وأَسخاها لجميع الناس ، وقد أُثر عن سيدي عبد القادر الجيلاني ، الذي يعبر فيه عن جميع إخوانه ، ومن كان علىٰ شاكلته ، أَنه قال: كفٍّ مثقوبة لا تضبط شيئاً ، لو جاءني ألف دينار ، لم تبت عندي»[١]؟ وقوله: «أَودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمتها الجائع»[٢].

وكان لأبعد ثغور الإسلام ، ولأقصىٰ أَطراف العالم الإسلامي ، من هذه السيرة ، ومن هذا الضرب من الناس ، ومن هذا الطراز الإنساني نصيب غير منقوص. وتراجم هؤلاء المخلصين الرَّبانيين ، والدعاة المربِّين حافلة بنوادر الحكايات ، وروائع الأخبار في الزهد والإيثار ، والمواساة ، والمساواة ، والأريحية ، والنهامة ببذل الأموال. وحسبنا أَن نعرض نموذجين من هذه النماذج التي تكاد تكون مطَّردة في حياة هذه الطبقة ، وسيرها متشابهة ، وأخلاقها متشاكلة ، كتشابه الأوراق في الشجرة ، فكلهم من غرس تعاليم النبوة ، وفروع شجرة: ﴿ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ ﴾[٣].

منها أن الشيخ نظام الدهلوي ، من رجال القرن الثامن الهجري ، يقول خادمه : إنه كان يترك الطعام المنوَّع الفاخر عنده للتسحُّر. فكان يجتزىء بلقيمات؛ ويقول : أجده في بعض الأيام ، لم يتناول منه شيئاً ، وكنت أراه ، لا يُفطر إلاَّ بما يقيم الصلب. فقلت له يوماً : نفسي فداك ، كيف يحافظ سيدي على حياته وصحته مع هذا القليل من الغذاء؟! ففَاضت عينه علىٰ ذلك ، وغلبه البكاء ، وقال : يا فلان! كم من فقير بائس ، وكم من مسافر بات في المساجد والطرقات علىٰ الطَّوىٰ ، لم يجدوا لقمة يتقوّون بها ، فكيف أسيغ هذا الطعام ، والنَّاس يبيتون جياعاً ، ويصبحون

---

(١) قلائد الجواهر ص١٠.
(٢) أيضاً ص١٠.
(٣) سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

جياعاً»[١]. فلمَّا دنت وفاته طلب أصحابه وقال لهم: إذا ادَّخر إقبال (خادمه) شيئاً من الحبوب والغلات، فاشهدوا أنّي بريء من ذلك، وأنه هو المسؤول أمام ربّه، فقال إقبال: إنني لم أترك شيئاً، وقد تصدَّقت بكل ما وجدته إلا حبوباً يأكلها المقيمون في هذا الزاوية بضعة أيّام، فقال: ادعوا لي الناس، فلمّا حضروا قال: دونكم الحبوب، وما تجدون في هذه الزاوية من الرزق والطعام، فنهبوه نهباً، وأمرهم بأن يكنس ذلك المكان ويجعلوه قاعاً صفصفاً.

والنموذج الثاني ما رواه مؤرخ هندي عن الشيخ السيِّد محمد سعيد الأنبالوي وهو من رجال القرن الثاني عشر فيقول: «زاره مرة روشن الدولة، وكان أميراً من أمراء السلطان «فرخ سير» (ملك الهند المغولي). وقدّم ستِّين ألف روبية[٢] لبناء زاويته، فأمره الشيخ أن يترك هذا المال في مكان ويستريح، فانصرف «روشن الدولة» فأرسل الشيخ إلىٰ الفقراء، وأرسل هذا المال إلىٰ الأيامىٰ والمساكين، وأهل الحاجة في ضواحي البلد، وفي المدن المجاورة حتىٰ لم يبق منه فلس، فلما أتىٰ روشن الدولة. قال له: «لا يبلغ الثواب في بناء العمارة ثواب خدمة ذوي الحاجة، والفقراء الذين أحصروا في سبيل الله». ووصلته مرة رسائل السلطان محمد فرخ سير، والأمير روشن الدولة والأمير عبد الله خان، وأمر بثلاثمئة ألف روبية[٣]، فوزَّعها كلَّها في القرىٰ المجاورة، والأشراف الساكنين فيها»[٤].

---

(١) سير الأولياء.

(٢) تساوي أربعة آلاف جنيه استرليني، وإن قدرت قوتها الشرائية ذلك اليوم، تصبح أضعافاً مضاعفة.

(٣) تساوي ١٤٠٠٠ جنيهاً استرلينياً.

(٤) نظام التعليم والتربية (في أردو) المجلد الثاني ـ للعلامة (مناظر حسن الكيلاني).

وقد يقول القارىء: إن هذه سيرة طبقة زهدت في الدنيا ، ورفضت أسبابها وعاشت في عزلة عن الدنيا وعن النّاس. فهل هناك أمثلة لهذه الزهادة والبرِّ والمواساة والاستغناء والإيثار في طبقات أُخرىٰ من هذه الأمة؟ ويجيبهم التاريخ الأمين فيقول نعم! وفي كل طبقة من طبقات هذه الأمة ، وفي كل جيل من أجيالها ، وفي كل بيئة من بيئات دنيا الإسلام من ائتسىٰ بالرسول ﷺ ، وأتىٰ بغرائب في هذه الأخلاق وفي سيرته في ماله وفي عياله وجيرانه وأهل بلده وأبناء جنسه ، ولكن التاريخ لم يسجِّل إلاَّ مآثر من لفت نظره ، وفرض عليه ذكره وتسجيل حوادث حياته وجوانب شخصيته ، من الملوك والأمراء ، والصلحاء ، والعلماء ، ونقتصر هنا علىٰ طبقتين فحسب ، وهما طبقة العلماء الأعلام ، وطبقة الملوك والحكام.

نختار من طبقة العلماء الأعلام شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميّة الذي ينتقد عليه من لا يعرفه الجفاف ، ويعتقدون أن الجانب العلمي فيه يطغىٰ علىٰ الجانب العاطفي ، يقول عنه معاصره الحافظ ابن فضل الله العمري:

«كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوَّمة ، والأنعام ، والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه لا يأخذ منه شيئاً إلاَّ ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليُذهبه» ، وقد بلغ من السخاء والإيثار أن كان يخلع ما كان عليه من ثياب ، ويقدمها إلىٰ السائل ، إذا لم يجد شيئاً آخر ، يقول الحافظ ابن فضل الله: «كان يتصدَّق ، حتىٰ إذا لم يجد شيئاً ، نزع بعض ثيابه ، فيصل به الفقراء» ، ويقول أحد الرُّواة: « وكان يفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك علىٰ نفسه»[١].

---

(١) الكواكب الدرية.

ونختار من طبقة الملوك والحكام ، السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي حكم أكبر دولة إسلامية في عهده ، وهزم أقوىٰ جيوش في عصره ، يشهد عنه صديقه ورفيقه ابن شداد ، فيقول: «إنه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، ومن الذهب إلاَّ جرم واحد صوري ، ما علمت وزنه».

ولمّا مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشمالية في آسيا إلىٰ صحراء النوبة في الجنوب ، في إفريقية ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به ، وينفقون علىٰ تجهيزه ، يقول ابن شدَّاد:

«ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ، ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأُخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجىٰ بثوب فوط ، وكان ذلك ، وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه»[١].

وليست هذه قصة جيل واحد ، ولا قصة مدرسة واحدة من المدارس الفكريّة والروحيّة الكثيرة ، فلم يزل هذا شعار العلماء الربّانيين ، والشيوخ الكاملين ، ولم يزل مبدؤهم «لكل يوم رزقه وقوته» فلم يكونوا يدَّخرون شيئاً ولا يشحون بشيء خشية الإقتار ، وعلىٰ ذلك أدركنا شيوخنا ، وأساتذتنا ، فكانوا يتحرجون من أن يفضل عندهم شيء يحتاج إليه عباد الله ، أو يبيت عندهم درهم أو دينار ، وهم في غنىٰ عنهما ، وكان ذلك في غير رهبانيّة أو تحريم لما أحلَّ الله ، وكذلك في غير تشريع لما لم يشرعه الله ، ولا في تشديد فيما لم يشدد الله فيه ، ولا في إجبار وإرهاق ، ولكنه خوف من المحاسبة ورأفة بالخلق ، وتأسٍّ بأسوة

(١) النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص٣٥١.

الرسول ، وسيرته في الإنفاق والإيثار ، وتطوع وتبرع ، وترغيب صامت بالأمثال العملية ، والنماذج الحية ، وكان لها التأثير العميق في النفوس والقلوب ، ما يحمل التلاميذ والمحبين علىٰ التقليد ، والاتِّباع[١] .

امـتـيـاز المجتمع الإسلامي في العصر الأخير :

فكان المجتمع الإسلامي ـ علىٰ علاَّته وعلىٰ أدوائه الكثيرة ، التي لم يزل المصلحون يحاربونها ـ أفضل المجتمعات البشرية في عاطفة البر والمواساة ، التي تغلغلت بفضل التعاليم الإسلامية في أحشائه ، وأكثرها تحرراً من عبادة المادة والمعدة ، يكثر فيها الأفراد الذي يثورون علىٰ سلطان المادّة ، ويخضعونها لسلطان الدين ، والمُثل الخلقية الإسلامية ، فكان التنافس التجاري والأثرة الفردية أو الطبقية ، أَضعف فيه منه في المجتمعات التي لا تؤمن بحياة ، غير هذه الحياة ، ولا تعرف غاية غير غاية الثراء والرخاء[٢] ، وتسوقها المثل الاقتصادية سوقاً عنيفاً ، لا رحمة

---

(١) اقرأ نماذج هذا الإيثار والصفاء في كتابنا «ربانية لا رهبانية» طبع دار الفتح في بيروت.

(٢) حدثني بعض الثقات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشراف في الحجاز ، أن تجار مكة كانوا في ذلك العهد علىٰ جانب عظيم من المواساة لزملائهم والنظر في مصالحهم ، والإخلاص والإيثار لهم ، قال: «كان بعض التجار ، إذا أتاه زبون في آخر النهار ، وقد باع ما يكفيه لقوت يومه ، وما حدده من الربح والوارد اليومي ، ولم يكن جاره سعيد الحظ في ذلك اليوم ، قال له في لطف وهدوء: دونك هذا الدكان الذي هو بجواري ، تجد عنده ما تجده عندي ، وقد لاحظت قلة الزبائن عنده هذا اليوم فهو أحق بأن تشتري منه».

ويتحدث الأستاذ محمد أسد النمساوي ، عن مدينة إسلامية عربية كبيرة (هي دمشق) فيذكر انطباعاته كما يلي: «وقفت علىٰ ذلك الاستقرار الروحي في حياة سكانها ، إن أمنهم الباطني كان يمكن أن يرىٰ في الطريقة التي كان أحدهم يتصرف بها نحو الآخر» ويذكر تلك الطرق ، ثم يقول: «وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة. أولئك الذين لا ينون ينادون علىٰ المارة ، أولئك كانوا يبدون ، وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسد ، =

فيه ولا هوادة ، فكانت هذه سمة المجتمع الإسلامي ، رغم أنه بلغ منتهىٰ الضعف في العصر الأخير ، وكان أكثر استعداداً وقابلية للتقدم في مضمار العدالة الاجتماعية ، وتحقيق المُثل الإنسانية العليا من كل مجتمع بشري ، لخضوعه للمبادىء الإسلامية في قليل أو كثير ، ولوجود الرباط الإيماني الذي يربط أفراده ويجمع أشتاته.

مواساة طوعيّة شاملة ، أم مساواة إجبارية محدودة؟ :

ثم جاء أقوام فقدوا الثقة بالإنسان والإنسانية ، ففضّلوا المساواة الإجبارية المحدودة في المال ، علىٰ المواساة الطوعية الشاملة للحياة ، ونسوا أو تناسوا : أن الأموال ، ليست هي حاجة الإنسان الوحيدة ، وأن المساواة فيها أو الشركة لا تسدّ كل فراغ في نفسه ، وفي مشاعره ، وأحاسيسه ، وفي حياته ، ولا تضمد كل جرح من جروحه. إن حاجته إلىٰ مواساة شاملة للحياة كلها ، أشد من حاجته إلىٰ مساواة في المال كله ، وفي المرافق كلها ، وفي الموارد بأسرها ، وقد تفعل كلمة رقيقة ، أو دمعة بريئة يثيرها الشعور بالألم ما لا تفعله الأموال الطائلة ، والعطايا السخية ، وهو في حاجة إلىٰ مساعدة إخوانه ، وإعانتهم في بعض الأحيان ، وإلىٰ مشاركتهم في آلامه ومتاعبه في أحيان أُخرىٰ ، وإلىٰ رقة شعورهم ودقة إحساسهم حيناً ، وإلىٰ لين عريكتهم ، ودماثة

= حتىٰ إن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه ، كلما دعته الحاجة إلىٰ التغيب بعض الوقت. وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكان غاب صاحبه عنه ، يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، ما إذا كان ينتظر عودة البائع ، أو ينتقل إلىٰ الدكان المجاور؟ فيتقدم التاجر المجاور دائماً ـ التاجر المزاحم ـ ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة ـ لا بضاعته هو ، بل بضاعة جاره الغائب ـ ويترك له الثمن علىٰ مقعده. أين في أوربا ، يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟» (الطريق إلىٰ مكة ص١٦٧).

خلقهم وبشرهم ، وحسن لقائهم حيناً آخر. ولذلك كان التوجيه النبوي أشمل لأنواع البر والمواساة ، وأصدق تعبيراً عن الأحاسيس الإنسانية ، فقال النبي ﷺ ، وهو يذكر طرق البر وأنواع الصدقة: «تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها ، أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمشيها إلىٰ الصلاة صدقة. وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة»[١]. وفي حديث آخر قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف! قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو الخير. قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة»[٢] وفي حديث آخر قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق. قلت: يا رسول الله! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: تكف شرَّك عن الناس ، فإنها صدقة منك علىٰ نفسك»[٣]. وفي حديث آخر: «وتبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[٤].

وكانت نتيجة ذلك الاختيار غير الموفق ، وإيثار المساواة ، أو الاشتراكية التي تفرضها الحكومة ، علىٰ المواساة التي تنبع من أعماق القلوب ، وتتدفَّق في نواحي الحياة ، وفي عروق المجتمع ، أن قام مجتمع في هذه البلاد: «الشيوعيّة والاشتراكية» لا يعرف أهله لذَّة

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الترمذي عن أبي ذر مرفوعاً.

المواساة لبني الجنس ، والعطف علىٰ الإنسانية والرقَّة للضعفاء والفقراء ، والإخلاص والنصيحة للشركاء والزملاء ، ويصبحون كلُّهم تجّاراً متنافسين ، وأعداءً متباغضين ، لا يثق أحد بأحد ، ولا يتنازل أحد لأحد ، بعضهم يتجسَّس علىٰ بعض ، ويلفِّق عليه الأخبار ، ويُزوِّر عليه القضايا ، ويشمت بمُصابه ، ويحزن لسعادته ، ويتحوّل البلد كلُّه إلىٰ ميدان حرب ، أو بناء محكمة .

وكانت نتيجة هذا الوضع أن فقد النَّاس الشعور بالمسؤولية ، والنُّهوض بالتبعات الذي فيه سرُّ الشرف الإنساني ، وتخلَّوا عن كل عهدة ومسؤوليّة ، وأصبحوا هملاً وسوائم ، لا همَّ لها ، إلاَّ العلف والرَّتع ، والشبع المفرط ، وانتقلت كل مسؤولية وكل تبعة إلىٰ الحكومات ، وإلىٰ الجهاز الإداري ، وإلىٰ القوانين والعقوبات ، وأصبح المجتمع غلاماً قاصراً ، لا تمييز عنده ولا عقل ، فالحكومة هي التي تأخذ وتعطي ، وتُهيِّيء لكل فرد حاجته ، وتتكفَّل بذلك ، فلا معنىٰ للعطف والمواساة ، ولا معنىٰ للسخاء والإيثار ، ولا حاجة إلىٰ شيء من ذلك ، فكلُّ شيء مكفول مضمون ، والناس كالآلات الصمَّاء .

لقد تجلَّت قواعد المواساة الطوعيّة ، ونتائجها الباهرة ، وما جرَّت علىٰ أهلها ، من الرَّاحة والهدوء والسعادة الداخليّة ، والثقة المتبادلة ، والحب المشترك ، والسَّلام الشامل ، ولذَّة الروح ، ورضا الضمير ، والاعتزاز بالإنسانية والتفاؤل في الحياة ، وشعور كلِّ فرد بمسؤوليته وواجبه ، لقد تجلَّىٰ كل ذلك في المجتمع الإسلامي المثالي الأول في أروع مظاهره ، وأجمل مناظره ، وأعمق معانيه ، ويتجلىٰ في كل مجتمع يأخذ بمبدأ المواساة الطوعيّة الشاملة ، مقابل المواساة الإجباريّة المحدودة ، أو الاشتراكية الضَّيقة الجامدة ، فأعضاء المجتمع متحابُّون ، متناصْحون ، شهداء بالخير يُزكِّي بعضهم بعضاً . وكل جيل يشهد للجيل

الذي سبقه بالفضل والسَّبق ، ويدعو له بالقبول والمغفرة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾(١) ذلك هو المجتمع الذي كان كل عضو من أعضائه مرآة لأخيه يقيسه على نفسه ، فينفي عنه كل تهمة ، ويبرِّئه من كل نقيصة ، فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾(٢) المجتمع الذي ضرب فيه النبي ﷺ مثلاً بليغاً ، فقال :

«مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد ، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمّىٰ»(٣) . المجتمع الذي كل عضو فيه حارس كريم ، وناصح أمين لصاحبه ، فقد جاء في الحديث : «المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كلُّ المسلم علىٰ المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه»(٤) .

حين أصبحت الحياة في بلاد كثيرة شقاءً وجحيماً : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴾(٥) وكلَّما جاء «دكتاتور» انتقد السابق ، ورماه بالغدر والخيانة ، وكلُّ من تسلَّم زمام القيادة انتقم من أعدائه ومنافسيه ، انتقاماً شديداً ، واضطهد وحاكم ، وسفك الدماء ، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾(٦) .

---

(١) سورة الحشر : ١٠ .

(٢) سورة النور : ١٢ .

(٣) حديث متفق عليه .

(٤) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٥) سورة الأعراف : ٣٨ .

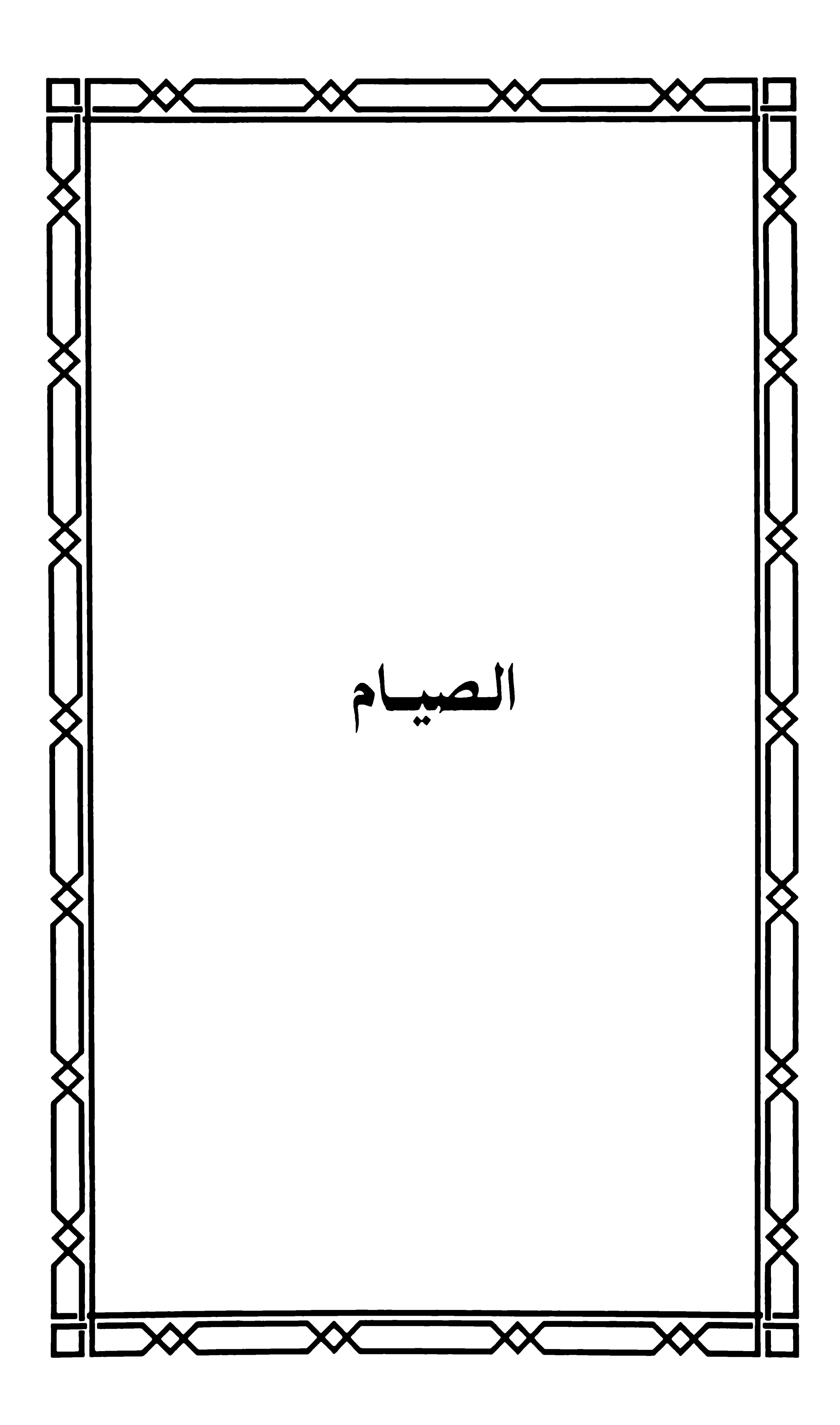
(٦) سورة البقرة : ٢٠٥ .

فمن أبىٰ إلاَّ الطريقة الشاقَّة الطَّويلة ، والتجربة المرهقة العقيمة ، قيل له ، ولأمثاله :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة البقرة ٦١ .



الصيام

الصيام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١]

مخلوق وسط بين الملائكة والحيوانات :

خلق الإنسان وسطاً بين الملائكة والحيوانات ، وركِّبت فيه طبائع هذين الجنسين المتناقضين تركيباً لطيفاً ، حكيماً بديعاً ، فهو مزيج غريب من الخواص الملكية ، والخواص الحيوانية ، ومن الأخلاق الإلهية ، والعادات الحيوانية ، ذلك ، لأن منصبه الذي رُشِّح له ، وغايته التي طلب منه أن يبلغها ويحققها ، وضع فيه استعدادها وحبُّها ، لم يرشّح له الملائكة ، ولم يُخلق له الحيوانات ، وذلك منصب الخلافة ، ومركز الأمانة ، وغاية العبادة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٢] . ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة : ٣٠ .

وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١]
﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[٢].

مقتضى «الخلافة» ولوازمها:

وكان منصب الخلافة يقتضي المناسبة القوية بالمستخلف المنيب، والمناسبة القوية بالمكان الذي يتولى الخلافة فيه، والمخلوف الذي يتولى السيادة عليه، والحكم فيه، فأخذ من الأول أشباح أخلاقه، وظلال صفاته كسموٍّ ونزاهة، وصمدية وغنى، ورحمة وكرم، ورأفة وبر، وصبر وحلم، وقوة وقهر، وصفاء وتجرد، وأمن وسلام. وقد ظل في جميع أطواره البشرية، وأدواره التاريخية يجد اللذة ويعتقد العزة في هذه الأخلاق ومظاهرها، ويخضع لحملتها وأصحابها، ويدين لهم بالحب والإجلال، إذا تجرد عنها وعجز عن التحلي بها، أو تقاصرت عنها همته، وضعفت إرادته.

وأخذ من الثاني خواصّه وطبائعه، وشاركه في مواضع ضعفه، ليشاركه في آلامه وآماله، ويحسن سياسته، وينتفع بكنوز الأرض وخيراتها، ويتمتَّع بنعمها وطيباتها، ويضع ما خلق فيه مواضعه، فوضعت فيه شهوة الطعام والشراب، وركِّبت فيه الغريزة الجنسية، وخلق فيه الجوع والعطش، وعُجنت طينته مع اللذة وحبها، وطلب المزيد الجديد، وألهم الصناعة والمدنية، والتأنّق في الطعام والشراب.

تجاذب الروح والجسد، إلى مركزهما، وخصائصهما:

ولذلك كان مجموعاً من روح وجسد، فالروح هي التي تجذبه إلى

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧.

أصلها ومنبعها ، وتذكِّره بمنصبه ومركزه ، وغايته ومهمته ، وتفتح فيه الكوَّة إلى العالم الذي انتقل منه ، وإلى سعته وجماله ، ولطافته وصفائه ، وتثير فيه الأشواق والطموح ، وتبعث فيه الثورة على المادة الكثيفة الثقيلة ، وتُزيِّن له الانطلاق من القفص الضيق الخانق ، وإن كان من ذهب ، والتحليق في الأجواء الفسيحة التي لا نهاية لها ، وفك السلاسل والأغلال من عادات ومألوفات ، ولذَّات وحاجات ، ولو حيناً بعد حين ، وفي شهور وسنين ، وتحبِّب إليه الجوع والعطش مع وفرة الطعام وكثرة الشراب فيشعر فيهما بلذة ، لا يشعر بها في أطايب الطعام والشراب ، ويعد ذلك الوقت القصير الذي يمضي في فراغ الخاطر وصفاء النفس ، وخفَّة المعدة ، وإشراق الروح ، والتجرد من الشهوات ، والتحرر من النظام الرتيب الخشيب ، قيمة الحياة ولذَّتها ، وسرور النفس وبهجتها ، فلا يزال يحن إليه حنين الطائر إلى الوكر ، وحنين السمك إلى الماء ، وذلك كله صنع الروح التي أودعت فيه ، وانتقلت إليه من عالم الغيب : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[(١)] ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[(٢)] .

والجسد هو الذي يجذبه إلى أصله ومركزه ، وهي الأرض - بكثافتها وتبلدها ، وثقلها وسفالتها - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[(٣)] ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[(٤)] ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾[(٥)] ، فإذا ضعف

---

(١) سورة بني إسرائيل : ٨٥ .
(٢) سورة ص : ٧٢ .
(٣) سورة الحجر : ٢٦ .
(٤) سورة الصافات : ١١ .
(٥) سورة الرحمن : ١٤ .

سلطان الروح ، أو زال حكمها ، وتقلّص ظلها ، وملك الجسد زمام الحكم ، استرسل الإنسان في لذاته وشهواته ، ورتع فيها رتع البهائم السائمة ، وجُنَّ بها جنوناً ، وأبدع فيها ألواناً وفنوناً ، وتخطّى حدود العقل والعرف ، والصحة والطب ، والعدل والشرع ، وانصرفت همته وذكاؤه ، وإبداعه وعبقريته إلى التفنن والتدقيق ، والإسراف والإكثار من أنواع الطعام والشراب ، والتهامها ثم انهضامها ، وما يبعث فيه الشهية ، ويوقظ فيه الجوع ، ثم يعينه على الهضم ، ويعدّه للوجبة الثانية ، «فيصبح وهو في أوج مدنيته وحضارته ، وقمة علمه وثقافته ، كحمار الطاحون أو كثور الحرث ، يدور بين المطعم والمرحاض ، ومائدة الطعام والبالوعة»[1] لا يعرف سوى ذلك مبدأً ومعاداً ، ولا يعرف غير الطواف بينهما شغلاً وجهاداً ، فتموت فيه كل رغبة إلا رغبة الطعام والشراب ، ويتبلّد فيه كل حس إلا حس اللذة والمتعة ، ويزول عنه كل همّ ، إلاّ هم الكسب ليأكل ، والأكل ليكسب. ولا تصوير أدقُّ وأصدق من تصوير القرآن المعجز ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2] وما ذاك إلا طبيعة الجسد الذي تحرر من سلطان الروح ، وحُرم توجيه النبوة وإرشادها ، وانقاد للنفس والهوى ، ونتيجة انجذابه إلى أصله ومصدره: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

---

(١) الفكرة مقتبسة من مقال للأستاذ عبد الباري الندوي في مجلة «البعث الإسلامي».

(٢) سورة محمد: ١٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

أثر انتصار كلٍّ من الروح والجسد في حياة الإنسان وفي تاريخ الأديان والأخلاق:

وما تاريخ الإنسان الديني والخلقي، إلا قصة صراع بين الطبيعتين، وتأرجح بين نهايتين، فأحياناً تغلبت الطبيعة الأولى، وتطرفت، فابتدعت الرهبانية، وغلت في التقشف في الحياة، ورفض الطيبات والمباحات، وإرهاق الطبيعة وإجهاد النفس، فأطال الإنسان الجوع وأدام السهر، والتجأ إلى الغابات والمغارات، ورأى السعادة والسمو الروحاني، في تعذيب النفس وإيلام الجسم. وما قصة غلاة القرون الوسطى في أوروبا بخبر مجهول[1]: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[2] فلم تكن نتيجة ذلك إلا أن ضعفت الأجسام والعقول، وانحلت الروابط، وتعرض المجتمع الإنساني لخطر محدق، وتخلى الإنسان عن منصب الخلافة الذي أكرمه الله به. وانسحب من ميدان الكفاح والمسؤولية، واتخذ«الملك» له المثل الأعلى وصار يحسده، ويطمح إليه بعدما كان محسوداً للملائكة ومسجوداً لهم.

وتغلَّبت الطبيعة الثانية ـ الطبيعة الجسدية الأرضية ـ أحياناً كثيرةً، فانفلت الإنسان من كل قيد من قيود العقل والشرع، ومن كل سلطة من سلطات الروح والأخلاق، وانساق لدواعي المادّة والمعدة، وانجرف معها انجرافاً، فأمعن في إرضاء شهواته البدنية، وتحقيق رغباته

---

(١) اقرأ كتاب «تاريخ الأخلاق في أوروبا» (History of European - Moials) (للأستاذ «لبكي») أو راجع كتابنا: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الفصل الأول من الباب الرابع.

(٢) سورة الحديد: ٢٧.

المادّيّة ، لا يعرف لذلك حدّاً ولا نصاباً ، فانطفأت شعلة الروح والقلب ، وتضخّمت المعدة على حساب العقل والضمير ، وتوسّعت ، فصار لا يكفيه قوت أسرة أو قبيلة ، ونشأت في جسمه معدة صناعية خيالية ، وفي حياته جوعة وهمية أسطورية ، لا يشبعها أعظم مقدار من الطعام والشراب ، ومن الذخائر والمستودعات ، ومن الإيراد والغلات. فنشأت مظالم وجرائم ، وأصبح الإنسان حيواناً مفترساً ضارياً ، يفترس بني نوعه ، ويزدرد أفراد أسرته ، وما قصة الحروب والغارات ، والفتوح والانتصارات ـ حاشا الجهاد الديني المقدس ـ إلاّ قصة الجشع الفردي ، أو الجماعي ، وقصة الغرام بالتمتّع والرّئاسة ، والعلوّ في الأرض.

تأثير التخمة والنهامة في الأخلاق والأذواق:

وإذا تغلّبت هذه الطبيعة الحيوانية ، وملكت زمام الحياة ، واستحوذت على مشاعر الإنسان وحواسه ، وأصبحت «المعدة» هي القطب الذي تدور حوله الحياة ، شق على الإنسان كل ما يحول بينه وبين رغبته ، وما يشغله عن إرضاء نهمته ، وكل ما يذكره بمبدئه ومصيره ، وما يصوّر له الحساب ، والاحتساب ، والجزاء والعقاب ، فلا يجد في أعوام طوال وقتاً صافياً ، وقلباً فارغاً ، وعقلاً يقظاً ، وضميراً حيّاً ، فتثقل عليه العبادة والذكر وما يتّصل بهما ، ولا يجد لذتهما بطبيعة الحال؛ ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1] ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة: ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) سورة النساء: ١٤٢.

إغاثة النبوّة للإنسانية وتشريعها للصوم، لتحقيق المثل العليا وغايات الحياة الإنسانية الحقيقية:

وجاءت النبوة في أزمان مختلفة، وأمكنة مختلفة، تغيث الإنسانيَّة المهدّدة بالمادّية الطاغية، وتُديل الرّوح والأخلاق، والمشاعر اللطيفة، والقلب المخنوق المفلوج من طغيان الشهوات، وقسوة المعدات، وتقيم الموازين القسط في الحياة، وتُعدّ الإنسان إعداداً جديداً لتحقيق الغاية التي خلق لها، وهي «العبادة» والوصول إلى الكمال المطلوب، الذي هيِّىء له، وهي «الولاية» وإكمال المهمَّة التي أهبط لها في الأرض وهي «الخلافة».

وذلك لا يتحقَّق بروحانيَّة ملكيَّة، ولا بماديَّة بهيميَّة. فأمرت بالصوم ليُحدّ من شِرّة هذه الماديَّة المَعِديَّة، ويُعيد للنفس ما فقدته من حياة ونشاط، ومن جدّة وقوَّة، وليشحنَها شحناً روحانياً إيمانياً، تستطيع أن تحفظ به اعتدالها في الحياة، وتُقاوم به مُغريات الشهوة ومفاسد التّخمة، وتتخلَّق ببعض أخلاق الله، وتنال منها نصيباً، فتسعد به وتسمو، وتلتحق بالملائكة والملأ الأعلى، فترتع في رياض الروح والقلب، وتسرح في ملكوت السموات والأرض، وتعرف لذَّةً لا عهد لها بها في ألوان الطعام والشراب، وفي الشبع المفرط والتُّخمة المُملَّة.

مقاصد الصوم وأثره في النفس والحياة:

وقد أشار إلى ذلك حجة الإسلام الغزالي في أسلوبه الخاص، فقال:

«المقصود من الصوم، التخلُّق بخُلق من أخلاق الله عزَّ وجلَّ، وهو الصمديَّة، والاقتداء بالملائكة في الكفِّ عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنَّهم منزَّهون عن الشهوات، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه،

وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلَّما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين ، والتحق بغمار البهائم ، وكلَّما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى علِّيين والتحق بأفق الملائكة»[١]

ويزيده العلاَّمة ابن القيِّم إيضاحاً وتفصيلاً فيقول :

«المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانيّة ، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكو به ممَّا فيه حياتها الأبديَّة ، ويكسر الجوع والظمأ من حدَّتها وسورتها ويذكِّرها بما للأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرُّها في معاشها ومعادها ، ويسكِّن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه ، فهو لجام المتقين ، وجنَّة المحاربين ، ورياضة الأبرار والمقرَّبين»[٢] .

ويمضي ابن القيّم ببلاغته في شرح أسرار الصوم ومقاصده ، فيقول :

«وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة ، التي إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ

---

(١) إحياء علوم الدين ـ ج١ ـ ٢١٢ .

(٢) زاد المعاد ـ ج١ ـ ص١٥٢ .

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١] وقال النبي ﷺ: «الصوم جُنّة» ، وأمر من اشتدّت عليه شهوة النكاح ـ ولا قدرة له عليه ـ بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة .

والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة ، شرعه الله لعباده رحمة لهم ، وإحساناً إليهم ، وحمية وجُنّة»[٢] .

ويعود إلى الموضوع ، فيقول:

«لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله ، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا يلمّه إلاّ الإقبال على الله تعالى ، وكان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ممّا يزيده شعثاً ، ويشتّته في كل وادٍ يقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعه أو يعوقه ، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده ، أن شرع لهم من الصوم ، ما يذهب فضول الطعام والشراب ، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ، ولا يضرّه ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة»[٣] .

الصوم في الديانات القديمة:

لذلك اشتملت جميع الأديان ، والشرائع المعروفة في التاريخ على الصوم ، وطالبت به جميع من كان يدين بها ، فمن أقدم الديانات ، التي

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣ .
(٢) زاد المعاد ـ ج٢ ـ ص١٥٢ .
(٣) زاد المعاد ـ ج١ ـ ص١٦٨ .

لا يزال عدد كبير من الناس يدين بها ، الديانة الهندية البرهمية ، ويحدّث عنها الأستاذ T. M. P,Mahadevan رئيس قسم الفلسفة في جامعة مدراس الهند ، وهو يشرح الصوم ومكانته في الشريعة الهندوكية ، والمجتمع الهندي:

«ومن الأعياد ، والأيام المحتفل بها في السنة ، ما خُصِّصت للصوم الذي تقصد به تزكية النفس. إنّ كل طائفة من الطوائف الهندكية تخصص لنفسها أياماً تقضيها في الدعاء والعبادة ، ويصومها أكثر أفرادها كذلك ، فيكفّون عن الطعام ، ويسهرون الليل كلّه ، ويبيتون ، يتلون الكتب المقدّسة ويراقبون الله. ومن أعمّ هذه الصيام ، وأكثرها انتشاراً في الطوائف المختلفة ، «ويكنته إيكاوشي» الذي ينسب إلى «وشنو» فلا يصوم ذلك اليوم أتباع وشنو فحسب بل يصومه أكثر الناس ، فيصومون نهاره ، ويسهرون ليله.

ومن الأيام ما يصومها النساء فقط ، ويدعون الآلهة «مظهر صفات الله النسوية» في مختلف مظاهرها ، وتسمّى هذه الأيام لأهميتها الخاصة بـ «بَـرَت» أو العهد ، وقد خصّصت لتزكية الروح ، وغايتها تغذية الروح بالغذاء الروحاني»[1].

ولا يزال البراهمة يصومون في اليوم الحادي عشر ، والثاني عشر من كل شهر هندي ، وهكذا يبلغ عدد الأيام التي تصام عند البراهمة ٢٤ يوماً في كل سنة ، إذا حافظوا عليها ، وتقيدوا بها ، وقد فاقت الديانة الجينية في الهند في التشديد في شرائط الصوم وأحكامه ، فأتباعها يواصلون أربعين يوماً بالصوم.

ويظهر الصوم عند المصريين القدماء بجوار أعيادهم الدينية ، وكان

---

(١) Out lines of Hinduism,Chapter 4, Section- 6.

صوم اليوم الثالث من شهر «تهسمو فيريا» اليوناني خاصاً بالنساء عند اليونان ، ولا تخلو الصحف المجوسيّة عن الأمر بالصوم والحث عليه ، ولو لطبقة خاصة ، وتدل آية وردت في بعض كتبهم المقدسة على أن صوم خمسة أعوام كان فريضة على الرؤساء الدينيِّين»[١] .

الصـوم عنـد اليهـود:

أما اليهود فقد كان الصوم؛ يُعتبر رمزاً للحداد والحزن عندهم في العهد البابلي ، وكان يلجأ إليه ، إذا هدّد خطر ، أو إذا كان كاهن أو «ملهم» يعدُّ نفسه لإلهام ، أو «نبوّة» ، وكان اليهود يصومون مؤقّتاً إذا اعتقدوا أن الله ساخط عليهم ، غير راضٍ عنهم ، أو إذا حلَّت بالبلاد نكبة عظيمة ، أو خطب كبير ، أو إذا أصيبت البلاد بوباءٍ فاتك ، أو بجدب عام ، وفي بعض الأحيان ، عندما يعزم الملوك على مشروع جديد .

أيام الصيام المحددة الدائمة ، قديمة ومحدودة في التقويم اليهودي ، علاوة على يوم الكفارة ، يوم الصوم المقرر الوحيد ، في الديانة الموسوية ، وكانت هنالك أيام معينة للصوم الدائم ، في ذكرى حوادث أليمة ، وقعت لليهود في أيام الأسر في «بابل» ، وهي تقع في الشهر الرابع «تموز» وفي الشهر الخامس «آب» ، وفي الشهر السابع «تشري» وفي الشهر العاشر «تبت» (Tebet) ، ويرى بعض ربيي «التلمود» أن صيام هذه الأيام إجباري ، عندما يعيش الشعب الإسرائيلي تحت قسوة الحكومات الأجنبية وفي اضطهاد ، ولا تلزم عندما يتمتع الإسرائيليون بأمن ورخاء .

وزيدت إلى أيام الصيام هذه أيام أخرى ، تصام تذكاراً لكوارث

---

(١) مقتبس من كتاب «سيرة النبي» للعلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله تعالى (ج٥ ـ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧) ، وقد استفاد المؤلف في ذلك من دائرة المعارف البريطانية ، (ج١٠ ـ ص١٩٣) .

ومآسي نزلت باليهود ، وأضيفت إلى الأولى على مرّ الأيام ، وهي لا تعتبر إلزامية ، ولم تنل الحظوة الكافية عند الجمهور ، ومع اختلاف يسير يبلغ عددها إلى خمسة وعشرين يوماً.

وهنالك أيام صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد ، وهي تذكار كذلك لكوارث وخطوب ، أصيبت بها هذه الشعوب في أوقات مختلفة واضطهاد وقسوة تعرضوا لها في بعض الحكومات ، وأيام صيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود ، وفي ذكرى مآتم وأفراح في حياتهم الشخصية. وصوم أول يوم من السنة شائع في كثير من الطبقات ، وهنالك أيام صيام تشرّع ، ويأمر بها الربيُّون ، إذا تعرَّض الشعب لخطر ، أو تأخر المطر ، أو أصيب البلاد بمجاعة ، أو صدرت مراسيم قاسية ، أو قوانين غليظة.

وأيام الصيام الشخصية المختارة ، التي يفضلها بعض الأفراد دون بعض شائعة في تاريخ اليهود منذ زمن مبكر ، وهي أيام صوم تذكارية لبعض الحوادث الفردية ، أو ككفَّارة عن بعض المعاصي والآثام ، أو لجلب رحمة الله وعفوه عند خطر داهم ، أو بلاء نازل ، وصوم تلك الأيام لا يشجعها الربيُّون ، ولا يوافقون عليها إذا كان الصائم رجلاً عليماً ، أو أستاذاً معلِّماً ، حتى لا يشوّش ذلك خاطره ، أو يضعف صحته ، وهنالك صوم يصام على إثر رؤيا مفزعة. ولما كانت الشريعة اليهودية لا تسمح بالصوم في أيام الأعياد ، «فالتلمود» يبيح هذا الصوم في هذه الأيام ، بشرط أن يكفِّر عنه بصوم آخر في أيام عادية.

والصوم عند اليهود يبتدىء من الشروق ، وينتهي عند ظهور أول نجوم

الليل ، إلا صوم يوم الكفارة[١] ، واليوم التاسع من شهر «آب»[٢] فإنه يستمر من المساء إلى المساء ، وليس هنالك أحكام وتقاليد للصيام العادية ، وقد رُغِّب في الصدقة وإطعام المساكين ، وخصوصاً توزيع العشاء المعتاد التقليدي .

إن الأيام التسعة الأولى من شهر «آب» ، وبعض أيام بين اليوم السابع عشر من شهر «تموز» وبين اليوم العاشر من شهر «آب» تعتبر أيام صوم جزئي فيحرم فيها تناول اللحوم ، وتعاطي الخمور فقط[٣] .

الصـوم عنـد المسيحييـن :

أما الصوم عند المسيحيين فيطول شرحه وتفصيله ، لأن الديانة المسيحية هي من أقل الديانات تشريعاً فقهياً وأحكاماً كليّة تشمل أدوار التاريخ والمجتمعات المسيحية والطوائف الدينية كلها وأكثرها تطوراً مع الزمن والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية أحياناً ، ولذلك يصعب أن يطلق عليها اسم شريعة إلهية ، وقد حاولنا أن نقدم صورة موجزة عن الصوم عند المسيحيين وما مرَّ به من أدوار وأطوار .

«المسيح صام أربعين يوماً قبل أن يبدأ رسالته ، ومن المرجَّح أنه كان يصوم يوم الكفارة ، الذي كان الصوم المفروض في الشريعة الموسوية ، ككل يهودي مخلص ، إنه لم يشرع أحكاماً للصوم ، إنه خلَّف المبادىء وترك كنيسته تقنِّن قوانين لتطبيقها ، وليس لأحد أن يزعم أنه أصدر قوانين

(١) وهو اليوم العاشر من الشهر السابع (تشري) (Tishri) «كما في دائرة المعارف اليهودية» وفي كتاب «اليهودية في الإسلام»: Judaism in islam by Abraham 1. Katish (New York 1954) .

(٢) وهذا الصوم شرع تذكاراً لإحراق الهيكل المرة الأولى أو الثانية .

(٣) مقتبس وملخص من «دائرة المعارف اليهودية» المجلد الخامس ، طبعة ١٩١٦م ، الولايات الأمريكية المتحدة (Jewish Encyclopeadia) .

عن الصوم رأساً. إننا نقرأ في المصادر المسيحية حديثاً عن صوم «بولس» والمسيحيين الأولين أن المسيحيين الذين كانوا من السلالة الإسرائيلية ظلوا يصومون يوم الكفارة. وينوه به الراهب ليوك LUKe كيوم يحتفل به ، ولكن المسيحيين الذين ينتمون إلى أصول أخرى لم يلحوا على ذلك.

وبانتهاء القرن المسيحي الأول ونصف قرن بعد وفاة القديس «بولس» نواجه رغبة ملحة في تقنين القوانين للصوم ، وقد كان ذلك موكولاً ، إلى تقوى الصائم ، نرى الرهبان وبعض رجال الكنيسة يقترحون صياماً ليقاوم به المسيحيون الإغراءات (المادية والجنسية). وكان يسود في ذلك العصر شعور بالواجب ، وتحذير عن أن يظل الصوم عملاً خارجياً لا يؤثر في نفس الصائم. ويتحدث القديس «إيرينيس» عن أنواع من الصيام ، منها ما يستغرق اليوم ، ومنها ما يستغرق يومين ، أو بضعة أيام ، ومنها ما كان يستغرق أربعين ساعة متوالية. وقد استمر هذا الوضع مدة طويلة ، وكان صوم «جمعة الآلام أو الصلبوت» صوماً شعبياً عاماً ، وكان صوم يوم الأربعاء ، ويوم الجمعة في كل أسبوع شائعاً في بعض الأقطار في القرن الثاني المسيحي ، وكان الذين ينتظرون الاصطباغ (التعميد) ، يصومون يوماً أو يومين ، وكان يشترك فيه الذين يأخذون الاصطباغ والذي يتولى ذلك.

وهنالك خلافات جزئية في مناهج الصوم وأحكامه في الطوائف المسيحية[١] ، وقد نال الصوم قسطاً كبيراً من التنظيم والتقنين في فترة بين القرن الثاني والقرن الخامس المسيحيين ، فقد أصدرت الكنيسة قائمة أحكام وتوجيهات عن الموضوع ، وقد اتسم الصوم بصلابة وشدة في

(١) اقرأ التفصيل في «دائرة معارف الأديان والأخلاق».

القرن الرابع ، فقد انتقل من طور الرقة والتوسُّع والمرونة إلى طور الصَّلابة والغلظة والتدقيق ، وقد حدد اليومان اللذان يسبقان «عيد الفصح» بالصوم في هذا العصر ، وكان الصوم في هذين اليومين ، ينتهي في نصف الليل ، والمرضى الذين لا يستطيعون أن يصوموا في هذين اليومين ، كان يسمح لهم أن يصوموا يوم «السبت» ، وقد سُجِّلت في تاريخ المسيحية والمسيحيين في القرن الثالث أيام الصوم ، وكان هنالك اختلاف في نهاية الصوم ، فكان بعضهم ينهي ويفطر عند صوت الديك ، وبعضهم إذا أرخى الليل سدوله .

أما صوم أربعين يوماً ، فلا يوجد له أثر إلى القرن الرابع الميلادي ، وكانت هنالك عادات وأوضاع للصوم يختلف باختلاف البلاد التي يسكنها المسيحيون ، فكان في «روما» صيام يختلف عن الصيام في «لانان» و«الإسكندرية» ، وكان بعضهم يمسك عن تناول الحيوانات ، خلافاً لغيره ، وبعضهم يجتزئ بالسمك والطيور ، وبعضهم يضرب عن البيض والفواكه ، وبعضهم يجتزىء بالخبز اليابس ، وبعضهم يكف عن كل ذلك ، وقد شرعت أيام أخرى للصوم في القرون المتأخرة تذكاراً لحوادث وأيام تتَّصل بحياة المسيح وبتاريخ المسيحية يطول عدّها[١] ، منها ما كان يستغرق ثلاث ساعات ، وأربعاً ، يمسك فيها الصائم عن الأكل والشرب ، قد حُدّدت أيام مختلفة في القرون الوسطى للصوم في العالم المسيحي ، تطورت مع تقدّم الزّمن ، وهي تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ، التي تحكم عليها الكنيسة المسيحيّة .

وبعد الإصلاح حدَّدت الكنيسة الإنجليزيّة أيام الصوم ، ولم تُقنِّن قوانين وحدوداً للصائمين ، تاركة ذلك لضمير الفرد ، وشعوره

---

(١) اقرأ التفصيل في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» .

بالمسؤولية ، ولكن قوانين البرلمان الإنكليزي في عهد «إيدرود السادس» و«جيمس الأول» و«مرسوم اليزيبت» فرض الإمساك عن اللحوم في أيام الصوم ، وبرّر ذلك بقوله : «إن صيد السمك ، والتجارة البحريَّة ، يجب أن تُشجَّع وتربح»[١] .

لذلك لمَّا شرع الله الصوم في الإسلام ، وفرضه على المسلمين ، قال : «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾»[٢] .

جناية التخيير وعدم التحديد ، والحرية الزائدة في الصوم ، على مقاصده ، وفوائده :

وقد تجرَّدت بعض الأديان والشرائع القديمة عن تعيين أيام الصوم وتحديدها بالبداية والنهاية ، وضبطها بالأحكام ، فكان الأمر بالخيار ، وكان الناس في كثير من الأديان مخيَّرين في اختيار الأيام التي يصومونها ، وفي تحديدها ، وكانوا مخيرين بين إمساك شامل عن المأكول والمشروب ، وبين تقليل من الطعام والشراب ، وكانوا مأمورين بترك بعض المطعومات ، واختيار بعضها ، كما جرى العمل به في بعض الديانات الهندية ، فيمسك بعضهم عن أكل اللحوم ، وبعضهم عمَّا طبخ على النار ، ويجتزىء بعضهم بألوان من الطعام ، أو بالماء الممزوج بالملح[٣] .

---

(١) مقتبس من مقال «الصوم عند المسيحيين (Fasting, Christian) في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» (Encyclopedia of Beligions and Ethics) .

(٢) سورة البقرة : ١٨٣ .

(٣) وهكذا كان يصوم زعيم الهند الكبير «غاندي» ويقلده بعض المضربين والمحتجين من زعماء الأحزاب ، ويسمى عندهم «برت» .

وقد جنى ذلك على الصوم قديماً ، فضيَّعه ، وأضعف قوته ، فكان للإنسان أن يصوم متى شاء ، وما شاء ، وأن يجتزىء بطعام واحد أو بشراب ، وأن يقتصر على المقدار القليل ، والأمر موكول إلى الصائم ، فتطرّق الوهن ، وتسرَّبت الخيانة إلى النفوس ، وتخطَّى الناس الحدود ، وصعبت المحاسبة ، فرب مفطر إذا حوسب تعلل بأنه قد صام فيما مضى ، ومن يدري ذلك؟ ورب متجاوز في الأكل إذا وجِّه إليه النقد اعتذر بأنه المقدار القليل الذي أمر به في الصوم ، وهكذا ضاع الصوم في الأمم القديمة ، وفقد تأثيره وفوائده الرُّوحية والخُلقية.

وإلى هذه الحكمة الدقيقة في التحديد والتعيين ، أشار شيخ الإسلام ، أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» فقال:

«وإذا وقع التصدِّي لتشريع عام ، وإصلاح جماهير الناس ، وطوائف العرب والعجم ، وجب ألا يخيَّر في ذلك الشهر ، ليختار كل واحد شهراً ليسهل عليه صومه ، لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتسلُّل ، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات الإسلام»[1].

ثم يقول وهو يذكر الحاجة إلى تعيين المقدار:

«ثم وجب تعيين مقداره لئلا يفرط أحد ، فيستعمل منه ما لا ينفعه وينجع فيه ، ويفرط مفرط ، فيستعمل منه ما يوهن أركانه ويذهب نشاطه ، وينـفِّـه[2] نفسه ، ويزيره القبور ، وإنما الصوم ترياق يستعمل لدفع السموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطية اللطيفة الإنسانية ومنصَّتها ،

---

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص٣٧.
(٢) نفه وأنفه الناقة: أعياها ، وأكلها.

فلا بد من أن يتقدر بقدر الضرورة[١]».

تقليـل الغـذاء وتحديـده ، أم إمسـاك مطلـق؟ :

ويقارن بين منهجين للصوم المعروفين عند الطوائف والأمم ، الأول الإمساك عن الأكل والشرب ، وما ينافي الصوم بتاتاً في مدة محدودة معلومة ، والثاني: تقليل الغذاء ، أو الاجتزاء بشيء واحد ، وترك بعض المرغوبات والمألوفات ، فيفضل الأول على الثاني في ضوء التجارب والتحليل العلمي ، وعلم النفس. يقول:

«ثم إن تقليل الأكل أو الشرب ، له طريقان ، أحدهما: ألا يتناول منهما إلا قدراً يسيراً ، والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات ، زائدة على قدر المعتاد ، والمعتبر في الشرائع هو الثاني؛ لأنه يخفِّف وينفِّه ، ويذيق بالفعل مذاق الجوع والعطش ، ويلحق البهيميَّة حيرة ودهشة ، ويأتي عليها إتياناً محسوساً ، والأول ، إنما يضعف ضعفاً يمر به ، ولا يجد بالاً حتى يُدنفه.

وأيضاً ، فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلا بجهد ، فإن الناس على منازل مختلفة جداً ، يأكل الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين ، والذي يحصل به وفاء الأول هو إجحاف الثاني»[٢].

ويذكر أنه لا بد من الاعتدال في هذا التوقيت والتحديد ، فيقول:

«ثم يجب أن تكون تلك المدة المتخللة غير مجحفة ولا مستأصلة ، كثلاثة أيام بلياليها ، لأن ذلك خلاف موضوع الشرع ، ولا يعمل به جمهور المكلفين»[٣].

---

(١) حجة الله البالغة ج٢ ص٣٦.

(٢) حجة الله البلاغة ج٢ ص٣٧.

(٣) أيضاً: ص٣١.

صيـام مجمـوعة متتابعـة ، أم متشتتـة موزعـة؟ :

وكانت الأيام التي تصام في كثير من الديانات القديمة ، وعند طوائف من الأمم أياماً موزعة مبعثرة في طول السنة ، تتخلل بينها فترات طويلة تفقدها التأثير في الأخلاق والميول والعادات ، ولا تجعل النفس تنصبغ بها ، فكان من المصلحة والحكمة أن تتوالى هذه الأيام وأن تتكرر ، يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمه الله :

«يجب أن يكون الإمساك فيها متكرِّراً ليحصل التمرّن والانقياد ، وإلا فجوع واحد أيّ فائدة يفيد ، وإن قوي واشتدَّ»[١] .

وقد جاء التشريع الإسلامي للصوم مستوفياً لجميع هذه الشروط والصفات ، محققاً لجميع هذه الأغراض والنتائج الروحية والخلقيّة ، والنفسية والاجتماعية وكان ذلك صيام رمضان الذي فرضه الله على المسلمين .

وتقدم صوم رمضان ، صوم يوم عاشوراء الذي كان اليهود يصومونه وكان كثير من العرب في الحجاز يصومونه كذلك ، والموضوع يحتاج إلى شيء من الشرح والتفصيل .

صـوم عاشـوراء :

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا؟ قالوا : هذا يوم صالح! هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى ، قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر بصيامه»[٢] وفي

---

(١) أيضاً : ص ٣٧ .

(٢) الجامع الصحيح للبخاري . كتاب الصوم «باب صيام يوم عاشوراء» .

رواية مسلم: «هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى». وزاد البخاري في الهجرة في رواية أبي بشر: «ونحن نصومه تعظيماً له» وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسئلوا عن ذلك ، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون ، فنحن نصومه تعظيماً له ، فقال النبي ﷺ: نحن أولى بموسى منكم ، فأمر بصومه»[١] وروى الطبراني في المعجم: «أنه عليه السلام لما دخل المدينة ، وجد اليهود صاموا عاشوراء ، فسأل أي يوم هذا؟ قالوا: عاشوراء ، خلص فيه موسى عليه السلام من فرعون ، فقال النبي ﷺ: «نحن أحق باتباع موسى عليه السلام».

وقد استشكل ذلك العالم الرياضي الكبير أبو الريحان البيروني[٢] (م٤٤٠هـ) ، وشك في صحة الأحاديث الواردة في ذلك اعتماداً على الحساب ، ودراسة التقويم اليهودي ، وتطبيقه بالتقويم العربي ، قال في كتابه: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»:

«وقد قيل إن عاشوراء هو عبراني[٣] ، معرب يعني عاشور ، وهو العاشر من «تشري» اليهود الذي صومه صوم الكبُّور ، وأنه اعتبر في شهور العرب ، فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم ، كما هو في اليوم العاشر من أول شهور اليهود ، وقد فرض صومه في أول سنة الهجرة ، ثم

---

(١) صحيح مسلم ـ ج١ ـ كتاب الصوم «باب صوم يوم عاشوراء».

(٢) هو محمد بن أحمد الخوارزمي البيروني العالم الرياضي الفلكي الفيلسوف ، قيل: إنه توفي سنة ٤٤٠هـ وقيل ٤٥٠ ، وقيل غير ذلك.

(٣) أقول ، قال ابن منظور في لسان العرب «ج٦ ـ ص٢٤٥»: وعاشوراء ، وعشوراء ، ممدودان ، اليوم العاشر من المحرم ، وقيل: التاسع ، قال الأزهري: لم يسمع في أمثلة الأسماء اسم على فاعولاء ، إلا أحرف قليلة».

نسخه صوم رمضان الآتي بعده. وروي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، رأى اليهود يصومون عاشوراء ، فسألهم عنه ، فأخبروه ، أنه اليوم الذي أغرق الله فيه فرعون وآله ونجَّى موسى ومن معه. فقال عليه السلام: «نحن أحق بموسى منهم». فصام وأمر أصحابه بصومه ، فلما فرض صوم شهر رمضان ، فلم يأمرهم بصوم عاشوراء ، ولم ينههم.

وهذه رواية غير صحيحة ، لأن الامتحان يشهد عليها ، وذلك لأن أول المحرم كان سنة الهجرة يوم الجمعة السادس عشر من تموز سنة ثلاث وثلاثين وتسعمئة للإسكندر. فإذا حسبنا أول سنة اليهود في تلك السنة كان يوم الأحد الثاني عشر من أيلول ، ويوافقه اليوم التاسع والعشرون من صفر ، ويكون صوم عاشوراء يوم الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الأول ، وقد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول. فما ذكروه من اتفاقهما حينئذ محال على كل حال».

وقال:

«وأما قولهم: إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه. وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من «نيسن» وهو اليوم السابع من أيام الفطير ، وكان أول فصح اليهود بعد قدوم النبي المدينة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من «آذار» سنة ثلاث وثلاثين وتسعمئة للإسكندر ، ووافقه اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، فإذاً ليس لما رووه وجه البتة»[1].

وكلام البيروني ـ على غزارة علمه بالرياضيات وذكائه النادر ـ مؤسس على عدة افتراضات.

فمنها أنه فهم أن هذه المحاورة التي ذكرها ابن عباس وغيره ، كانت

---

(١) «الآثار الباقية عن القرون الخالية» ص٣٣١.

في أول يوم قدم فيه النبي ﷺ المدينة ، لأن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لمّا قدم النبي ﷺ المدينة» أو (لما دخل المدينة) لذلك قال: قد كانت هجرة النبي عليه السلام في النصف الأول من ربيع الأول ، وقد نشأ هذا الوهم لعدم ممارسته لصناعة الحديث ، وجهله لأساليب كلام الصحابة رضي الله عنهم ، وتعبيراتهم ، فهذا أسلوب شائع في أحاديثهم. فقد روى أبو داود عن أنس بن مالك ، قال: «قدم النبي ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر» فهل يفهم من ذلك أن قدومه صادف يوم عيد وفرح عندهم؟ وهل يمكن أن يصادف يومين يلعبون فيهما؟ وقد ورد نفس هذا التعبير في تأبير النخل وغير ذلك.

وقد نبَّه على ذلك العلامة ابن حجر العسقلاني. قال:

«وقد استشكل ظاهر الخبر لاقتضائه ، أنه ﷺ حين قدومه المدينة ، وجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، وإنما قدم المدينة في ربيع الأول ، والجواب عن ذلك ، أن المراد ، أن أول علمه بذلك ، وسؤاله عنه ، كان بعد أن قدم المدينة ، لا أنه قبل أن يقدمها علم ذلك ، وغايته أن في الكلام حذفاً ، تقديره قدم النبي ﷺ المدينة ، فأقام إلى يوم عاشوراء ، فوجد اليهود فيه صياماً»[١].

إذاً فلا إشكال ولا تناقض بين ما ورد في الحديث ، وبين ما تحقَّق بالتقويم.

والافتراض الثاني: أنه فرض أن صوم عاشوراء المذكور في الحديث ، «هو العاشر من شهر تشري اليهود ، الذي صومه صوم الكبُّور»

---

(١) فتح الباري ج٤: ص٢١٤ ـ ٢١٦.

يعني صوم يوم الكفارة المشهور عند اليهود. واليوم المحتفل به أكثر من كل يوم وصوم، وهو المذكور في كتبهم وشريعتهم بنفس الصيغة (Yom Kippur) ويقال في الإنجليزية [١] Day of Atonement.

وهذا لا يصح ولا يتمشى مع لفظ الحديث، ونصوص التوراة، فإنه صوم كفارة عن ذنب كبير، وجريمة قومية تاريخية[٢] ويوم حزن وحداد، وإيلام نفس، فقد جاء في اللاويين، أو سفر الأحبار، عن صوم الكفارة، الواقع في عاشر الشهر السابع تشري:

ويكون لكم فريضة دهرية أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون، الوطني، والغريب النازل في وسطكم، لأنه في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم» أمام الرب تطهرون[٣]. وجاء في موضع آخر:

«وكلَّم الرب موسى قائلاً: أما العاشر من هذا الشهر السابع، فهو يوم الكفَّارة محفلاً مقدساً يكون لكم، تذللون نفوسكم، وتقربون وقوداً للرب، عملاً ما لا تعملون في هذا اليوم عينه، لأنه يوم كفارة للتكفير عنكم، أمام الربّ إلهكم»[٤].

---

(١) راجع «دائرة المعارف اليهودية».

(٢) لا يبعد أن يكون صوم كفارة عن عبادة العجل التي تورط فيها اليهود على إثر ذهاب موسى إلى ربه الذي قال عنه القرآن: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ وعوقبوا على هذه العبادة بأن يقتل منهم الأبرياء المجرمين فقد جاء في القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ إلخ. وقد خلف ذلك صوم فرض على أجيال اليهود إلى الأبد، ويؤيده ما جاء في كتاب «Judaism in Islam»: «قضى موسى أربعين يوماً على الجبل، ونزل يوم الكفارة».

(٣) اللاويين، الإصحاح السادس عشر (٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) الكتاب المقدس، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، «ترجمة مرسلي الجمعية الأمريكانية» «طبع نيويورك».

(٤) اللاويين، الإصحاح الثالث والعشرون (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨).

وجاء في سفر العدد:

«وفي عاشر هذا الشهر السابع، يكون لكم محفل مقدس، وتذلّلون أنفسكم عملاً ما لا تعملون»[١].

وبالعكس من ذلك، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة ما يصرّح بأنّ يوم عاشوراء «الذي شُرِع صومه للمسلمين» كان يوم فرح وعيد عند اليهود، فقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري، قال: كان يوم عاشوراء تعدّه اليهود عيداً. قال النبي ﷺ: «فصوموه أنتم»[٢] ولمسلم عن قيس بن مسلم بإسناده: قال: كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء، يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليّهم وشارتهم[٣] فقال رسول الله ﷺ: «فصوموه أنتم»[٤] وقد روى كريب بن سعد عن عمر بن الخطاب، قال: «إن الله تبارك وتعالى لا يسألكم يوم القيامة إلا صيام رمضان، وصيام يوم الزينة» يعني يوم عاشوراء[٥] إذاً فلا يصحّ أن يقال: إنه كان يوم الكفارة، فقد كان هذا اليوم يوم حزن وعقوبة، وذلٍّ ومهانةٍ، وعاشوراء المذكور في الحديث يوم ترويح للنفس، وفرح وسرور، وزينة وتجمُّل.

وقد وقع في هذا الخطأ والوهم رجالٌ في الشرق والغرب غير البيروني، واتّجه إلى ذلك بعض علماء الحديث في هذا العصر، وقد جاء في كتاب «اليهودية في الإسلام» «Judaism in Islam» في ذكر يوم الكفارة:

---

(١) سفر العدد، الإصحاح التاسع والعشرون (٧).

(٢) كتاب الصوم «باب صيام يوم عاشوراء» ج٤.

(٣) قال العسقلاني: أي هيئتهم الحسنة.

(٤) كتاب الصوم.

(٥) أخرجه ابن مردويه، راجع كنز العمال ج٤ ص٣٤.

«وقد قرّره محمد في بداية الأمر كيوم صوم للمسلمين»[١].

ولا بد أن نجعل ما قاله اليهود عن عاشوراء ، «أنه يوم صالح ، يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم» ميزاناً في هذا البحث ، فلا بد أن ينطبق هذا الوصف على اليوم الذي نبحث فيه ، وقد جاءت تسمية هذا اليوم الذي نجى الله فيه بني إسرائيل من فرعون وآل فرعون «بأبيب» صراحة في عدة مواضع من التوراة وهو الذي جرت تسميته «بنيسان» فيما بعد ، جاء في دائرة المعارف للبستاني في مادة «أبيب» Abib :

«كلمة عبرانية معناها أخضر ، وهي اسم الشهر الأول من السنة العبرانية ، ووضع اسمه موسى عليه السلام ، وهو يكاد يكون موافقاً لشهر «نيسان» (افريل) ، وبعد أن سبي الإسرائيليون إلى بابل ، غيّروا اسم هذا الشهر ، وسمّوه نيسان ، أي شهر الزهور ، وفي منتصفه كان عيد الفطير عندهم ، (خروج : ١٢ : ١٨)»[٢].

وقد أقرّ بذلك البيروني نفسه ، فقال فيما نقلنا عنه :

«وأما قولهم إن الله أغرق فرعون فيه ، فقد نطقت التوراة بخلافه ، وقد كان غرقه في اليوم الحادي والعشرين من نيسن (نيسان) وهو اليوم السابع من أيام الفطير» وقد جاء في التوراة (خروج ـ١٢ ـ ١٨) : «في الشهر الأول في اليوم الرابع عشر من الشهر مساءً تأكلون فطيراً إلى اليوم الحادي والعشرين من الشهر مساء» .

وبعد استعراض هذه النصوص ، ودراسة شريعة اليهود وتاريخهم وعاداتهم ، يرجّح الباحث أن أشبه يوم بيوم عاشوراء ، الذي جاء ذكره في

---

(١) Judaism in Islam by Abraham l. Katish Now York (1954).

(٢) يقول البستاني : أما أشهر الإسرائيليين الجارية ، فالشهر الأول من السنة هو شهر تشري ، وهذا يجعل شهر أبيب عندهم الشهر السابع من السنة .

حديث ابن عباس وغيره ، والذي شرع صومه في الإسلام ، وكان عزيمة قبل رمضان ، هو يوم يقع في منتصف شهر (أبيب) القديم ، أو شهر نيسان ـ كما اعتاد اليهود أن يسمّوه به بعد جلائهم إلى بابل ـ وهو عيد من أعيادهم التي يحتفلون بها ، ويظهرون فيها الفرح والسرور[١] ، وهو يوم وقع فيه خروج بني إسرائيل من مصر وغرق فرعون ، وقد جاء في (الإصحاح الرابع والثلاثون) :

(تحفظ عيد الفطير ، سبعة أيام تأكل فطيراً أمرتك في وقت شهر أبيب ، لأنك في شهر أبيب خرجت من مصر) وجاء في الإصحاح أيضاً (لأنه بيد قوية أخرجك الرب من مصر ، فتحفظ هذه الفريضة في وقتها من سنة إلى سنة)[٢] ومن المرجح أنه صادف اليوم العاشر من المحرم الشهر العربي الأول في السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخه صوم رمضان في نفس هذا العام .

وتطبيق الحساب القمري ، والتقويم العربي بالحساب الشمسي ، والتقويم اليهودي تطبيق تخميني تقديري ، بسبب النسيء الذي جرى عليه العرب قبل الإسلام ، وبعد الإسلام حتى أبطله الله بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية ، وأعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) وكان ذلك بوحي من الله تعالى وإلهام . فقد كان التقويم العربي اضطرب اضطراباً لا يهتدى فيه إلى الصواب ، ولا يرجع إلى الأصل القديم بمجرد الحساب ، فلا يصح أن يشك في صحة

---

(١) وقد يستشكل بعض الناس اجتماع الصوم والعيد في يوم واحد ، وهذا ناشىء من قياس الصوم عند اليهود والنصارى على الصوم الإسلامي ، وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية عن غرة الشهر السابع «إنه يوم صوم وعيد» .

(٢) الإصحاح ـ ١٣ .

الأحاديث الصحيحة المستفيضة اعتماداً على حساب تخميني مع اضطراب التقاويم ، وتعددها واختلافها في الجاهلية وفي الإسلام .

ويمكن أن يكون يهود المدينة منفردين بصوم عاشوراء ، قد التزموا صومه وتمسكوا به ، وجاروا فيه العرب الذين كانوا يصومونه إجلالاً لهذا اليوم الذي حدثت فيه الوقائع العظيمة ، وقد صح عن عائشة ، أنها قالت : (كانت قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصومه . . . الحديث[١]) وقد كانت لليهود في أنحاء الأرض ، وفي مختلف الأقاليم والعصور ، عادات في الصيام وأيام مخصوصة يصومها بعض اليهود ، ولا يصومها الآخرون ، وقد تقدم ما جاء في دائرة المعارف اليهودية في الحديث عن الصيام في الديانة اليهودية :

«وهنالك صيام شعبية محلية ، تختلف باختلاف الأقاليم والمناطق التي يسكنها اليهود منذ زمن بعيد» ويقول كذلك : وصيام تصومها بعض الطبقات دون بعض في ذكرى وقائع ومحن في تاريخ اليهود» ، فلا يستبعد أن صوم عاشوراء ، والتزامه في اليوم العاشر من المحرم ، الشهر العربي الأول ، كان من خواص اليهود العرب ، لذلك نرى المصادر اليهودية ساكتة عنه ، وحمله أكثر الباحثين فيهم على صوم يوم الكفارة المشهور العام في الديانة اليهودية ، الذي يصومه جميع طبقات اليهود في جميع المناطق التي يسكنونها ، وسارع إلى القدح في الأحاديث ، والشك في صحتها من حمله على صوم يوم الكفارة ، وما هو إلاَّ تسرّع في الحكم ، نشأ من عدم إحاطة بعادات اليهود ، ومذاهبهم في مختلف الأقاليم والعصور ، وقلة المصادر والمعلومات عن يهود الحجاز ، واليهود العرب ، الذين عاشوا في جزيرة العرب ، قروناً وأحقاباً ، كأمة ذات شأن

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الصيام «باب صوم عاشوراء».

وكيان ، وأخلاق وعادات وعقائد ، تأثرت بالبيئة والمحيط ، شأن جميع الأمـم والشعـوب البشـريـة ، والحضـارات والثقـافـات ، واللغـات ، واللهجات ، وبالله التوفيق[١].

فـرض الصـوم ، ومـا نـزل فيـه من آيـات:

فللحكم السامية ، والمقاصد الأخروية والدنيوية ، التي قدَّمناها ، والتي لا يحيط بها علم العلماء ، وذكاء الأذكياء ، ولإعانة الروح التي تجني عليها التخمة والحياة المترفة الرتيبة ، فتصبح هزيلة عليلة ، ولتمكين المسلم من أداء رسالته الخاصة ، ـ الخلافة ـ التي لا يقوى عليها إلا بالتوسط والاعتدال ، والصبر والاحتمال ، فرض الله صوم رمضان.

ولم يفرضه إلا بعد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والمسلمون إلى المدينة ، وانقضت أيام العسرة والمحنة ، وتهيَّأت لهم أسباب العيش ، حتى لا يقول قائل إن الصوم كان اضطرارياً ، ومن وحي البيئة والحالة الاقتصادية ، التي كان يعيش فيها المسلمون في مكة ، وأنه من شأن الفقراء والمساكين ، أو المضطهدين المعذّبين ، وأن الأغنياء والموسرين ، وأصحاب الأملاك والبساتين[٢] في غنى عن الصوم.

ولم يفرضه إلاّ بعد أن رسخت العقيدة في قلوب المسلمين ، وفعلت فعلها ، وألفوا الصلاة وهاموا بها ، وتلقّوا الأوامر والأحكام الشرعيّة بقبول واستعداد كأنهم كانوا منها على ميعاد ، وقد أحسن العلامّة ابن القيِّم الإشارة إلى ذلك فقال:

---

(١) استندنا في هذا البحث من مقال قيم للمرحوم الأستاذ أبي الجلال الندوي (مجلة «معارف» الشهرية: عدد٢ ـ مجلد٦٠ (اغسطس ١٩٤٧م).

(٢) كان الأنصار في المدينة أصحاب أملاك وبساتين ، وذوي يسار ، وسعة في الأموال ، وكذلك المهاجرون ، اشتغلوا بالتجارة ، فحسن حالهم واتسعت لكثير منهم الدنيا.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها ، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة ، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت أوامر القرآن ، فنقلت إليه بالتدريج .

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة ، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات[1] .

وأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ[2] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن

---

(١) زاد المعاد ـ ص ١٥٢ .

(٢) يعرف المستقرىء للغة العرب ومناهج كلامهم أن لهم تعبيرات مختلفة عن معنى القدرة على الشيء ، والإتيان بفعله ، تتصاعد وترتقي باعتبار التعسر ، أولها الاستطاعة ، وآخرها الإطاعة ، فلا تلجأ إلى هذا الأخير ، إلا إذا كان الفعل شاقاً مجهداً يستنفذ القوة ويستفرغ الجهد ، فلا يقول أحد إني أطيق أن أرفع اللقمة إلى فمي ، أو هذا القلم إلى أذني أو نحو ذلك مما لا عسر فيه ، بل يقول إني أطيق أن أحمل هذا الحجر الثقيل ، أو أن أسرد الصيام ، أو أن أصلي الليلة كلها مثلاً ، وقد نوه بذلك مدونو اللغة العربية وصيارفة كلام العرب ، قال العلامة ابن منظور ، في لسان العرب : «الطوق : الطاقة ، أي أقصى غايته ، وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقة منه» وقال الزبيدي في تاج العروس شرح القاموس : «الطوق : الوسع والطاقة . وأنشد الليث : «كل امرىء مجاهد بطوقه ـ والثور يحمي أنفه بروقه ، يقول : كل امرىء مكلف ما أطاق» وقال العلامة راغب الأصفهاني في مفردات غريب القرآن : «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بشيء» فقوله ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا ﴾ ما لا قدرة لنا به ، وذلك لأنه تعالى ، قد يحمل الإنسان ما يصعب عليه ، كما قال : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي خففنا عنك العبادات الصعبة ، التي في تركها الوزر ، وعلى هذا الوجه ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ =

. . . .

= ﴿وَجُنُودِهِۦ﴾ وقد يعبر بنفي الطاقة عن نفي القدرة» فكان معنى الآية ﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ مع شدة وتعب ، ومشقة عظيمة ، وهما الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يطيقان الصيام إلا مع جهد وإرهاق ، وتعريض النفس للهلاك ، والمرض الشديد.
وعلى ذلك فهمه ابن عباس رضي الله عنه ، كما روى عنه البخاري وأبو داود وغيرهما ، وقال: إن الآية نزلت في الشيخ الكبير الهرم «والعجوز الكبيرة الهرمة ، وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه قرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال: يكلفونه ، وهو الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة ، يطعمون كل يوم مسكيناً ، ولا يقضون وله طرق كثيرة عنه ، وأخرج الدار قطني عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين واحد ، فمن تطوع خيراً ، قال: زاد مسكيناً آخر ، فهو خير ، قال: وليست بمنسوخة ، إلا أنه رخص للشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام ، وأمر أن يطعم الذي يعلم أنه لا يطيقه ، (وإسناده صحيح ثابت) وروي للطحاوي عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال: الذين يتجشمونه ولا يطيقونه ، يعني إلا بالجهد: الحبلى ، والكبير ، والمريض ، وصاحب العطاس ، وقد نقل ذلك عن علي وأبي هريرة من كبار الصحابة رضي الله عنهم ، وعن مجاهد من كبار التابعين «وقد روي عن أنس ، أنه كان يفعل ذلك بعد ما أسنّ وكبر ، (أخرج أثره البخاري) وروى خالد الحذاء عن عكرمة ، أنه كان يقرأ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال إنها ليست بمنسوخة ، وروى الحجاج عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ قال: الشيخ ، والشيخة ، وعن سعيد بن جبير : أن ابن عباس رضي الله عنه كانت له جارية ترضع ، فجهدت ، فقال لها: أفطري ، فإنك بمنزلة الذين يطيقونه.
فكان الذين توجه إليهم الخطاب في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ على أقسام ثلاثة ، الأول: المقيم الصحيح ، فيتحتم عليه الصوم ، الثاني: المريض والمسافر ، فيباح لهما الإفطار ، مع وجوب القضاء ، الثالث: من يشق عليه الصوم بسبب لا يرجى زواله ، كالهرم ، والمرض المزمن ، فيفطران ويطعمان لكل يوم مسكيناً ، وكذلك الحامل والمرضع ، فتفطران وتقضيان ، وهكذا تبقى الآية محكمة لا نسخ فيها ، ولا تقدير لكلمة زائدة أو حذف ، أو تكلف شديد ، وقد ذهب إلى ذلك بعض كبار الصحابة من الراسخين في العلم ، يخرج بذلك هذا الأول عن الشذوذ والنكارة ، وتفسير القرآن بالرأي؛ وقد أنصف العلامة الآلوسي ، إذ قال في روح المعاني ، =

تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ

= والحق أن كلاً من القراءات يمكن حملها على ما يحتمل النسخ وعلى ما لا يحتمله ، ولكل ذهب بعض (ج١ ـ ص٣٧٠).

أما قول بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم بنسخ هذه الآية ، وقد ذهب إلى ذلك أكثر المتقدمين ، وكان هو المذهب المشهور في كتب التفسير والحديث. فقد نشأ ذلك عن قياس تعبيرات الصحابة ومناهج كلامهم على المصطلحات الأصولية المحررة في الأزمان المتأخرة ، وحملها عليها حملاً كلياً. فقد كان الصحابة والمتقدمون يتوسعون في إطلاق هذه الكلمات ، وقد يريدون بها معنى من معانيها اللغوية ، وينطقون بها بأدنى مناسبة أو وجه من الوجوه ، ويحسن أن ننقل هنا كلام شيخ الإسلام الدهلوي في هذا الموضوع ، قال رحمه الله : «ومن المواضع الصعبة في فن التفسير التي ساحتها واسعة جداً ، والاختلاف فيها كثير ، معرفة الناسخ والمنسوخ ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدمين والمتأخرين.

وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابة والتابعين ، أنهم كانوا يجعلون النسخ بإزاء المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء بشيء ، بإزاء مصطلح الأصوليين ، فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، إما بانتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر ، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً ، أو تخصيص عام ، أو بيان الفارق بين المنصوص ، وما قيس عليه ظاهراً ، أو إزالة عادة الجاهلية أو الشريعة السابقة ، فاتسع باب النسخ عندهم ، وكثر جولان العقل هنالك واتسعت دائرة الاختلاف» (الفوز الكبير في أصول التفسير ص١٨).

وقد آثر هذا القول ، واختاره بعض كبار العلماء في عصرنا ، والمتضلعين من علوم الدين ، كالعلامة المحقق الشيخ أنور شاه الكشميري ، والعلامة المحدث الشيخ شمس الحق الديانوي ، والأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله ، عدا العلامة المفتي محمد عبده الذي اشتهر عنه هذا القول ، بعدما سجله تلميذه النجيب العلامة السيد رشيد رضا في «تفسير المنار».

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

ليست هذه الآيات التي تضمَّنت وجوب الصوم، تشريعاً جافاً مجرداً، كالقوانين والمراسيم العادية، التي لا تعتمد إلاَّ على الرابطة السياسية أو الاجتماعية؛ التي تقوم بين الفرد والحكومة، إن هذه الآيات تخاطب الإيمان والعقيدة، والعقل والضمير، والقلب والعاطفة في وقت واحد، وتثير كل ذلك وتغذِّيه، وهكذا تهيِّيء الجو لقبول هذا التشريع وإساغته بل للترحيب به، واستقباله بنشاط وحماس، إنها آية في الإعجاز، وفي فقه الدعوة، وعلم النفس، والتشريع الحكيم، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

خاطب الله المكلَّفين بهذا التشريع بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهكذا هيَّأ المخاطبين لقبول كل ما يكلَّفون به ويطلب منهم مهما كان شاقاً وعسيراً، لأن صفة الإيمان تقتضي ذلك، وتوجبه، فمن آمن بالله، كإله وربٍّ، وسيِّد ومطاع، وصاحب الأمر والنهي، وخضع له بقلبه وقالبه، واستسلم له وأحبَّه من أعماق نفسه، كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر، وكل ما يوجّه إليه من طلب: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[٣] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٥]، والشريعة كلها ـ بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام ـ حياة للنفوس.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٥.

(٢) سورة فصلت: ٤٢.

(٣) سورة النور: ٥١.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٦.

(٥) سورة الأنفال: ٢٤.

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام ، ولكنه لم يكتبه عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان: وليس هو بدعاً في التشريع ، فقد كتبه على من سبقهم من أهل الكتاب ، وأهل الشرائع والأديان ، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ، ويهوِّن خطبه عليها ، فالإنسان ، إذا عرف أنه لم يكلَّف بشيء جديد ، وإنما هو شيء سبق وتقدَّم ، وقامت به الطوائف والأمم ، هان عليه الأمر ، وتشجع عليه.

ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط ، ولا مشقَّة ليس من ورائها قصد ، بل هو رياضة وتربية ، وإصلاح وتزكية ، ومدرسة خلقية ، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً ، زمامه بيده ، يملك نفسه وشهواته ، ولا تملكه ، لقد استطاع الإضراب عن المباحات والطيِّبات ، فهو أقوى على ترك الممنوعات والمحرمات ، ومن يترك الماء الزلال الحلال ، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربه ، كيف يقرب السُّحت الحرام ، والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش؟ لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ثم قال: لا تهولنكم عدة الشهر ، ولا تثقلن عليكم ، فإنما هي ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ تصام تباعاً ، وتنقضي سراعاً ، وما نسبة هذا الشهر - الذي لا يصام إلاّ نهاره - إلى العام الكامل ، الذي ينقضي في لذة مباحة ، ومتعة وراحة؟!

ثم إنه يستثنى من هذا التكليف المريض والمسافر ، ومن يعجز عن الصوم ، أو يخاف عليه منه.

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه ، إنه شهر نزل فيه القرآن ، الذي كان بعثاً جديداً للجيل الإنساني ، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشري ، فخليق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك بصيامه وقيامه حياة جديدة ، وإيماناً جديداً ، وقوة جديدة.

هذا هو الصوم الإسلامي ، أو الشحن الروحاني ، الزاخر بالحياة والمنافع والبركات ، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات ، التي لا تطيقها النفوس ، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] .

خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه :

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع ، وأوفاه بالمقصود، وأضمنه بالفائدة ، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير ، الذي خلق الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2] .

فخصّ شهراً كاملاً ـ وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ـ بصيام أيام متتابعات متواليات ، يصام نهارها ، ويفطر ليلها ، وهو العرف عند العرب في الصوم ، وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«ويضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس ، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم ، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء ، والشهر برؤية الهلال إلى رؤية الهلال ، لأنه هو شهر العرب ، وليس حسابهم على الشهور الشمسيّة»[3] .

لماذا خص رمضان بالصوم؟

وجعل الله الصوم في رمضان ، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر ، مرتبطاً

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٢) سورة الملك : ١٤ .

(٣) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٣٧ .

به ، فذلك قران السَّعدين ، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كلَّ يوم ، وكان أحقّ شهور الله ـ بما خصَّه الله من يُمن ، وسعادة ، وبركة ، ورحمة ، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفيّة روحيّة ـ بأن يصام نهاره ، ويقام ليله[١] .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من القرآن في رمضان ، يقول ابن عباس رضي الله عنه : «كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[٢] .

يقول العارف بالله ، العالم الرّباني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) في بعض رسائله :

«إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن ، وبهذه المناسبة ، كان نزوله فيه ، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرة من هذا البحر ، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله . وتشتت البال فيه سبب للتشتت في بقية الأيام ، وفي طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ،

---

(١) يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي : «إذا وجب تعيين ذلك الشهر ، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن ، وارتسخت فيه الملة المصطفوية ، وهو مظنة ليلة القدر» (حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٣٧) .

(٢) حديث متفق عليه .

ورضي عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فمنع من البركات ، وحرم من الخيرات»[١] .

ويقول في رسالة أخرى :

«إذا وفق الإنسان للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر؛ حالفه التوفيق في طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر في توزّع بال وتشتت حال ؛ مضى العام كلّه في تشتت وتشويش»[٢] .

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ ، قال : «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ، وأغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين» والأحاديث في الباب كثيرة .

موسم عالمي ، ومهرجان عام للعبادات ، والخيرات :

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً ، للعبادة ، والذكر ، والتلاوة ، والورع ، والزهادة ، يلتقي على صعيده المسلم الشرقي مع المسلم الغربي ، والجاهل مع العالم ، والفقير مع الغني ، والمقصِّر مع المجاهد ، ففي كل بلد رمضان ، وفي كل قرية وبادية رمضان ، وفي كل قصر وكوخ رمضان ، فلا افتيات في الرأي ، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم ، فكل ذي عينين ، يستشعر جلاله وجماله ، أينما حلّ ورحل في العالم الإسلامي المترامي الأطراف ، تغشى سحابته النورانية المجتمع الإسلامي كله ، فيحجم المفطر المتهاون بالصوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين ، فلا يأكل إلا متوارياً أو خجلاً ، إلا إذا كان وقحاً مستهتزاً من الملاحدة ، أو الماجنين ، أو كان من المرضى والمسافرين ، الذي أذن الله لهم في الإفطار ، فهو صوم اجتماعي عالمي له جو خاص ، يسهل فيه

(١) رسائل الإمام الرباني ، الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ، ـ ج١ ـ ص٨ .
(٢) رسالة (٤٥) أيضاً .

الصوم ، وترقّ فيه القلوب ، وتخشع فيه النفوس ، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات ، والبرّ والمواساة.

الجو العالمي ، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع :

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بنظره الدقيق العميق ، فقال وهو يشرح حديث : «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة» . . . إلخ :

«الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً ؛ نفع عن غوائل الرسوم ، وإذا التزمته أمة من الأمم ؛ سلسلت شياطينها ، وفتحت أبواب جنانها ، وغلّقت أبواب النيران عنها»(١) .

ويقول في موضع آخر :

«وأيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد ، في زمان واحد ، يرى بعضهم بعضاً معونة لهم على الفعل ، ميسر عليهم ومشجع إياهم» .

«وأيضاً فإن اجتماعهم هذا لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم ، وأدنى أن ينعكس أنوار كُمَلهم على من دونهم ، وتحيط دعوتهم من وراءهم»(٢) .

الفضائل ، وما لها من تأثير وقوة :

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس ، والمنافع المقررة عند العقل ، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج١ ـ ص٥٩ .
(٢) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٣٧ .

المعركة ، كما يعتقد بعض الناس ، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية ، وإنكار للواقع .

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة ، وتفيض على هذا العالم الحياة والنشاط هي الإيمان بالنفع ، ذلك الإيمان هو الذي يوقظ الفرح في يوم شات ، شديد البرد ، فيحرم عليه الدفء ، ويبكر به إلى الحقل ، وفي يوم صائف شديد الحر يهوّن عليه وهج الشمس ولفح السموم ، ويفصل بين التاجر وأهله ، ويتوجه به إلى متجره ، ذلك الإيمان ، هو الذي يزين للجندي الموت في ساحة القتال ، وفراق الأحبة والعيال ، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً ، إن كل ذلك إيمان بالمنافع ، وحرص على الخير ، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة .

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس ، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال ، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل ، ونزل بها الوحي ، ونطقت بها الصحف ، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه ، وجزائه في الدنيا والآخرة .

لقد علم الجميع : أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيد للصحة ، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام ، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب ، واتَّخموا بأنواع من الطعام والشراب ، فأصيبوا بأمراض جسدية وخلقية ، كل ذلك معروف ومشاهد ، وآمن الناس بفوائد الصوم الطبية ، وآمنوا بأنه ضرورة صحية ، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية .

ولكن إذا سأل سائل ما عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبية ، ومصالح اقتصادية؟ وما عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الاعتدال في الصحة أو الاقتصاد في المعيشة؟ كان الجواب المقرر ، أنه عدد ضئيل جداً ، ضئيل حتى في الشتاء مع أن الصوم فيه سهل هين ، ورغم أن

الصوم الطبي ، أو الاقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي.

ثم ننظر في عدد الصائمين الذي يصومون ، لأنهم يعتقدون أن الصوم فريضة دينية ، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه ، وتكفَّل بجزائه ، فنرى أن هذا العدد - مهما طغت المادية ، وضعف الدافع الديني - عدد ضخم لا يقل عن ملايين ، وأن هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار ، ويقوموا في الليل ، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء عند أهل الإيمان أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء ، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التي لهج بها الاقتصاديون.

ذلك لأن المؤمنين سمعوا في الصوم ما هوّن عليهم متاعب الصوم ، وشجعهم على احتمال الحر ، والجوع ، والعطش ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف» قال الله تعالى: «إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي ، للصائم فرحتان فرحة عند فطوره وفرحة عند لقاء ربّه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١] وروى سهل ابن سعد عن النبي ﷺ قال: «في الجنة باب يدعى الريَّان ، يدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لم يظمأ أبداً»[٢] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

---

(١) رواه الستة.

(٢) للشيخين.

(٣) رواه البخاري.

العناية بروح الصوم ، وحقيقته ، ومقاصده ، والجمع بين «السلب» و«الإيجاب» :

إن صوم رمضان لهيئته الاجتماعية وشيوعه في المجتمع الإسلامي عرضة لأن يتغلب عليه التقليد واتّباع العادة ، وألا يصومه كثير من الناس ، إلا مسايرة للمجتمع والبيئة ، وتفادياً من الطعن والملام ، وأن يشار إليهم بالبنان ، ولا يرافقه الإيمان والقصد ، والتفكير في عظم شأنه وموقعه من الله ، وأجره وثوابه ، أو يصومه بعض الناس لغايات مادّية ، أو مقاصد صحية واقتصادية ، فكان من حكمة النبوة الباهرة ، وفقه الرسالة العميق ، أن اشترط النبي ﷺ للصوم المقبول عند الله الإيمان والاحتساب ، فقال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1]. وقد يتساءل الرجل الذي لم يعرف دخائل النفس الإنسانية والأنماط البشرية المختلفة : إن رمضان لا يصومه إلا المسلمون ، ولا يدعوهم إلى ذلك إلا الإيمان والاحتساب ، فلماذا قيّده لسان النبوّة بصفة الإيمان والاحتساب ، فهو من قبيل تحصيل الحاصل؟ ولكن الذي توسعت دراسته للحياة ، وتعمّقت معرفته للدوافع النفسية ، والعوامل الخلقية والاجتماعية ، وقف خاشعاً أمام هذه الحكمة ، والعلم الدقيق العميق ، وشهد بأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وقد جاء تفسير الإيمان والاحتساب في حديث آخر ، بأن يكون الإنسان راجياً للثواب ، مصدقاً لما وعد الله على هذا العمل بالمغفرة والرضا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال: «قال رسول الله ﷺ: أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل

---

(١) حديث متفق عليه.

(٢) سورة النجم: ٣ ـ ٤.

يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها ، وتصديق موعودها ، إلا أدخله الله بها الجنة»[١].

ثم إن التشريع الإسلامي لم يكتف بصورة الصوم ، بل اعتنى بحقيقته وروحه كذلك ، فلم يحرم الأكل والشرب ، والصِّلات الجنسية في الصوم فحسب ، بل حرّم كل ما ينافي مقاصد الصوم وغاياته ، وكل ما يضيّع حكمته وفوائده الروحية والخلقية ، فأحاط الصوم بسياج من التقوى والأدب وعفة اللسان والنفس ، فقال النبي ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ، ولا يصخب ، وإن سابّه أحد ، أو قاتله ، فليقل إني صائم»[٢]. وقال: «من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[٣] ، وذكر أن الصوم الذي يخلو من روح التقوى والعفاف صورة مجردة من الحقيقة ، وجسم بلا روح ، فقال: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[٤] ، وعن أبي عبيدة رفعه ، قال: «الصوم جُنَّة ما لم يخرقها»[٥].

وليس الصوم الإسلامي مجموعة من أمور سلبية فقط ، فلا أكل ولا شرب ، ولا غيبة ولا نميمة ، ولا رفث ولا فسوق ولا جدال ، بل هو مجموع أمور إيجابية كذلك ، فهو زمن العبادة ، والتلاوة ، والذكر ، والتسبيح ، والبرّ ، والمواساة ، وقد قال النبي ﷺ: «من تقرَّب فيه بخصلة من الخير ، كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه ، كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر ، والصبر

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) للبخاري ، وأبي داود ، والترمذي.
(٤) رواه الدارمي في سننه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) رواه النسائي ، وزاد في الأوسط «قيل بم يخرقها؟ قال بكذب أو غيبة».

ثوابه الجنة ، وشهر المواساة»[١] . وعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال: «من فطَّر صائماً كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»[٢] .

وألهم الله الأمة المحافظة على صلاة التراويح ، التي ثبت أصلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد تركها بعد ثلاثة أيّام ، لئلاّ تفرض على أمته فرضاً فتشقّ عليها ، فقد روى ابن شهاب ، قال: أخبرني عروة أن عائشة رضي الله عنها أخبرته: «أن رسول الله ﷺ ، خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد ، وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلى فصلُّوا معه فأصبح النَّاس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة ، عجز المسجد عن أهله ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على النَّاس ، فتشهَّد ، ثم قال: أما بعد ، فإنه لم يخف عليّ مكانكم ، ولكني خشيت أن تفرض عليكم ، فتعجزوا عنها ، فتوفي رسول الله ﷺ ، والأمر على ذلك»[٣] .

وقد قام بها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وعضَّت عليها الأمة بالنواجذ في أعصارها وأمصارها ، حتى أصبحت شعاراً لأهل السنَّة ، والصالحين من الأمة ، وكان للتراويح فضل كبير في شيوع حفظ القرآن في الأمة[٤] ، ومحافظتها عليه ، وبقائه في الصدور ، وفضل كبير في توفيق

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن سلمان الفارسي رضي الله عنه (في حديث طويل) .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) رواه البخاري ، في «باب فضل من قام رمضان» .

(٤) وقد أكرم الله بعض الأقطار الإسلامية البعيدة عن مهد الإسلام «كالهند وباكستان» بالعناية الزائدة بهذه الصلاة وختم القرآن فيها ، يهتم لها العامة والخاصة ، ويحرصون=

العامة والجماهير لقيام الليل والعبادة.

وبذلك كلِّه أصبح شهر رمضان (مهرجاناً) للعبادة، وموسماً للتلاوة، وربيع الأبرار والمتقين، وعيد العبَّاد والصالحين، تتجلَّى فيه عناية هذه الأمة بإقامة أحكام دينها وغرامها بالعبادة[1]، وإخباتها إلى الله، ورقة القلوب، والتنافس في البرِّ والمواساة في أروع مظاهره، لا تبلغه، ولا تبلغ عشر معشاره أمة من الأمم، أو طائفة من طوائف بني آدم ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2].

= عليها كل الحرص، فما من مسجد صغير خامل في كل حي من الأحياء، إلا وتقام فيه صلاة التراويح، وتختم فيها على الأقل ختمة، أما المساجد الكبيرة والأحياء الدينية، فتختم فيها عدة ختمات، ولا شك أن هذه السنة قد أفادت انتشار حفظ القرآن في الشعب، فكثر عدد الحفاظ كثرة تستدعي العجب، وحملت على الاحتفاظ بحفظ القرآن، ومدارسته طول السنة، حتى كان حفاظ فحول، برعوا وفاقوا في حفظه وإتقانه.

(١) إن مما توارثته الأجيال الإسلامية في مختلف عصورها، هو الإكثار من العبادة، وأنواع البر، والتقرب إلى الله في رمضان، والإكثار من التلاوة، وتدارس القرآن وختمه، والتنافس فيه والجهاد، إلى حد لا يكاد يصدقه من لم يعرف قوة إرادة أهل الإيمان والصدق، وما تصنع الروحانية القوية من عجائب وخوارق، وعلى ذلك، أدركنا العلماء الربانيين، والدعاة المخلصين في بلادنا، وشاهدنا حالهم، فإن بعضهم يختم كل يوم ختمة، ولا تكتحل عينه بنوم في الليل، هذا مع تقليل زائد من الطعام، فيغتنمون كل لحظة من اللحظات في هذا الشهر المبارك، وكل نفس من الأنفاس، فلا ينفقونه إلا فيما يقربهم إلى الله، ويزيد في قيمة رمضان، ووزنه في الميزان، وإذا رآهم الإنسان؛ عرف قيمة رمضان وكرامته، وعرف قيمة الحياة، وصدق ما روي في كتب التاريخ والتراجم عن عبادة السلف، والمتقدمين، وعلو همتهم وقوة إرادتهم.

(٢) سورة الجمعة: ٤.

تفريط المسلمين في مقاصد الصوم ، وجناية العادات على العبادات :

ولكن المسلمين قد جنوا في كثير من الأحيان على أنفسهم ، وعلى مقاصد الصوم وفوائده بالعادات التي يبتدعونها ، وبجهلهم وإسرافهم في الإفطار والطعام ، الإسراف الذي يفقد الصوم الشيء الكثير من فائدته وقوته الإصلاحية والتربويَّة ، وقد لاحظ ذلك بدقة حجَّة الإسلام الغزالي ، وتحدَّث عنها ببلاغة ، يقول رحمه الله :

«الأدب الخامس ، ألا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار ، بحيث يمتلىء جوفه ، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال ، وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله ، وكسر الشهوة ، إذا تدارك الصائم عند فطره ، ما فاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام ، حتى استمرت العادات ، بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان ، فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر ، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء ، وكسر الهوى ؛ لتقوى النفس على التقوى ، وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء ، حتى هاجت شهوتها ، وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، وأشبعت ، زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة ، لو تركت على عادتها ، فروح الصوم وسرّه ، تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل ، وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، فأمَّا إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينتفع بصومه .

بل من الآداب ألا يكثر النوم بالنهار ، حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، وليستديم كل ليلة قدراً

من الضعف ، حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان ألا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء»[١] .

الصيانة من التحريف والغلو :

كان رمضان مظنة للغلوّ ، والتعمُّق في الدين ، فقد يفهم كثير من الناس أن موضوعه وغايته قهر النفس ، وترويضها على ترك الشهوات والرغبات ، وإجهادها إلى أقصى حدٍّ ممكن ، فكلما أمعن الإنسان في إجهادها وقهرها ، وكلما طالت الفترة في الأكل والشرب والتمتّع ، وطالت مدة الجوع والظمأ ، وكلَّما أظهر الصبر والاحتمال ؛ كان أقرب إلى الله وأحب إليه ، وأبعد عن المترفهين المترفين والمتنعّمين المتمتّعين ، وأدخل في غمار المتقين الصابرين .

وهذا الفهم الخاطىء السطحي ، هو الذي زيّن لكثير من المتديّنين والمتقشفين في الأمم السابقة ، والديانات القديمة الغلوّ في العبادات عامة ، وفي الصوم خاصة ، فأطالوا مدة الإمساك عن الطعام والشراب ، وأخَّروا الفطور ، وعجّلوا السُّحور ، أو تحرّجوا عن التسحُّر مطلقاً ، ورأوه عجزاً في الدين ، وضعفاً في الصائمين ، أو وصلوا الصوم بالصوم ، والليل بالنهار ، وقلَّدهم في ذلك غلاة المسلمين ، والطوائف المبتدعة المتشددة ، فكان كل ذلك تحريفاً في الدين ، وجهاداً في غير جهاد ، ورهبانية ابتدعوها ، وباباً واسعاً لفساد شامل ، وتحدياً لقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٣] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن

(١) إحياء العلوم ـ ص٢١١ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٣) سورة الحج : ٨٧ .

الدين يسر ، ولأن يشادَّ هذا الدين أحد إلاَّ غلبه فسدِّدوا وقاربوا»[١] .

لذلك كله سدَّت الشريعة الإلهية الأخيرة الخالدة هذا الباب ، فحثَّت على السحور أولاً ، ورغَّب فيه رسول الله ﷺ ، واستحبه ، وجعله سنَّة للمسلمين ، فقد روى أنس بن مالك عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «تسحَّروا فإن في السحور بركة»[٢] وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله ﷺ ، قال: «فصلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السَّحر»[٣] وحذَّر عن تأخير الفطر ، وجعل التأخير فيه آية للفساد ، والوقوع في الفتن ، وشعاراً لغلاة أهل الكتاب ، فعن سهل بن سعد ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر»[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه ، قال: «لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناس الفطر ، لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[٥] ، وكذلك كان من سنَّته وسنَّة أصحابه تأخير السحور. فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال: «تسحَّرنا مع رسول الله ﷺ ، ثم قمنا إلى الصلاة ، قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آية»[٦] وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: كان لرسول الله ﷺ مؤذنان: بلال ، وابن أم مكتوم ، فقال رسول الله ﷺ: «إن بلالاً يؤذِّن بليل فكلوا واشربوا ، حتى يؤذن ابن أم مكتوم ، قال: ولم يكن بينهما ، إلا أن ينزل هذا ، ويرقى هذا»[٧] .

---

(١) رواه البخاري «في كتاب الإيمان» عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) للشيخين ، والترمذي ، والنسائي.
(٣) رواه مسلم.
(٤) للشيخين ، والموطأ ، والترمذي.
(٥) لأبي داود.
(٦) متفق عليه.
(٧) حديث متفق عليه.

وقد بسط شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الكلام في هذا الموضوع فذكر عناية الشريعة الإسلامية ، والسنة النبوية بهذا الجانب الإصلاحي في علم جمٍّ ، وفقه دقيق ، فقال:

«إن من المقاصد المهمة في باب الصوم سد ذرائع التعمق ، وردّ ما أحدثه فيه المتعمقون ، فإن هذه الطاعة كانت شائعة في اليهود والنصارى ومتحنثي العرب ، ولما رأوا أنّ أصل الصوم هو قهر النفس تعمّقوا ، وابتدعوا أشياء فيها زيادة القهر ، وفي ذلك تحريف دين الله.

وهو إما بزيادة الكمّ أو الكيف ، فمن الكمّ قوله ﷺ: «لا يتقدّمنّ أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا أن يكون رجل كان يصوم يوماً ، فليصم ذلك اليوم». ونهيه عن صوم يوم الفطر ويوم الشك ، وذلك لأنه ليس بين هذه وبين رمضان فصل ، فلعله إن أخذ ذلك المتعمقون سنّة ، فيدركه منهم الطبقة الأخرى ، وهلمّ جرّاً ، يكون تحريفاً ، وأصل التعمّق أن يؤخذ موضع الاحتياط لازماً ، ومنه يوم الشك.

ومن الكيف: النهي عن الوصال ، والترغيب في السحور ، والأمر بتأخيره وتقديم الفطر ، فكل ذلك تشدّد وتعمّق من صنع الجاهلية».[1]

والصوم كله خضوع للأمر الإلهي ، فلا أكل ولا شرب ، ولا متعة بما حظر على الصائم بعد تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر إلى غروب الشمس ، مهما جمحت النفس ، وطغت شهوة الطعام والشراب ، ولا إمساك عن الطعام والشراب وما حظر في النهار بعد غروب الشمس ، مهما جمحت طبيعة الزهد والنسك ، فليس الحكم للنفس والشهوة والعادة ، إنما الحكم لله ، ولا تجلد مع الله ، ولا مصارعة مع الدين ، وكلما كان الصائم متجرّداً عن هواه ، منقاداً

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص ٣٩.

للحكم ، مستسلماً لقضاء الله تعالى وشريعته ؛ كان أصدق في العبودية ، وأبعد عن الأنانية ، وقد أحسن العارف الكبير ، والمصلح العظيم ، الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي في الإشارة إلى هذه النكتة ؛ إذ قال في إحدى رسائله :

«يتجلى في تأخير التسحر ، وتعجيل الإفطار عجزُ الصائم وحاجته ، وهو ملائم للعبودية ، محقق لغرضها»[١] .

الاعتكاف :

والاعتكاف في رمضان متمِّم لفوائده ومقاصده ، متدارك لما فات الصائم ، من جمعية القلب ، وهدوء النفس ، واجتماع الهمّ ، والانقطاع إلى الله تعالى بالقلب والقالب ، وحقيقته الفرار إلى الله ، والاطراح على عتبة عبوديته ، والارتماء في أحضان رحمته ، يقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

«شرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه ، عكوف القلب على الله تعالى ، وجمعيته عليه ، والخلوة به ، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق ، والاشتغال به وحده سبحانه ، بحيث يصير ذكره وحبه ، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته ، فيستولي عليه بدلها ، ويصير الهمّ به كله والخطرات كلها بذكره ، والفكرة في تحصيل مراضيه ، وما يقرب منه ، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق ، فيعده بذلك لأنه به يوم الوحشة في القبور ، حين لا أنيس له ، ولا ما يفرح به سواه ، فهذا مقصود الاعتكاف في أفضل أيام الصوم ، وهو العشر الأخير من رمضان»[٢] .

ويقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه :

---

(١) الرسالة الخامسة والأربعون «مجموع الرسائل».

(٢) زاد المعاد ـ ص ١٦٨ .

«ولما كان الاعتكاف في المسجد سبباً لجمع الخاطر ، وصفاء القلب ، والتفرغ للطاعة ، والتشبه بالملائكة ، والتعرض لوجدان ليلة القدر؛ اختاره النبي ﷺ في العشر الأواخر ، وسنّه للمحسنين من أمته»[١] .

لذلك داوم عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وحافظ عليه المسلمون في كل جيل ، وفي كل عصر ومصر[٢] وأصبح من السنن المأثورة ومن شعائر رمضان ، فعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «أن النبي ﷺ ، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ، ثم اعتكف أزواجه ، من بعده»[٣] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: «كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً»[٤] .

ليلـة الـقــدر:

ونوّه القرآن والسنّة ـ في قوة وتكرار ـ بفضل ليلة القدر ، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[٥] وقال النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غُفر له ما تقدم من ذنبه»[٦] .

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص ٤٢ .

(٢) الاعتكاف في أكثر المذاهب سنة ، وليس بواجب إجماعاً. وعند الحنفية سنة مؤكدة في العشر الأخير من رمضان ، سنة كفاية كما في البرهان وغيره.

(٣) حديث متفق عليه.

(٤) رواه البخاري.

(٥) سورة القدر.

(٦) حديث متفق عليه.

وكان من حكمة الله تعالى ، ورحمته بعباده ، أن جعلها غامضة مُبهمة في العشر الأواخر من رمضان ، ليتحراها المسلمون ، وتعلو همتهم ، ويشتدّ طلبهم ، ويُحيوا الليالي الأخيرة كلّها بقيام وعبادة ودعاء ، كما كان شأن النبي ﷺ ، فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها ، قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل كله وأيقظ أهله ، وجدَّ ، وشدَّ المئزر»[١] وعنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره ، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره»[٢] .

وقد تضافرت الأحاديث والأخبار ، على أنها في العشر الأواخر ، والليالي الأواخر من رمضان ، وأنها في الوتر من الليالي ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما : «أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرِّيها فليتحرَّها في السبع الأواخر»[٣]. وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «كان رسول الله ﷺ ، يجاور في العشر الأواخر من رمضان ، ويقول: تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر في رمضان»[٤] وعنها رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان»[٥].

وقد بحث في ليلة القدر شيخ الإسلام الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» بحثاً ممزوجاً بعلم بالكتاب والسنة ، وبوجدان وتجربة ، فقال:

---

(١) حديث متفق عليه.
(٢) راوه مسلم.
(٣) حديث متفق عليه.
(٤) حديث متفق عليه.
(٥) رواه البخاري.

«واعلم أن ليلة القدر ليلتان ، إحداهما ، ليلة فيها يفرق كل أمر حكيم ، وفيها نزل القرآن جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك نجماً نجماً ، وهي ليلة في السنة ، ولا يجب أن تكون في رمضان ، نعم ، رمضان مظنة غالبة لها ، واتفق أنها كانت في رمضان عند نزول القرآن.

والثانية ، يكون فيها نوع من انتشار الروحانية ، ومجيء الملائكة إلى الأرض ، فيتفق المسلمون فيها على الطاعات ، فتتعاكس أنوارهم فيما بينهم ، ويتقرّب منهم الملائكة ، ويتباعد منهم الشياطين ، ويستجاب منهم أدعيتهم وطاعاتهم ، وهي ليلة في كل رمضان في أوتار العشر الأواخر تتقدم وتتأخر فيها ، ولا تخرج منها ، فمن قصد الأولى ، قال : هي في كل السنة ، ومن قصد الثانية ، قال هي في العشر الأواخر من رمضان. وقال رسول الله ﷺ: أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريّها فليتحرّها في السبع الأواخر. وقال: أريت هذه الليلة ، ثم أنسيتها ، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين ، فكان ذلك في ليلة إحدى وعشرين ، واختلاف الصحابة(رضوان الله عليهم) فيها مبني على اختلافهم في وجدانها»[١].

دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الصوم:

قام الإسلام بنفس الدور الإصلاحي ؛ الذي قام به في جميع العبادات والفرائض ، والمناسك ، وكان إصلاحاً جذرياً في مفهوم الصوم وآدابه وأحكامه ، ووضعه ، جعله أعظم يسراً وسهولة ، وقرباً إلى الفطرة السليمة ، وأضمن بالفوائد الروحية والاجتماعية ، وأعمق تأثيراً في النفس والمجتمع.

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص ٤١ ـ ٤٢.

فمن إصلاحاته الكثيرة المتنوعة ، هو التحويل في مفهوم الصوم ، فقد كان رمزاً للحداد والحزن ، وتذكاراً للكوارث والمآسي في الديانة اليهودية ، كما أسلفنا ، فحوّله الإسلام من هذا المفهوم القاتم ، الذي يغلب عليه التشاؤم ، إلى مفهوم منشط مشرق تغلب عليه روح التفاؤل ، وجعله عبادة عامة ، يتمتع فيها الصائم بالنشاط والفرح ، ويستبشر بما وعده الله تعالى ، وثوابه الجزيل ، ورضاه ، ووردت الآيات والأحاديث المبشرة بالثواب ، المتضمنة بالفرح الطبعي ، تثير في الصائم هذا الشعور وهذه الثقة ، فقد جاء في حديث قدسي: «إلاَّ الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[1] وورد في هذا الحديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطوره ، وفرحة عند لقاء ربه»[2]. وقد أحاط الصائم بجو من السُّمو ، والحظوة ، والمكانة عند الله تعالى ، فقال: «لخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك»[3] وذلك جو يخالف جو الحداد ، والمآتم ، والحزن ، والتشاؤم.

وقد كان الصوم عند اليهود مرادفاً لتذليل النفس والعقوبة ، وقد شاع هذا التعبير في أسفارهم وصحفهم ، فقد جاء في اللاويين أو سفر الأحبار:

«ويكون لكم فريضة دهريَّة أنكم في الشهر السابع في عاشر الشهر ، تذللون نفوسكم وكل عمل لا تعملون ، الوطني والغريب النازل في وسطكم ، لأنه في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم من جميع خطاياكم ، أمام الرب تطهرون»[4]. وجاء في موضع آخر:

---

(١) رواه الستة.

(٢) رواه الستة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ.

(٣) أيضاً.

(٤) اللاويين ـ الإصحاح السادس عشر (٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) الكتاب المقدس ، أي كتب =

«وكلَّم الربُّ موسى قائلاً ، أما العاشر من هذا الشهر السابع ، فهو يوم الكفارة ، محفلاً مقدساً ، يكون لكم ، تذللون نفوسكم وتقربون وقوداً للرب ، عملاً ما لا تعملون في هذا اليوم عينه. لأنه يوم كفَّارة للتكفير عنكم أمام الرب إلهكم»[1] .

وجاء في سفر العدد:

«وفي عاشر هذا الشهر السابع ، يكون لكم محفل مقدس ، وتذلِّلون أنفسكم ، عملاً ما لا تعملون»[2] .

أما الشريعة الإسلامية ، فلم تعتبر الصوم إيلاماً للنفس ، ولا عقوبة من الله ، ولم ترد في القرآن ولا في السنَّة كلمة تدل على ذلك ، بل اعتبرته عبادة ، يتقرب بها العبد إلى الله ، ولم تشرِّع من الأحكام الغليظة المجحفة ، ومن القيود القاسية العنيفة ، ما تجعله مرادفاً لتعذيب النفس وإرهاقها ، وحملها على ما لا طاقة لها به ، بل سنَّت التسحر ، واستحبَّت تأخيره: إلى أن يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وسنَّت تعجيل الفطور ، وأباحت النوم والراحة في الليل والنهار ، والاشتغال بالصناعة والتجارة ، والأعمال المفيدة المباحة ، خلافاً لليهودية ، التي فرضت الإضراب عن العمل ، والانقطاع إلى العبادة.

وكان الصوم في كثير من الديانات القديمة ـ ولا يزال ـ مختصاً بطبقة دون طبقة ، فكان في الديانة البرهمية فريضة على البراهمة في أكثر

= العهد القديم، والعهد الجديد «ترجمة مرسلي الجمعية الأمريكانية» «طبع نيويورك».

(١) اللاويين ـ الإصحاح الثالث والعشرون (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨).

(٢) سفر العدد ـ الإصحاح التاسع والعشرون (٧).

الأحيان ، وعند المجوس على العلماء والكهنوت (دستور) ، وعند اليونان بالإناث دون الذكور.

أما الإسلام ، فقد عمم وأطلق. فنزل: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾[1] وبجانب هذا التخصيص ، الذي عرفت به الديانات القديمة ، لم تستثن المعذورين ، أما الإسلام فقد استثنى أصحاب العذر ، وقال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[2] وقال: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾[3].

وقد كان في بعض الديانات جوع أربعين يوماً ، لا يتناول فيها الصائم غذاءً ، وبالعكس من ذلك توسَّعت بعض الديانات توسعاً زائداً ، فاقتصرت على تحريم تناول اللحوم ، وأباحت الفواكه والمشروبات ، أما الإسلام ، فقد جاء تشريعه وسطاً بين الشدة والرقة ، وبين الإرهاق والإطلاق ، فجاء صومه صوماً متزناً عادلاً ، ليس فيه تعذيب أبدان ، ولا إزهاق أرواح ، وليس فيه كذلك إرخاء عنان ، ولا تسريح في روح وريحان.

وكان اليهود يقتصرون على ما يأكلونه عند الفطر ، ثم لا يعودون إلى أكل أو تمتع. أما العرب فكانوا لا يأكلون ولا يتمتعون بالمباحات إذا ناموا. أما الإسلام فقد ألغى هذه القيود كلها ، ونزل القرآن: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾[4] وكذلك عفا عن الخطأ والنسيان[5] ، وكذلك لا يفسد الصوم أفعال اضطرارية:

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.
(٢) سورة البقرة: ١٨٤.
(٣) سورة البقرة: ١٨٤.
(٤) سورة البقرة: ١٨٧.
(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ من أكل وشرب ناسياً فلا يفطر ،=

كالقيء والرّعاف ، والاحتلام[١] خلافاً لبعض الديانات.

وكان الصوم في أكثر الديانات القديمة مضبوطاً بالشهور الشمسية ، وكان ذلك يحتاج إلى العلوم الرياضية والفلكية ، وإلى وضع التقاويم ، ثم كانت تلك الأيام مستقرة دائمة في فصول خاصة ، لا تدور ولا تنتقل.

أما الصوم الإسلامي فهو مضبوط بالشهور القمرية ، ومربوط بالهلال[٢] فقد جاء في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[٣] وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تصوموا قبل رمضان ، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن حالت دونه غيابة ، فأكملوا ثلاثين يوماً»[٤]. وجاء في حديث آخر: «لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه ، فإن غمَّ عليكم فاقدروا له»[٥] فاستطاع المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي البوادي وقلل الجبال وفي الدور الممعن في البداوة والأمية ، وفي أمكنة منقطعة موغلة في الغابات والآجام ، أن يبدؤوا الصوم ويختموه من غير مشقة ، وتكلف ، وبحث علمي عميق ، وكانت فائدته كذلك: أن رمضان يدور في فصول

= فإنما هو رزق رزقه الله» (رواه الترمذي) ورواه الشيخان ولفظهما: «من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه».

(١) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يفطرن الصائم الحجامة ، والقيء ، والاحتلام» (رواه الترمذي).

(٢) والمعتبر في الشريعة الإسلامية ، شهود الهلال ، لا وجوده. فلا يحتاج إلى تكلفات رياضية وصناعية يهتدى بها إلى وجوده. كما يلجأ إلى ذلك بعض البلاد والحكومات الإسلامية. وعلى ذلك يدل الحديث الصحيح «صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته» وفي المسألة بحث علمي طويل.

(٣) سورة البقرة: ١٨٩.

(٤) رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٥) رواه الستة إلا الترمذي.

مختلفة ، من شتاء وصيف ، فلا يكلف المسلمون بالصوم في حر لافح ، وفي قيظ شديد ، ولا في برد قارس وشتاء كالح ، دائماً وفي كل سنة ، فيتمتعون بتغيُّر الفصول واختلاف الطقوس ، ويتعوّدون كل ذلك ، وهم في كل ذلك صابرون محتسبون ، أو شاكرون حامدون»(١) .

ومن عرف أوضاع الصوم ، ومناهجه ، في الأمم القديمة ، والديانات المعاصرة ، ودرس تاريخها وفلسفتها ، وشاهد أحوال الصائمين فيها ـ على قلتهم وتشتت أحوالهم ـ وقارن ذلك بالصوم الإسلامي ، ووضعه ومنهجه ، وفقهه وآدابه ، وأكرمه الله بالدخول في هذه الأمة المسلمة ، والعمل بالشريعة الإسلامية السمحة ؛ نطق لسانه بالحمد والثناء ، والشكر على نعمة الإسلام ، وكان حقيقاً بأن يقول وهو صائم :

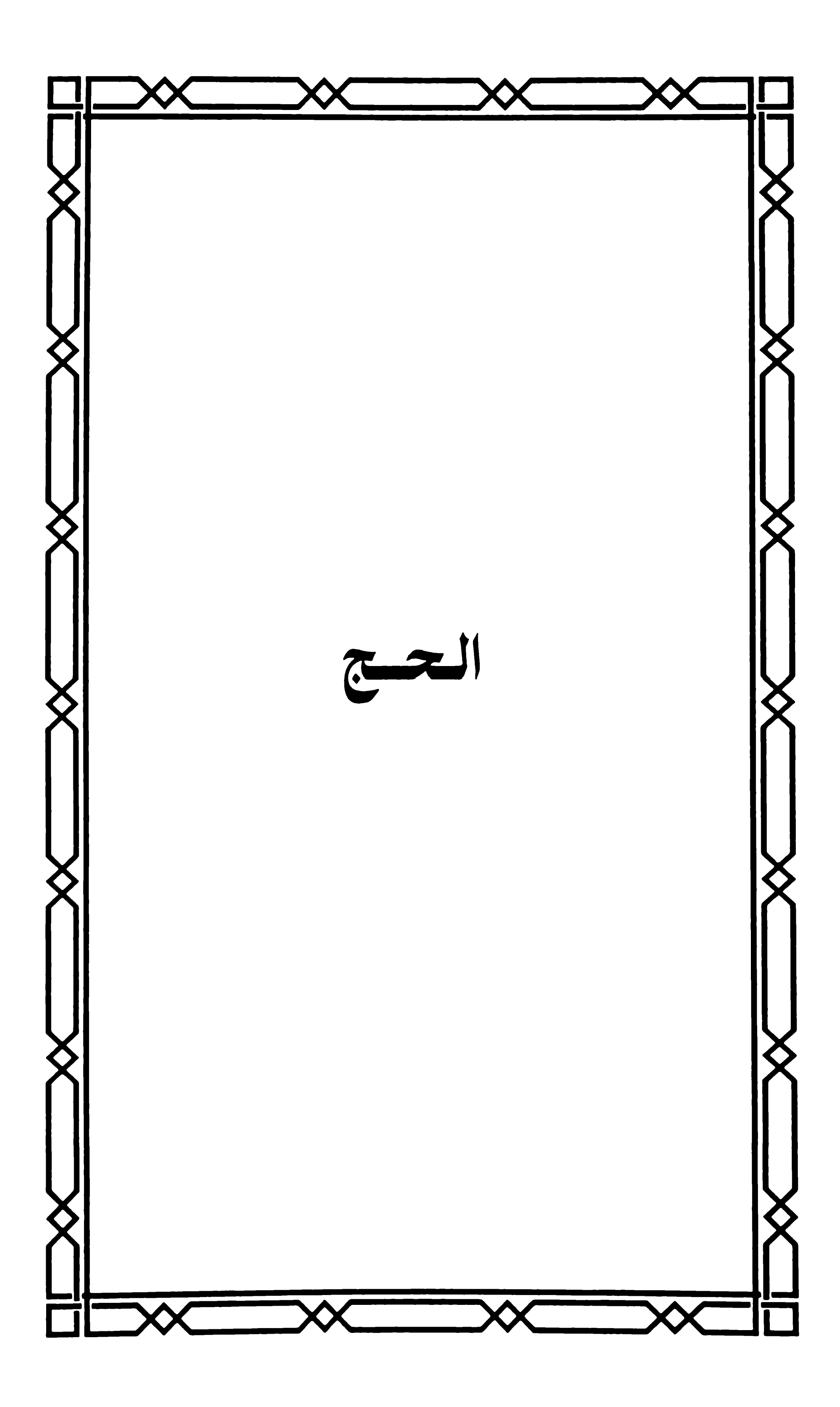
﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾(٢) .

* * *

---

(١) استفدنا في هذا الفصل من كتاب سيرة النبي ﷺ ، للأستاذ العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله (المجلد الخامس) .

(٢) سورة الأعراف : ٤٣ .



الحج

الحج

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[1]

الإسلام دين توحيد وتجريد ، لا وساطة فيه ، ولا تمثيل :

الإسلام دين توحيد خالص ، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه[2] ، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره ، ويصرف إليه همته ، ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار ، ويرتبط به في خياله ، ويتمسك بأذياله ، فلا وسائط ولا مظاهر ، ولا صور ولا أصنام ، ولا هياكل ولا طبقة كهّان ولا سدنة ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

---

(١) سورة الحج : ٢٧ ـ ٢٩ .

(٢) إلا الرسل والأنبياء ، بمعنى أنهم واسطة بين الخالق والخلق في تبليغ الرسالة ، والتعريف بالله وصفاته ، وما يليق به ، وما لا يليق ، والإرشاد إلى الطريق المستقيم .

يَرْشُدُونَ ﴾[١] ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾[٢] .

إذاً فالإسلام دين يطلب تجرّداً في الخيال ، وسمواً في الفكر ، ونقاءً في الإرادة والنية ، وإخلاصاً في العمل والتطبيق ، وانقطاعاً عن الغير ، لا يتصور فوقه وأكثر منه ، ومستوى في الفكر والعقيدة ، لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات ، والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه ، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقة والسمو ، فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٣] .

حاجة الإنسان إلى «مُشَاهَدٍ» يوجه إليه أشواقه ، ويحقق رغبته من التعظيم والدنو:

ولكن الفطرة البشرية ، هي الفطرة البشرية ، فالإنسان ما زال ـ ولا يزال ـ باحثاً عن شيء يراه بعينه ، فيوجه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحّة في التعظيم والدنو.

شعائر الله وحكمتها:

وقد اختار الله أموراً ظاهرة محسوسة ، اختصّت به ، ونسبت إليه ، وتجلَّت عليها رحمته ، وحفَّتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله ، وارتبط بها وقائع وحوادث ، وأفعال ، وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسمّاها «شعائر الله»[٤] التي جعل

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٢) سورة الزمر: ٢ ـ ٣.
(٣) الشورى: ١١.
(٤) اقرأ البحث اللطيف في ذلك ، في حجة الله البالغة ، لحكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ج١ ـ ص٥٥).

تعظيمها تعظيمه ، والتفريط في جنبها تفريطاً في جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة ، بل حثّ على ذلك ، ودعا إليه فقال : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[1] وقال : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾[2] .

عنصر الهيام والحنان ، في طبيعة الإنسان ، أثرهما في الحياة ، ومنزلتهما من الدين :

ثم إن الإنسان ليس عقلاً مجرداً ، ولا كائناً جامداً يخضع لقانون ، أو إرادة قاسرة ، ولا جهازاً حديدياً يتحرك ويسير تحت قانون معلوم ، أو على خط مرسوم ، إن الإنسان عقل وقلب ، وإيمان وعاطفة ، وطاعة وخضوع ، وهيام وولع ، وحب وحنان ، وفي ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته ، وفي ذلك سر قوّته وعبقريته وإبداعه ، وسر تفانيه وتضحيته ، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة ، وأن يصنع العجائب والخوارق ، واستحقّ أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان ، ووصل إلى ما لم يصل إليه ملك مقرب ، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد .

إن صلة هذا الإنسان بربّه ، ليست صلة قانونية ، عقلية فحسب ، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه ، ويخضع أمامه ، ويطيع أوامره وأحكامه ، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك ، صلة لا بد أن يرافقها ، ويقترن بها ، ويتحكم فيها حنان وشوق ، وهيام ولوعة ، وتفان وتهالك ، والدين لا يمنع من ذلك ، بل يدعو إليه ، ويغذيه ويقويه ، فتارة يقول القرآن :

---

(١) سورة الحج : ٣٢.

(٢) سورة الحج : ٣٠.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[١] وتارة يقول : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢] ويذكر أنبياءه رسله ، وينوّه بحبهم وحنانهم ، ويحدِّث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحبّ ، فيقول عن يحيى (عليه السلام) : ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾[٣] ويحكي قصة خليله إبراهيم كيف آثر حبّ الله وطاعته على حب ولده ، وفلذة كبده ، وكيف وضع السكين على حلقومه ، وحاول ذبحه حتى شهد ربُّه بصدقه وحسن بلائه ، وقال : ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴾[٤] ولذلك قال في وصف إبراهيم : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾[٥] .

«الصفات» هي التي تثير الحب ، وتبعث الحنان ، لذلك أطال وأكثر من ذكرها القرآن :

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله ، وآلائه ونعمائه ، وإشادته بها ، والعودة إليها مرة بعد مرة ، فإن الصفات ، هي التي تثير الحب وتبعث الحنان ، وتوجد الأشواق ، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام ، «بالنفس المجمل والإثبات

(١) سورة البقرة : ١٦٥ .
(٢) سورة التوبة : ٢٤ .
(٣) سورة مريم : ١٢ ـ ١٣ .
(٤) سورة الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٦ .
(٥) سورة هود : ٧٥ .

المفصل»[١] فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب ، ويفيض منه الحنان ، وتنبعث به الأشواق ، وتتغذى به العاطفة ، فإذا كان النفي رائد العقل ، كان الإثبات رائد القلب ، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى ، التي نطق بها القرآن ، ووردت بها السنة ، وهام بها الهائمون ، وتغنى بها العارفون ، وسبّح بها المسبحون ، وسبح في بحارها ، ونزل في أعماقها الغواصون؛ لكان هذا الدين خشيباً جامداً ، لا يملك على أتباعه قلباً ، ولا يثير فيهم عاطفة ، ولا يبعث فيهم حماسة ، ولا يحدث في القلب رقة ، ولا في الصلاة خشوعاً ، ولا في العين دموعاً ، ولا في الدعاء ابتهالاً ، ولا في الجهاد تفانياً ، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح ، ولا مرونة ولا سعة ، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة خشبية ، لا عاطفة فيها ولا أشواق ، ولا حنان فيها ولا هيام ، وإذاً: أي فرق بين الحياة والموت ، وبين الإنسان والجماد؟!

ما قيمة كأس لا تطفح ولا تفيض؟ :

لقد كان المسلم في حاجة إلى غذاء للقلب ، وإلى زاد للعاطفة ، وإلى أن يقضي شوقه ، ويروي غلته مرة بعد مرة ، وعلى فترة بعد فترة ، وكان في حاجة إلى أن تطفح كأسه ، فما قيمة كأس تمتلىء ولا تطفح؟ وكان في حاجة إلى أن تفيض هذا الكأس ، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض؟

تسلية البيت والحج لحنان المسلم وهيمانه :

وقد تفطّن حجة الإسلام الغزالي بذكائه النادر ، وفقهه الدقيق لأسرار التشريع لهذه النكتة ، وعرف أن الشوق غريزة في الإنسان الحي السليم ، وحاجة من حاجاته ، فيبحث له عما يقضي به حاجته ، ويروي غلته ، وكان البيت العتيق وما حوله من شعائر الله ، والحج وما فيه من مناسك ،

---

(١) التعبير لشيخ الإسلام ابن تيمية.

خير ما يحقق رغبته ، ويسلي حنانه وعاطفته ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1].

يقول الغزالي:

«فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن المحبّ مشتاق إلى كل ما له إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل»[2].

ويردفه شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، فيشير إلى نفس النكتة ، ويجعلها حكمة الحج الأساسية ، فيقول:

«وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشدَّ شوق ، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجده إلا الحج»[3].

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق ، وأن يبرز هذا الحنان ، وأن تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كل يوم ، فيسلي بها قلبه ، ويطفىء بها غلته ، ويهدىء بها ثائرته ، ويخفف بها حرارة شوقه ، ووهج نفسه ، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعاً ، أو تسقط دموعاً ، إنها قطرات

---

(١) الحج: ٢٦ ـ ٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين ـ ج١ ـ ص ٢٤.

(٣) حجة الله البالغة ـ ج١ ـ ص ٥٩.

قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولوع ، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع .

طفـرة ، أو قفـزة واسعـة مـن سجـن ضيـق إلـى عالم فسيـح :

وكان للمسلم أن يروي ظمأ روحه ، ويقضي حاجة حنانه ، ويكسر سورة نفسه ، ويثور على «وثنية» عاداته ومألوفه ، وأن يغذي روحه بتخلية معدته في شهر رمضان ، ولكنها ساعات محدودات كذلك ، محفوفة بما يخفف أثرها ، ويضعف سلطانها من أكلة متخمة وريّ مسرف ، وراحة منعمة ومجتمع ثائر ، ومدنية قد أحاطت بالصائم ، كما تحيط البحار المتلاطمة بجزيرة صغيرة ، فكان المسلم ـ بكل ذلك ـ في حاجة إلى طفرة ، أو قفزة واسعة يفك بها أغلاله وسلاسله ، وينسلخ بها من سجنه الضيق القديم ، العتيق الخلق ، وينتقل من عالم ، كله قديم مألوف ، ومقيد محدود ، ومخطوط مرسوم ، ومصنوع معمول إلى عالم كله جديد وطريف ، وحر منطلق ، وثائر مارد ، كله حب وغرام ، وشوق وهيام ، قد تحرر من كل رق ، وثار على كل وثن ، وكفر باختلاف الجنس واللون والوطن ، وآمن بوحدة الإلهية ، وبوحدة المنعم والوهاب ، وبوحدة الإنسانية ، وبوحدة العقيدة ، وبوحدة المطلوب ، وهتف الناس جميعاً بصوت واحد : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» .

لقد كان المسلم في حاجة ـ بعد هذه الصلوات ، التي يصليها كل يوم ، وبعد شهر رمضان ، الذي يصومه كل عام ، وبعد الزكاة ، التي يقوم بها إذا تم النصاب وحال الحول ـ إلى أن يشهد موسماً هو ربيع الحب والحنان ، وملتقى المحبين والمخلصين ، ومشهد العشاق والهائمين .

تحدٍّ لعبَّاد العقل والمادة ، ودعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد :

وكان المسلم في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور ، المقلد المطبق ، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟ وكان في حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات ، وقوانين وضعية ، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس ، ويفك قيوده وأغلاله ، وينتزع الزمام من يد عقله ، الذي استبد به زماناً طويلاً ، ويعطيه لقلبه وعاطفته ، فيتحكمان فيه ما شاءا ، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون ، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون ، فلا حرية لمن ملكه المجتمع ، وسيطرت عليه الحضارة ، وتسلطت عليه آلهة التقاليد ، ولا توحيد لمن أسرته العادات ، والمألوفات والشهوات ، ولا يعتبر مطيعاً منقاداً ، مسلماً مستسلماً من اعتمد دائماً على عقله ، لا ينشط لعمل ، ولا يسرع لامتثال أمر ، حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق ، ويعرف فوائده المادية المحسوسة. والحج بوضعه الدقيق الغامض ، المنافي للمألوف المعروف لعباد العقل والمادة ، وأسارى النظم والترتيبات ، ودعوة إلى الإيمان بالغيب ، واتباع الأمر المجرد ، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة ، وفي مكان محدود ، وصرفه عن طلب الدليل والحكمة ، والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان ، وفي كل زمان ومكان.

وقد أبدع حجة الإسلام الغزالي كل الإبداع في بيان روح الحج وحقيقته ، ـ وهي الإيمان بالغيب ، والامتثال المطلق ـ وصوَّر بقلمه البليغ ، وريشته البارعة صورة الحج الرائعة ، وبلغ إلى لب الدين وجوهره ، وروح الإسلام وحقيقته في شرح هذا الركن العظيم ، وقد غفل عن ذلك أكثر العلماء والكتاب في القديم والحديث ، يقول رحمه الله :

«ووضعه (أي البيت) على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له ، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رقِّهم وعبوديتهم ، وأتمَّ في إذعانهم وانقيادهم.

ولذلك وظَّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار ، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن الزكاة إرفاق ، ووجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة ، التي هي آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل. والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال ، هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار ، وأمثال هذه الأعمال ؛ فلا حظ للنفوس ، ولا أنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها ، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط.

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه ، مال الطبع إليه ميلاً ما ، فيكون ذلك الميل معيناً للأمر ، وباعثاً معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ، ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً» ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها.

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ، ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد ؛ كان ما لا يهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى

الطباع والأخلاق إلى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفطنت لهذا ؛ فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى»[١] .

ويقول في الرمي ، ويذكر أن العمدة فيه الانقياد والأمر المجرد :

«فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضاً لمجرد الامتثال ، من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى ، في ذلك الموضع ، ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية. فأمر الله عز وجل ، أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله ، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا ، فليس يعرض لي الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي فيه برغم أنف الشيطان.

واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه»[٢] .

ويقول في الذبح :

«فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدي ، وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر ، وأجزاؤه أوفر ، كان فداؤك من النار أعمّ»[٣] .

---

(١) إحياء علوم الدين ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤٠ .
(٢) إحياء علوم الدين ج١ ـ ص٢٤٣ .
(٣) إحياء علوم الدين ج١ ـ ص٢٤٣ .

«الحاج» طوع إشارة ، ورهين أمر :

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله ، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة ، وامتثال للأمر المجرد ، وسعي وراء الأمر ، وتلبية وإجابة للطلب ، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى ، وعرفات والمزدلفة ، ثم منى ومكة : يقيم ويرحل ، ويمكث وينتقل ، ويخيم ويقلع ، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر ، ليست له إرادة ولا حكم ، وليس له اختيار ولا حرية ، ينزل بمنى فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات ، من غير أن يقف بالمزدلفة ، ويقف بعرفات ، ويظل سحابة النهار مشتغلاً بالدعاء والعبادة ، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب ، ليستجم ويستريح ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة ، ويقضي حياته محافظاً على الصلوات في وقتها ، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه ، ليس عبداً لصلاته وعادته ، فلا يصليها إلا بالمزدلفة جمعاً مع العشاء ، وتطيب له الإقامة في المزدلفة ، فيريد أن يطيلها ، فلا يسمح له بذلك ، ويؤمر بالانتقال إلى منى.

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء ، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيَّمين ، نزول وارتحال ، ومكث وانتقال ، وعقد وحل ، ونقض وإبرام ، ووصل وهجر ، ولا خضوع لعادة ، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى.

فضل المكان والزمان وموسم الحب والحنان :

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان ، قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين ، وأشد الناس حباً لله ، وأحبهم إلى الله في عصره ، وأسرته الصغيرة ، الطيبة المباركة ، بأكبر دور في الحب والولاء ، والإخلاص والوفاء ، والإيثار والفداء ، وقاموا بأروع رواية وأجملها ، في تاريخ

الحب السامي والولاء الطاهر ، والإخلاص المعجز ، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون ، والموحدون المخلصون ، والمحبون المتفانون في كل عصر ، فنسكوا مناسكهم ، وشهدوا مشاهدهم ، واحتذوا حذوهم ، وترسموا خطاهم ، وحكوا هذه الرواية وأعادوها ، فطافوا حول البيت ، وسعوا بين الصفا والمروة ، ووقفوا بعرفات ، وباتوا في المزدلفة ، ورموا الجمرات ، ونسكوا في منى .

وكان في المكان والزمان ، وفصول الرواية التي يعيدونها ، والأعمال التي يقلدونها ، ونسائم الحب التي ينشقونها ، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه ، وطبقات الأمة ، التي يتصلون بها ويعاشرونها ، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي ، الذي لا نظير له على وجه الأرض ، وفي هذا الضجيج من الدعاء ، والذكر والتلبية والاستغفار ، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وينبه النفوس الخامدة ، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت ، أو كادت تنطفىء ، ويجلب رحمة الله .

وقد أشار العلماء العارفون إلى ما في اجتماع المسلمين العظيم ، واجتماع هممهم ودعواتهم وقلوبهم الصادقة من تحريك لرحمة الله تعالى ، ومن تحريك للقلوب القاسية ، وإثارة للأشواق .

يقول حجة الإسلام الغزالي :

«فإذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت إليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظن أنه يخيب أملهم ، ويضيع سعيهم ، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم»[١] .

---

(١) إحياء علوم الدين ـ ج١ ـ ص ٢٤٣

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان ، يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصدِّيقين ، والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بينات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظِّمين لشعائر الله ، متضرعين راغبين وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله ﷺ: «مارؤي الشيطان يوماً ، هو فيه أصغر ولا أدحر ، ولا أحقر ، ولا أغيظ منه في يوم عرفة (الحديث)»[١] .

وقال :

«ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ، ويحلون فيه ، ويعمرونه بذكر الله ، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة السفلية ، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير ، فإذا حلّ به غلب ألوانهم على نفسه»[٢] .

تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية «إبراهيم» من أعظم مقاصد الحج :

ومن مقاصد الحج الرئيسية تجديد الصلة بإمام الملة الحنيفية ومؤسسها إبراهيم الخليل ، والتشبع بروحه ، والمحافظة على إرثه ، والمقارنة بين حياتنا وحياته ، وعرضها عليها ، واستعراض ما يعيش فيه المسلمون في العالم ، وتصحيح ما وقع في حياتهم من أخطاء أو فساد ، أو تحريف ، وإعادة ذلك كله إلى أصله ومنبعه ، فالحج عرضة سنوية للملة تضبط أعمال المسلمين وحياتهم ، ويتخلصون بها من نفوذ الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها .

---

(١) حجة الله البالغة - ج١ - ص٥٩ .

(٢) حجة الله البالغة - ج١ - ص٥٩ .

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

(ومن مقاصد الحج) موافقة ما توارث الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإنهما إماما الملة الحنيفية، ومشرعاها للعرب، والنبي ﷺ بعث لتظهر به الملة الحنيفية، وتعلو به كلمتها، وهو قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[١].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامها كخصال الفطرة[٢]، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: «قفوا على مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث أبيكم»[٣].

إعادة قصة إبراهيم، وتمثيلها في الحج:

فمن أوضح ملامح الحج، والروح المسيطرة على جميع أعماله ومناسكه، هو الحب والهيام والتفاني، وإعطاء زمام الجسم والفكر للقلب والعاطفة، وتقليد العشاق والمحبين، وإمامهم وزعيمهم إبراهيم الخليل، فحيناً طواف الحب والهيام حول البيت الحرام، وحيناً تقبيل الحجر الأسود والاستلام، وحيناً سعي بين غايتين، وتقليد ومحاكاة للأم الحنون، حتى في تؤدتها ووقارها، وفي جريها وهرولتها، ثم قصد (لمنى) في يوم معين هو يوم التروية، ثم قصد إلى (عرفات) ووقوف بساحتها وعرصاتها، ودعاء وابتهال، ثم بيتوتة في المزدلفة، وعودة إلى

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) قال النبي ﷺ: «عشر من الفطرة، قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء - يعني الاستنجاء، قال الراوي: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة». (رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ورواه أحمد في المسند عن عائشة رضي الله عنها).

(٣) حجة الله البالغة: ج٢ ص٤٢.

(منى) وحلق ونحر ، اقتداء لسنة إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وأوضح ملامح هذا الحب والتقليد رمي الجمرات ، الذي ليس إلا تمثيلاً لما صدر عن الخليل ، وفي تقليد أعمال المحبين تأثير غريب في انتقال عدوى الحب ، واتصال بالمركز الكهربائي ، الذي يجري منه التيار ، ووسيلة إلى جلب رحمة الله وشمول عنايته ، وليس لمن ذاق حلاوة الحب منظر ألذُّ من هذا المنظر ، الذي يجتمع فيه المحبون الطائعون لتمثيل هذه القصة التي حدثت قبل آلاف من السنين ، ولكن الله أفاض عليها الخلود ، وطلب من جميع المحبين المخلصين إعادتها وتمثيلها ، إخزاءً للشيطان ، وتقوية للإيمان ، واقتداءً بخليل الرحمن.

قصة إبراهيم في القرآن ، وصلتها بالبلد الأمين:

ولد إبراهيم في بيت سادن من أعظم سدنة البلد ، ينحت الأصنام ويبيعها ، ويقوم على الهيكل الكبير ، ويتصل به عن طريق العقيدة ، وعن طريق الحرفة ، وما أعظم المشكلة ، وما أعقد العقدة ، إذا التقت العقيدة بالحرفة ، واجتمعت العاطفة الدينية مع المصلحة المالية ، ولا شيء في هذا الجو القاتم يثير الإيمان والحنان ، ويبعث على الثورة على هذه الخرافة الوثنية ، ولكنه قلب سليم هُيِّيء للنبوة ، وأعد لتكوين العالم الجديد ، ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾[1] إنه يبدأ ثورته بمرحلة ربما لا تصل إليها ، ولا تتناولها أعظم ثورة ، إنها مرحلة الحياة المنزلية ، ومرحلة البيت الذي ولد فيه الإنسان ، وفرض عليه أن يعيش فيه ، ويقع كل ما يحكيه القرآن في أسلوبه المعجز المبين من تحطيم إبراهيم للأصنام ، وغضب عبادها وحيرتهم وعيِّهم ، وانتقامهم من الفتى الثائر ، واشتعال النار وتحولها برداً وسلاماً على إبراهيم ،

---

(١) سورة الأنبياء: ٥١.

ومناظرته البليغة ، أمام الملك الجبار»[١] .

وتنتهي هذه الثورة إلى أن يضيق عليه البلد ، ويغضب عليه المجتمع ، وتطارده الحكومة ، فلا يحفل بكل ذلك ، ولا يحسب له حساباً ، كأنه شيء كان منه على ميعاد ، وكأنه نتيجة طبيعية قد توقعها ، فيخرج من بلده قرير العين ، رضي النفس ، إذ نجا برأس ماله ، وهو الإيمان ، فيهيم في أرض الله ، وهو فريد لا يعرف له ثانياً ، والبلاد كلها نسخة واحدة من الوثنية والخرافة ، وعبادة الأوثان والشهوات ، حتى يهبط مصر ، فيكون هدف الامتحان والامتهان ، وينجو بصاحبته ، التي يطمع فيها الملك ، فيفلتان من يده ، ويأويان إلى أرض الشام ، فيغرس فيها الغرس الكريم ، ويلقي فيها عصا التسيار ، ويقوم فيها بدعوته إلى رفض الأوثان ، وإلى عبادة الله وحده.

وتطيب له الإقامة في الشام حيث يتوفر الخصب ، ويتسع الرزق ، ويتجلى جمال الطبيعة ، فلا يلبث ، أن يؤمر بالتوجه إلى أرض تقابل الشام في الخصب والماء ، وإبراهيم لا يعرف لنفسه حقاً ، ولا يرتبط بأرض أو وطن ، إنما هو طوع إشارة ورهن أمر ، ويعتبر العالم بلده والسلالة البشرية أسرته ، يؤمر بأن ينتقل مع زوجته (هاجر) ومولودها الصغير الرضيع .

وهنا في واد ضيق ، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب ، وقسا فيه الجو ، وفقد الماء ، وغاب الأنيس ، وأوحش المكان ، يؤمر بترك زوجته المرأة الضعيفة العاجزة ، والمولود الصغير ، توكلاً على الله وامتثالاً لأمره ، واستسلاماً لقضائه ، فلا جزع ولا فزع ، ولا إشفاق ولا حذر ، ولا سآمة ولا ضجر ، ولا خور في العزيمة ولا ريبة في

(١) اقرأ الآيات ـ ٥١ إلى ٧٠ ـ من سورة الأنبياء .

الـوعـد ، تمـرد علـى التجـارب ، ومعـاكسـة للطبيعـة ، وانقطـاع عـن الأسباب ، وإيمان بالغيب وثقة بالله ، حين تسوء الظنون وتزل الأقدام.

ويعرض المحذور والأمر الواقع ، فيغلب على الطفل العطش ، ويشتد بالأم الظمأ ، ولا مطمع هناك في ثماد[١] تروي غلتهما ، وهنا تجيش في المرأة عاطفة الأمومة والحنان ، والإشفاق على المولود الصغير ، فتخرج باحثة عن الماء ، أو عن سيارة تحمل الماء ، وتعدو مضطربة والهة بين جبلين ، يغلب عليها الحنين والإشفاق على الولد ، فترجع لتطمئن إلى وجوده وحياته ، ويغلب عليها الخوف على الحياة ، فتعدو مسرعة تبحث عن ماء ، أو عن أثر إنسان ، وهي بين اضطراب توحيه الطبيعة ، وسكينة يوحيها الإيمان والثقة ، وتعرف ـ وهي زوج نبيٍّ وأم نبيٍّ ـ أن البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله ، فهي مضطربة في غير يأس ، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل ، منظر لم تشهد السماء مثله ، وجاشت الرحمة الإلهية ، وتفجَّر الماء بطريق معجز ، فكان ماء خالداً مباركاً لا ينضب ولا يغيض ، قد وسع الخلق ، ووسع الأجيال ، وكان ماء لكل عصر ، ولكل أمة ، فيه غذاء وشفاء ، وفيه بركة وأجر.

وخلد الله هذه الحركة الاضطرارية ، التي ظهرت من امرأة مؤمنة مخلصة ، فجعلها حركة اختيارية ، يكلف بها أعظم العقلاء ، وأعظم الفلاسفة والنبغاء ، وأعظم الملوك والعظماء ، في كل عصر ، وفي كل جيل ، فلا يتم نسكهم إلا بالسعي بين هذين الجبلين اللذين هما ميقات كل محب ، وغاية كل مطيع ، والسعي خير ممثل لموقف المسلم في هذا

(١) الثمد: الماء القليل يتجمع في الشتاء ، وينضب في الصيف ، أو الحفرة يجتمع فيها ماء المطر ، جمعه : ثماد.

العالم ، فهو يجمع بين العقل والعاطفة ، وبين الحسّ والعقيدة ، إنه يستعين بالعقل ، ويستخدمه في مصالح حياته ، ولكنه ينقاد أحياناً للعاطفة ، التي هي أعمق من العقل ، إنه يعيش في عالم قد حفَّ بالشهوات ، ومليء بالزخارف والمظاهر ، لكنه يمر بينها ، كالساعي بين الصفا والمروة ، لا يعرج على شيء ، ولا يتقيد بشيء ، إنما غايته وهمه ما يستقبله ، يعتبر حياته أشواطاً محدودة ، يقطعها إطاعة لربه ، واقتناعاً بدينه ، لا يمنعه إيمانه عن البحث والسعي ، ولا يمنعه سعيه عن التوكل على الله والثقة به ، حريتها قيمتها وروحها ، ورسالتها «الحب» و«الانقياد» .

ويكبر الولد ، ويبلغ السن التي تقوى فيها عاطفة الأبوة ، فيرافق والده ويسعى معه ، ويشعر الوالد العظيم الذي قويت فيه العاطفة الإنسانية ، وطبع على الحب والحنان بميل شديد إلى ولده وفلذة كبده ، وهنا المشكلة ، فإن قلبه هو القلب السليم الذي خص بالمحبة الإلهية ، إنه ليس كقلب كل إنسان ، إنه قلب «خليل الرحمن» ، والمحبة لا تعرف شريكاً ، ولا تحتمل عديلاً ، فكيف وهي المحبة الإلهية ، وهنا يتلقى إبراهيم إشارة بذبح الولد الحبيب ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وتتكرر الإشارة ، فعرف أنه أمر يراد ، وإنه جد ، فيختبر ولده ، لأنه شيء لا يتم إلا بموافقته وجلادته ، فيجد عنده غاية البر ، وغاية النجابة ، وغاية التضحية والتسليم للأمر الإلهي ، وهو نبي ابن نبي ، وجدّ نبي ، ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1] .

وهنا يقع مالا يصدقه العقل ، فيخرج الوالد مع ولده النجيب

---

(١) سورة الصافات ، آية : ١٠٢ .

الحبيب ، ذلك ليذبح ولده ، وهذا يطيع ربه ووالده ، وكلاهما مطيع للرب مستسلم لأمره ، وعرض لهما الشيطان ـ ذلك الذي تكفل بالضلال ، ومنع الإنسان من السعادة ـ فحاول صرفهما عن التنفيذ ، وزين لهما العصيان ، ورغبهما في الحياة ، فاستعصيا عليه ، وأبيا إلا أن ينفذا أمر الله ، وهنا يقع ما تضطرب له الملائكة ، ويفزع له الإنس والجن ، فينتصب الولد للذبح ، ويضع الوالد السكين على حلقومه يحاول جهده الذبح ، ووقع ما أراده الله. فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل ، إنما كان المقصود ذبح الحب الذي ينازع الحب الإلهي ويقاسمه ، وقد ذبح بوضع السكين على الحلقوم ، إنما ولد إسماعيل ليعيش ويزدهر وينسل ، ويولد في ذريّته آخر الأنبياء وسيّدهم ، فكيف يذبح وكيف يموت ، قبل أن يتحقق ما أراده الله؟ وفدى الله إسماعيل بكبش من الجنّة يذبح مكانه ، وجعلها سنة باقية في عقبه وأتباعه ، يذبحون أيام النحر ، ويجددون ذكرى هذا الذبح العظيم ، ويضحُّون في سبيل الله ما يشترونه بحرِّ أموالهم :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[1] .

وخلّد الله تمثيل قصة الشيطان مع إبراهيم ، وجعل رجمه بالحصى في الأمكنة التي اعترض فيها لإبراهيم ينهاه ويصرفه عملاً يتكرر كل عام ، وقصة تمثل في أفضل الأيام ، إثارة لبغض الشيطان ، وإظهاراً للتمرد عليه والعصيان ، وهي حركة يشعر فيها المؤمن بلذة وحياة وعاطفة ، إذا صح فيه الإيمان ، واستقام فيه الفهم ، وكمل الانقياد للأوامر ، ويعرف أنه في

---

(١) الصافات آية : من ١٠٣ إلى ١٠٩ .

صراع دائم مع قوى الشر ، ومعركة مع إبليس وجنوده ، وأنه ليس له نصيب منه إلا الرجم والهوان.

ويدور الزمان دورته ، وإسماعيل الصغير شاب قوي ، أكرمه الله بالنبوة والسيادة ، وقد أثمرت دعوة إبراهيم وتوسعت وانتشرت ، وكان لابد لها من مركز تأوي إليه ، وتعتمد عليه ، وكثرت القصور للملوك ، والمعابد للطاغوت يطاع فيها الهوى ، ويعبد فيها الشيطان ، وليس لله على أرضه مسجد يخلص لعبادته ، ويطهر لقاصديه وعابديه ، فيؤمر إبراهيم بعد ما قام الدين على قدمه وساقه ، وظهرت نواة الأمة المسلمة الحنيفة ، لبناء بيت الله تعالى ، ويكون مثابة للناس وأمناً ، ومعبداً لله وحده ، فيتعاون الوالد والولد في بناء هذا البيت البسيط المتواضع في مظهره ، العميق الرفيع في عظمته ، فينقلان الحجارة ، ويرفعان البناء ، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] .

وقام البيت على أساس من إيمان وإخلاص ، ليس لهما نظير في الدنيا ، وتقبله الله بقبول حسن ، وقضى ببقائه ، وكساه الجمال والجلال ، وعطف إليه القلوب والنفوس ، وجعله مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب ، يود الناس لو يسعون إليه على رؤوسهم ، ويصلون إليه ببذل مهجهم ونفوسهم ، مع تجرده عن كل ما يستهوي القلوب ، ويستلفت الأنظار ، ووقوعه في بلد بعيد عن جمال الطبيعة وبهرج المدنية. ولما كان ذلك نودي إبراهيم: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ

(١) سورة البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨ .

وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[1] .

كان العالم في عصر إبراهيم عليه السلام خاضعاً للأسباب ، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله ، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها وغلوا ، من عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيين ، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص ، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء وأنه يخلق الأشياء من عدم ، وأنه يخلق الأسباب ويملكها ، ويفصل الأسباب عن المسببات ، وينتزع عن الأشياء خواصها ، وطبيعتها ، ويستخرج منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء ، أشعل الناس له النيران ، وقالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾[2] وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى ، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة ، لا تنفك عنها ، إنما هي طبيعة مودعة أمانة فيها ، وإذا أراد أطلق لها العنان ، وإذا أراد أمسك الزمام ، وحولها إلى برد وسلام ، فخاضها مؤمناً مطمئناً واثقاً ، وهكذا كان؛ ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾[3] .

واعتقد الناس أنه لا حياة إلا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبة

---

(١) سورة الحج : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) سورة الأنبياء : ٦٨ .
(٣) سورة الأنبياء : ٦٩ ـ ٧٠ .

تكثر فيها المياه ، ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل فيها التجارة والصناعة ، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع ، والاعتماد على الأسباب ، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع ولا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية ، ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ويعطف إليهم القلوب ، ويجبي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف ، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1] .

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم الرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2] ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[3] تركهم في أرض لا أثر فيها لما يروي الغلّة ، ويبل الحلقوم ، فإذا بماء يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس في سخاء ، ويحملونه إلى بلدهم . ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمه الناس من كل صوب ، ويأتون إليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأن إرادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه ، يخضع له الأسباب ، ويخلق له ما تحار فيه الألباب .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٧ .
(٢) سورة القصص : ٥٧ .
(٣) سورة قريش : ٣ ـ ٤ .

الحج تخليد لخصائص إبراهيم ومآثره ، وتجديد لدعوته وتعاليمه :

والحج ومناسكه وما يحيط به من ذكريات ، وحوادث ، وما يتلبس به الحاج من التجرد عن المظاهر ، وما يأتي به من عمل ونسك ـ من إحرام ، ووقوف ، وإفاضة ، ورجم ، وسعي ، وطواف ـ تخليد لما اختص به إبراهيم عليه السلام من التوحيد ونفي الأسباب ، والتوكل على الله والتفاني في سبيله ، وإيثار لطاعته ومرضاته ، وتمرد على العادات والأعراف ، والمعايير الزائفة والمثل المصطنعة ، وتجديد لذلك الإيمان القوي ، والحب العميق والتضحية الفائقة والإيثار الرفيع ، والحج ضامن لبقاء هذه المعاني السامية كلها ، وهذه القيم الربانية كلها ، وبقاء الجامعة الإسلامية الإنسانية التي هي فوق القوميات والعنصريات والوطنيات المحدودة المصطنعة ، ودعوة للناس إلى أن يسيروا على نهج إبراهيم ، ويتشبعوا بروحه ، ويقوموا بدعوته في كل عصر وفي كل مكان ، ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[1] .

عنوان جديد ، وخط فاصل في كتاب الإنسانية :

إن إبراهيم ودعوته وجهاده عنوان جديد ، نيِّر مشرق في كتاب الإنسانية وامتدادها ، ينفصل به التاريخ عن التاريخ ، وتتوزع به الإنسانية بين المعسكرين يخلدان مع الزمن ، ويبتدىء به عهد ، وينتهي به عهد ، وقد جعل الله لإبراهيم الإمامة الخالدة والكلمة الباقية ، وجعل في ذريته النبوة والولاية ، والوصاية الدينية على العالم للأبد ، وكتب لأسرته ومن دخل داره الجهاد للحق ، والوقوف في وجه الباطل إلى آخر الأبد ،

---

(١) سورة الحج : ٧٨ .

والدعوة إلى الله ، وتجديف سفينة البشرية في عواصف هوجاء ، وأمواج عاتية ، والمحافظة على هذا السراج من أن ينطفىء ، وهو العامل البناء الوحيد الذي استعمله الله في إسعاد البشرية ، وعصمها من تخريب العالم وتدمير الإنسانية ، وسوقها إلى الجحيم.

عماد الإنسانية ، وقيام للناس:

والحج وشهود الموسم ، والتقاء أبناء ملة إبراهيم في مكة كل عام ، هو كاف لبقاء هذه الصلة ، بين إبراهيم وأتباعه ، وأبنائه الروحيين ، وتجديد هذه المعاني والعقائد والأهداف التي فيها بقاء لهذه الملة والإنسانية كلها ، لذلك قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

مركز دائم للهداية والإرشاد ، والإصلاح والجهاد:

وجاء عهد الإسلام ودور الرسالة المحمدية الخالدة ، فأصبح هذا البيت مركزاً للهداية والإرشاد ، والإشعاع الروحي ، والغذاء العاطفي ، تقام حوله المناسك ، وتغذى به العاطفة ، وتشعل به مجامر القلوب ، وتشحن به «بطاريتها» الفارغة ، ويتلقى منه الرسالة الدينية ، ويجتمع حوله العالم الإسلامي كل عام ، ويؤدي خراجه من الطاعة ، وضريبته من الحب والانقياد ، ويثبت تمسكه بهذا الحبل المتين ، ولجوئه إلى هذا الركن الركين ، ويطوف حوله أعظم العلماء والعقلاء ، والزعماء والعظماء ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والفقراء ، في وله وهيام ، وفقه وحكمة ، يثبتون أنهم مجتمعون على تفرق ، متوحدون على تعدد ، متركزون على انتشار ، أغنياء على الفقر ، أقوياء على الضعف ، ينتشرون

---

(١) سورة المائدة: ٩٧.

في العالم ، ويسعون في أرزاقهم ومصالحهم ، وينتسبون إلى أمم وسلالات ، ويختلفون في الحضارات والثقافات ، ويلتقون على نقطة واحدة وحول نقطة واحدة ، وحياتهم كلها طواف وسعي ، ونسك وعبادة ، وإيمان وعقيدة ، ومقاماتهم كلها منى وعرفات ، وأسفار ووقفات ، وإنما هم في رحلة دائمة ، وتقدم مستمر ، وتعارف متكرر ، حتى يقضوا نحبهم ، ويلقوا ربهم.

إلى مدينة الرسول ﷺ ، ومسجده العظيم:

وكان من الطبيعي بعد ذلك كله ، أن يحن المسلم ، لا سيما الوافد من مكان بعيد ، إذا قضى حجه ، وأدى مناسكه إلى مهجر خاتم المرسلين ومثواه الأخير ، ومأرز الإسلام ، إلى المسجد الذي انبثق منه النور ، وانطلقت منه موجة الهداية والعلم ، وقوة الإسلام في العالم ، إلى المدينة ، التي آوى إليها الإسلام ، وتمثلت فيها فصول التاريخ الإسلامي الأول ، وابتل ترابها بدموع الصحابة رضي الله تعالى عنهم ودمائهم ، فيصلي في المسجد الذي تعادل ركعة فيه ألف ركعة في غيره[١] ، ويقف في مواقف وقف فيها الشهداء والصديقون ، والسابقون الأولون ، فيستمد منها الصدق والإيمان ، والحب والحنان ، والبطولة والشهادة في سبيل الإسلام ، ويصلي ويسلم على هذا النبي الذي خرج بدعوته وجهاده من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وذاق لأول مرة حلاوة الإيمان ، وعرف قيمة الإنسان.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه: إلا المسجد الحرام» (متفق عليه).

عرضة سنوية تحفظ على الأمة نقاءها وأصالتها ، وتعصم الدين عن التحريف والفساد الشامل :

والحج عرضة سنوية للملة ، يرجع إليها الفضل في نقائها وأصالتها ، وفي بقاء هذا الدين ، بعيداً عن التحريف والغموض والالتباس ، وفي بقاء هذه الأمة بعيدة عن الانقطاع عن الأصل ، والمصدر والأساس ، محفوظة من المؤامرات والمغالطات التي وقعت أمم كثيرة فريستها في الزمن الماضي ، وعن طريق هذه المؤسسة العظيمة الحكيمة ، تبقى هذه الأمة العظيمة الخالدة محتفظة بطبيعتها الإبراهيمية الولوع الحنون ، العطوف الرؤوف ، الثائرة القوية الحنيفية السمحة ، وتتوارثها جيلاً بعد جيل ، فكأنها القلب الحي القوي الفياض الذي يوزع الدم إلى عروق الجسم وشرايينه ، وبها تستعرض هذه الأمة مجموعها في صعيد واحد ، فينفي بذلك علماؤها وزعماؤها تحريف العالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وخرافة المخرفين ، ويردونها إلى الأصل الإبراهيمي الحنيفي ، وإلى الشرعة المحمدية (الصافية) وإلى الدين الخالص ، وبها تستطيع هذه الأمة أن تحافظ على وحدتها الدينية والعقلية والثقافية ، وتعتصم عن أن تؤثر فيها الإقليمية والمحلية تأثيراً يفقدها الوحدة الحنيفية الإبراهيمية ، والصبغة الإسلامية المحمدية ، كما كان شأن الديانات السابقة الكثيرة ، والأمم الدينية العديدة.

لقد قدر الله لهذه الأمة الخالدة أن تعيش في بيئات مختلفة ، وفي أقاليم عديدة ، وتجتاز أدواراً كثيرة جداً ، مختلفة جداً ، من حرارة وقوة وجمود وخمود ، وعنف وقسوة ، ومصارعة ومقاومة ، وإغراءات مادية وسياسية ، وتقدم في الحضارة والمدنية ، وتوسع في المال والمادة ، وضيق وضنك ، وبذخ وترف ، وعسر ويسر ، وشدة ورخاء ، وتسلط عدو قاهر وملك جائر ، وكانت الأمة في حاجة دائمة إلى إشعال جذوة

الإيمان ، وإثارة عاطفة الحب والحنان ، وإعادة الوفاء والولاء في سائر الأجزاء والأعضاء ، فجعل الحج ربيعاً تورق فيه أغصان هذه الشجرة الخالدة كل عام ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، وتكتسي فيه هذه الشجرة العالمية لباساً جديداً قشيباً ، غضاً طرياً.

وقد سبق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، بما أكرمه الله من فقه دقيق ، وفهم عميق لأسرار التشريع ومقاصد الإسلام ، فأشار إلى هذه النكتة في كتابه «حجة الله البالغة» فقال:

«وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة بعد كل مدة ليتميز الناصح من الغاش ، والمنقاد من المتمرد ، ليرتفع الصيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ، فكذلك الملة تحتاج إلى حج ؛ ليتميز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً ، وليرى بعضهم بعضاً ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ؛ إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي»[١].

وقال:

«وإذا جعل الحج رسماً مشهوداً نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضيض على الأخذ بها»[٢].

وقال:

«ومنها تحقيق معنى العرضة ، فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني ، ليعرف فيه بعضهم بعضاً ، ويستفيدوا أحكام الملة ، ويعظموا شعائرها.

---

(١) حجة الله البالغة: ج١ ص٥٩ ـ ٦٠.
(٢) أيضاً: ج ـ ص٥٩ ـ ٦٠.

والحج عرضة المسلمين ، وظهور شوكتهم ، واجتماع جنودهم ، وتنويه ملتهم ، وهو قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[1] [البقرة: ١٢٥].

مركـز الإشعـاع العالمـي الخالـد:

وقضى الله ألا يخلو «الحج» في أشد أيام هذه الأمة وأحلكها ، من الربانيين المخلصين ، ومن الصالحين المقبولين ، ومن الدعاة المرشدين ، ومن الداعين المبتهلين ، ومن الخاشعين المنيبين ، ومن العلماء الراسخين الذين يملؤون الجو روحانية وخشوعاً ، فترق القلوب القاسية ، وتخشع النفوس العاصية ، وتفيض العيون الجامدة ، وتلتهب المجامر الخامدة ، وتنزل رحمة الله وتغشى السكينة ، ويخزى الشيطان ، لذلك جاء في الحديث ، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا بما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[2] ويتكهرب الجو فيشحن المسلمون الذين جاؤوا من كل صوب بعيد وفج عميق ، (بطارية) قلوبهم الفارغة ، ويأخذون زاداً من إيمان وحب وحماسة ، وعلم وفقه ، يعيشون عليه في حياتهم الباقية ، ويقاومون به كل ما يواجهونه من إغراء وتسويل ، وتخويف وتزيين ، ويشركون في هذا الزاد إخوانهم المسلمين الذين قعد بهم الفقر أو الضعف ، أو المرض أو العدو ، وهكذا يجري هذا التيار الكهربائي الإيماني في جسم هذه الأمة المنتشرة في الآفاق ، فيتعلم الجاهل ، ويقوى الضعيف ويتحمَّس الخامد ، وتكتسب الأمة بذلك قوة جديدة على تأدية رسالتها ، وتستأنف كفاحها من جديد.

---

(١) أيضاً ج ـ ص٤٢.

(٢) رواه مالك مرسلاً.

مظهـر الجامعـة الإنسانيـة الإسلاميـة :

والحج انتصار للقومية الإسلامية على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة ، وهو إظهار لشعار هذه القومية ، فتتجرد جميع الشعوب الإسلامية عن جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية التي تميز بعضها عن بعض ويتعصب لها أقوام؛ وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى (الإحرام) في لغة الدين والفقه وفي مصطلح الحج والعمرة ، حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرؤوس ، وصغير وكبير ، وغني وفقير ، وتهتف كلها في لغة واحدة ، ونغمة واحدة ، «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» ، وهكذا تتجلى القومية الإسلامية في اللباس والهتاف ، وهما من أوضح ما تجلت فيه قومية ، وفي وحدة المناسك والغايات التي يقوم بها جميع الأفراد والشعوب ، ويسعى إليها العرب والعجم ، ويلتقي عليها القاصي والداني ، فكلهم يطوفون حول بيت واحد ، ويسعون بين غايتين مشتركتين(الصفا والمروة) ، وكلهم يقصدون (منى) ، وكلهم يؤمون (عرفات) ويقفون في موقف واحد ، وكلهم يبيتون في مبيت واحد ، ﴿ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١] ، ويفيضون إفاضة واحدة ، ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[٢] ، وكلهم يقفون أياماً في (منى) تجمع بينهم أشغال واحدة من نحر وحلق ورمي .

وما دام الحج ـ والحج فريضة باقية إلى يوم القيامة ، ومؤسسة خالدة

---

(١) سورة البقرة : ١٩٨ .

(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .

خلود هذه الأمة ـ فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات ، كما ابتلعت أمماً كثيرة ، ولا يصبحون ضحيتها ، ولا تكون بلادهم التي يحبونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية ، قبلة يتوجهون إليها ، وكعبة يحجون إليها ، إنما هي قبلة واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي ، والعجمي والعربي ، وإنما هي كعبة واحدة يحج إليها الهندي والأفغاني ، والمسلم الأوروبي والأمريكي ، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] ، ويحن إليها المسلم في أقصى الأرض ، وينذر لهذه الرحلة النذور ويسعى إليها على الرأس والعين ، ويعتبر ذلك غاية الأوطار ، وأقصى الأماني ، وأعظم السعادات .

ليشهدوا منافع لهم :

وشرع الحج لجميع هذه الفوائد والمنافع التي نعلم منها الكثير ، ونجهل منها الكثير ، وربما كان ما نجهله ونتمتع به أكثر مما نعرفه ، مما نوه به حكماء الإسلام ، وأشادوا به في مؤلفاتهم ، فقد قال الله تعالى : ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ﴾[2] ، فأطلق المنافع ، ونكرها وأبهمها ، ودل هذا التعبير البليغ على كثرتها وتنوعها وتجددها في كل زمان ، وإنها أكثر من أن يأتي عليها الإحصاء والاستقصاء[3] .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٥ .

(٢) سورة الحج : ٢٨ .

(٣) إن الحج لا شك موسم ، يشهده المسلمون من آفاق الأرض ونواحي العالم الإسلامي ، ليشهدوا منافع لهم ، فيستطيعون أن يتبادلوا الرأي السديد والفكر الحصيف ، ويتعرف بعضهم ببعض ، ويجتمعوا على كلمة واحدة ومصلحة راجحة راشدة .

ولكن ليست هذه حكمة الحج الوحيدة . كما اعتاد الكتاب المصريون أن ينوهوا بها ، وليس الحج مؤتمراً سياسياً فحسب ، كما يصوره كثير من حملة الأقلام ، ورجال السياسة والاجتماع في هذا العصر ، فلو كانت هذه هي الحكمة التي شرع لها الحج ، =

يجب أن يمثل البلد الأمين الحياة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي المثالي ، في كل زمان:

ولما كان الحج عرضة سنوية للملة ، يلتقي فيها المسلمون على صعيد واحد من العقيدة والعاطفة والغاية ، في جو ديني رباني ، وفي محيط روحي إيماني ، يستمدون منه قوة جديدة وروحاً جديدة ، ويصححون ما وقع في عقيدتهم من انحراف ، وفي عاداتهم وشعاراتهم من فساد ، وما اعتراهم من زيغ أو وهن بتأثير الحضارات والفلسفات العجمية الأجنبية ، وتقليد الشعوب والأمم التي تجاورهم ، أو يعيشون فيها ، ويستطيعون أن يردوا كل شيء إلى أصله ، وأن يستقوا الدين من منابعه الصافية الأصيلة ، وجب بحكم العقل والمنطق ، وبحكم روح الإسلام وحكمة الحج ، أن يظل البلد الأمين الذي يقع فيه الحج ، ويدور حوله ، أميناً للحياة الإسلامية ، الصافية الأصيلة (يصور الحياة الإسلامية) بجميع جوانبها ومزاياها ومظاهرها ، حتى يلمسها ويتذوقها كل وارد إليه مهما قصرت إقامته وقلَّت معرفته ، لأن الله قد قضى أن يكون هذا البلد مركز الحج إلى آخر الزمان ، ومثابة للمسلمين من جميع أنحاء العالم في كل سنة ، يَـفِدون إليه ، وهم مؤمنون بحق بأنهم يقصدون بلداً هو معدن

= لكان في الحج استقرار وساده جو من الهدوء يساعد على ذلك ، ولكنه اضطراب وانتقال من مكان إلى مكان ومن نسك إلى نسك ، ولكانت دعوة مقصورة على العلماء والزعماء ، والأذكياء والنبهاء ، وعلى الخاصة من المسلمين ، إنها لا شك ثمرة من ثمرات الحج ، ولكن ليست هي الغاية التي شرعت لها هذه الفريضة العظيمة ، وقد فرضت على المسلمين ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج؛ فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». ولكان له وضع غير هذا الوضع ، ومكان غير هذا المكان القاحل النائي.

الطهر ، ومولد الدين ، وعاصمة الإسلام الروحية ، وكل ما يشاهد ويسمع في جوانبه هو حجة للمسلم الغريب الذي يعيش بعيداً عن مهد الإسلام ، وليس بعد عمل أهل مكة والمدينة حجة عند عامة المسلمين «وما وراء عبادان قرية».

وهذه الطبيعة البشرية التي لا نستطيع أن نتغلب عليها بمنطق أو دليل ، أو خطابة أو بلاغة ، وهو الاحتجاج بعمل أهل المركز زعيم لدين أوحضارة ، وهو العرف الذي جرى في مجال اللغة والآداب ، والحضارة والفقه ، فكانت لغة قريش ، ثم لغة البادية العربية ، هي الحجة في اللغة العربية ، ومناهج كلامها ولهجاتها ، وكان عمل أهل المدينة حجة في مذهب كبير من المذاهب الفقهية الإسلامية[1] ، وظل عمل أهل قرطبة حجة عند كثير من فقهاء المغرب عندما كانت في أوجها العلمي الثقافي ، وكانت مجمع العلماء والقضاة ، واحتج الناس قديماً وحديثاً بعادات عاصمة البلاد ومركزها الحضاري ، وتنافس الناس في تقليدها ، ورأوا فيها المثل الكامل ، والقدوة في الحضارة والأناقة والظرف ، ودعاة الإسلام زعماء الإصلاح يلقون صعوبة ومحنة ، إذا احتج الحجاج بما قد يشاهدونه ويسمعونه في مركز الإسلام ومهبط الوحي مما لا يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية ، أو آدابها ويصعب إزالتهم عن ذلك»[2].

يجب أن يبقى «البلد الأمين» محتفظاً بطراز خاص ، والحج بروح الجهاد والتقشف:

وجانب أدق من هذا ، وهو أن يبقى هذا البلد الأمين ـ على مر

---

(١) كالمذهب المالكي.

(٢) مقتبس من حديث ألقاه المؤلف في المؤتمر الإسلامي الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي في مكة ، سنة ١٣٨٤هـ.

العصور والأجيال ، ورغم تطورات المدنية ومرافق الحياة في العالم ـ محافظاً على شيء من البساطة والطبيعة ، وعلى شيء من التقشف ، ويتذكر فيه الوافدون من أنحاء العالم ، الجو الذي كان المسلمون الأولون يقضون فيه مناسكهم ، ويشعرون بشعورهم ، أو قريب من شعورهم ، ويشعرون بانتقال من عالم إلى عالم ، ومن جو إلى جو ، ومن حياة إلى حياة ، فإن هذا الشعور يحدث في النفوس تخلياً عن الماضي ، واستعداداً لتلقي شيء جديد ، وفرحة روحية لا يشعرون بها في مكانهم ، أما إذا بقي البيت وحده ، والحرم وحده على قِـدَمهما ، وتغير كل شيء حولهما ، وأصبح البلد الأمين وما جاوره من البقاع قطعة من أوروبا أو أمريكا ، وحلت المدنية الغربية بخيراتها وشرورها ، وبأصولها وفضولها ، وأصبح الحاج الذي وصفه لسان الشرع «بالشعث التفل» يتقلب في أعطاف المدنية والنعومة ، وينتقل من راحة إلى راحة ، ومن تنعم إلى تنعم ، ومن حديث إلى أحدث ، فإنه لا يشعر بشيء جديد قوي يحدث في مشاعره انقلاباً ، ويشحنه شحناً روحياً.

ولذلك اعتبر الحج صنو الجهاد ، وقد روى البخاري عن عائشة مرفوعاً: «أفضل الجهاد وأجمله حج مبرور» وعنها ، قالت : «قلت يا رسول الله! نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ فقال: لكن أفضل الجهاد حج مبرور» ، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: «شدوا الرحال في الحج ، فإنه أحد الجهادين». وإذا تطورت مكة تطوراً جذرياً ، واقتبست من الحضارة الغربية جميع مرافقها ووسائلها ، وتوفرت للحج جميع أسباب الراحة والتنعم التي لا توجد إلا في العواصم الغربية الكبرى ، شعر الحجاج بشيء من الفراغ الروحي ، وبشيء من الجفاف ، وبانحطاط ملموس في فوائد الحج ، وآثاره في النفس والحياة.

التشريعات الحكيمة لزيادة فائدة الحج ، وتقوية أثره في النفس والحياة :

وقد هيأ الوحي الإلهي والتشريع السماوي للحج جواً ، يثير الجد والقصد ، وينبه النفس والفكر ، ويحوطه بسياج من العبادة والروحانية والقدسية ، فإنه كان في أكثر الأحيان رحلة طويلة ، وانتقالاً من بلد إلى بلد يمر فيه الحاج ببقاع مختلفة ، وأجواء متنوعة ، ومَلاذ وملاهٍ ، وشواغل وصوارف قد تقصر فيها المدة وقد تطول ، ويدخل في بلد جديد ، ويختلط بأقوام وطبقات كثيرة ، ويخرج النساء مع الرجال ، وفيهم الشيوخ والشباب ، وقد تجتمع أفراد الأسرة أحياناً ، ويكون الرجل مع زوجه وأهل بيته ، وكل ذلك خليق بأن يفقد الحج روعته ومهابته وقدسه ، وروح العبادة والجهاد فيه ، وتصبح هذه الرحلة كأي رحلة عادية طبعية ، أو الإقامة في مكة ، والتنقل في مواضع المناسك كأي إقامة في أي بلد .

لذلك أضفى التشريع على الحج لوناً لا يزول ، لوناً من الجدية والقدس ، وحاطه بأسوار وخنادق عديدة ، جعلته بعيداً عن الغفلة والذهول ، والعبث والفضول ، وله في ذلك تشريعات دقيقة حكيمة ، كانت كفيلة بأن يبقى الحج عبادة عميقة الأثر ، في النفس والحياة ، وركناً من أركان الإصلاح والتربية ، ووسيلة قوية للتقرب إلى الله .

منها ، أنه جُعِل ركناً من أركان الإسلام الأربعة ، وفريضة على من استوفى شروطها ، لا يقبل الله عنها صرفاً ولا عدلاً ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وقد روى الترمذي عن علي رضي الله تعالى عنه رفعه: «من ملك راحلة وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج ، فلا عليه أن يموت

---

(١) سورة آل عمران: ٩٧ .

يهودياً أو نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾» وقال النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، من استطاع إليه سبيلاً»[١].

وقد نوه لسان النبوة بفضل الحج ومكانته عند الله ، وأكثر من بيان فضائله ، لأنها هي التي تثير في النفس الشوق والرغبة ، وتبعث الإيمان والاحتساب ، فلا قيمة لعمل أو عبادة حتى تقترن بهما ويكونان هما الباعثين على إتيانها ، فقد روى الستة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «الحج المبرور ليس له جزاء إلى الجنة» وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قال : قال رسول الله ﷺ: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه»[٢] وروى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة ، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه»[٣] ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة»[٤] وسئل النبي ﷺ: «أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا؟ قال : حج مبرور»[٥].

ومن هذه التشريعات الدقيقة الحكيمة ، «المواقيت» التي تنبه في

---

(١) متفق عليه.
(٢) للستة ، إلا أبا داود.
(٣) للنسائي ، والترمذي بلفظه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) متفق عليه.

الحاج شعوراً جديداً ، ويقظة فكرية روحية ، فيعرف أنه دنا من الحضرة الملوكية ، ودخل في حدودها المحمية المقدسة ، فلولا المواقيت لاقتحم الحجاج الحضرة المقدسة ، وهجموا عليها كما يهجم الجهال الأجلاف على حضرة الملوك وعتبة السلاطين ، فيقابلون باستنكار وجفاء ، وطرد وإهانة ، وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي بيان حكمة المواقيت ، وسر تشريعها وتعيينها للقاصدين من جهات مختلفة ، قال:

«الأصل في المواقيت ، أنه لما كان الإتيان إلى مكة شعثاً تفلاً ، تاركاً لغلواء نفسه مطلوباً ، وكان في تكليف الإنسان ، أن يحرم من بلده حرج ظاهر ، فإن منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين وأكثر ، وجب أن يخص أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الإحرام بعده ، ولا بد أن تكون تلك المواضع ظاهرة مشهورة؛ ولا تخفى على أحد ، وعليها مرور أهل الآفاق ، فاستقرأ ذلك ، وحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت ، لأنها مهبط الوحي ومأرز الإيمان ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ورسوله ، فأهلها أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله ، وأن يخصوا بزيادة طاعة الله ، وأيضاً فهي أقرب الأقطار التي آمنت في زمان رسول الله ﷺ ، وأخلصت إيمانها بخلاف جؤاثى ، والطائف ، واليمامة ، وغيرها ، فلا حرج عليها»[1] .

ومنها «الإحرام» الذي ينبه في الحاج الشعور والانتباه ، ويكون حارساً له عن الغفلة والذهول ، وينبهه إلى أنه مقبل على أمر عظيم ، وأنه قاصد للحضرة الملوكية؛ وإلى أنه تجرد مما كان فيه من مظاهر جوفاء وشعارات زائفة ، وأبّهة مصطنعة ، فيصير هذا الإحرام كالتحريمة للصلاة تنقله من

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٤٤ .

جو إلى جو ، ومن حرية وانطلاق إلى تقيد وارتباط ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه :

«اعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الإخلاص والتعظيم وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل ، وفيه تحقيق معاناة التعب ، والتشعث ، والتغبر لله»[١] .

وكذلك شرع للخروج من الإحرام والتحرر من قيوده وأحكامه طريقة ظاهرة تنبه في النفس الشعور ، ولا يصعب إتيانها ، فلا يخرج الحاج من إحرامه فلتة أو مفاجأة ، ويتمتع بالمباحات ، إلا بعمل ظاهر ، وقصد وإرادة ، كما لا يخرج من صلاته إلا بالتسليم ، وهو الحلق ، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي :

«السر في الحلق أنه تعيين طريق للخروج من الإحرام بفعل لا ينافي الوقار ، فلو تركهم وأنفسهم ، لذهب كل مذهباً ، وأيضاً ففيه تحقيق انقضاء التشعث والتغبر بالوجه الأتم ، ومثله كمثل السلام من الصلاة»[٢] .

ومنها «التلبية» التي حث الشرع على الإكثار منها ، واستحسن النبي ﷺ رفع الصوت بها وتكثيرها ، وقد سئل أي الحج أفضل ، قال : «العجُّ والثجُّ»[٣] وفي التلبية تأثير غريب في تنبيه النفس وإيقاظها لمقاصد الحج ، وشحنها بالإيمان والحنان ، والاطراح على عتبة الرحمن ، وبها يسري التيار الإيماني الروحي في جسم الحاج ومشاعره وأعصابه ، كما

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٤٤ .
(٢) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٤٥ .
(٣) رواه ابن ماجه في سننه ، عن ابن عمر رضي الله عنه .

يسري التيار الكهربائي في الأسلاك ، ويعد الحاج للاستفادة من هذا الركن العظيم ، الذي قد يكون قد هجم عليه من غير استعداد ، أو من غير تفقه ووعي ، فإذا قال: «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» ، تمثل له الحج ومقاصده العظيمة وروحه ، وثارت فيه الأشواق ، وفاضت كأس الحب والحنان ، والتهبت شعلة التوحيد في عروقه ودمه ، واتصل بإبراهيم الخليل ، الموحد الحنيف ، واتصل بمحمد ﷺ ، والداعين بدعوته اتصالاً فكرياً روحياً ، واندمج في حزبهم.

وقد جمع الله للحج حرمتين ، حرمة الزمان والمكان ، ليقوى الشعور بحرمة هذا الركن العظيم ، وجلاله وروعته ، والشعور بالمسؤولية ، وليكون الحاج في جميع تنقلاته وحركاته وسكناته مرهف الحس حاضر الفكر ، لا يذهل لحظة عن الجو الروحاني الذي يحيط به.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[1]. وقال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾[2] ، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات: ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وأما حرمة المكان ، فقد جاء في القرآن: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) سورة التوبة: ٣٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[١] ، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح (فتح مكة): «لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا» وقال يوم الفتح ـ فتح مكة ـ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل فيه القتال لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها . وقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال: إلا الإذخر».

وقد كانت المعصية في الحرم أغلظ وأشد ، وقد استدل بعض العلماء على أن إرادة المعصية فيه معصية ، بخلاف غيره من البقاع ، بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢]. قال ابن كثير: وهذا من خصوصية الحرم ، أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه ، وإن لم يوقعه.

وقد ضم إلى ذلك كله حرمة الإحرام ، وشرع له أحكاماً وآداباً خاصة ، منها: حرمة الصيد في حالة الإحرام ، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[٣] وقال. ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤].

يقول شيخ الإسلام الدهلوي رحمة الله عليه:

---

(١) سورة النمل: ٩١.

(٢) سورة الحج: ٢٥.

(٣) سورة المائدة: ٩٥.

(٤) سورة المائدة: ٩٦ ـ اقرأ تفسير الآيتين والأحكام الفقهية المتفرعة منهما ، وما في ذلك من خلاف ، وتفصيل في كتب التفسير وأحكام القرآن.

«وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقاً للتذلل وترك الزينة والتشعث ، وتنويهاً لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه ، ألاّ تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تَـلَـهٍ وتوسع»[١].

ولما كان الحج سفراً طويلاً في غالب الأحيان ، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾[٢] وانتقال من حال إلى حال ، ويكثر فيه الاختلاط ، وتطول الزمالة ، وتتنوع المعاملات ، كان ذلك مثاراً لكثير من المحظورات والمغريات والمناقشات ، وكثيراً ما تثور النفس ويضيق الصدر ، وينفد الصبر ، فيلجأ الحاج إلى ما يتحاشى عنه في الوطن والإقامة ، والأحوال العادية ، ويتورط في بعض المعاصي والأخلاق القبيحة ، وما ينافي روح الحج ومقاصده ، فجاء النهي عن ذلك بصفة خاصة في الحج ، لأن الحج مظنة قوية له ، فقال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ[٣] فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ[٤] وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٥].

وقد أسبغت هذه التشريعات ، وهذه الأحكام التي تتصل بالقلب والجوارح ، والقصد والعمل ، والزمان والمكان ، على الحج لباساً من القدس ، والطهر ، والتورع والتقشف ، والمراقبة لله تعالى ، والحسبة

---

(١) حجة الله البالغة ـ ج٢ ـ ص٤٤.

(٢) سورة الحج: ٢٧.

(٣) هي شوال ، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، علقه البخاري بصيغة الجزم ، ورواه ابن جرير موصولاً ، وهو مروي عن أكثر الصحابة وفضلاء التابعين ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، (راجع تفسير ابن كثير).

(٤) اقرأ تفسير الكلمات وأمثلتها في كتب التفسير والأحكام.

(٥) سورة البقرة: ١٩٧.

للنفس والجهاد ، لا يشاركه فيه ما يماثله ، أو يدخل في موضوعه في الديانات الأخرى وطوائف الأمم ، وكانت لها آثار عميقة في النفس والأخلاق والحياة ، يتحقق معها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه»[١] .

حجة الوداع وقيمتها التربوية والبلاغية:

حج رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة ، وكانت حجة الإسلام ، وشهد معه هذا الحج أكثر من مئة ألف إنسان ، وهي حجة الوداع[٢] .

وقد دلت كل القرائن على أن هذه الحجة كانت مقصودة من الله بهذا التفصيل ولم تكن فلتة من الفلتات ، بل جاءت في وقتها المناسب ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ وكان في تأخيرها إلى هذا الوقت حكمة بالغة ، ومصلحة راجحة ، فقد انتشر الإسلام في جزيرة العرب ، وكثر المسلمون ، وقوي الإيمان ، وشب الحب ، واستعدت النفوس للتعلم والاستفادة ، وهفت القلوب ، ورنت العيون إلى المشاهدة والمراقبة ، ودنت ساعة الفراق ، فألجأت الضرورة إلى وداع الأمة ، فخرج رسول الله ﷺ من المدينة المنورة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد الميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه.

فكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة ، وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ، ومسجداً سياراً ، وثكنة جوالة ، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة

---

(١) رواه الستة عن أبي هريرة ، إلا أبا داود.

(٢) وتسمى «حجة الإسلام» و«حجة البلاغ» و«حجة التمام». (البداية والنهاية والخميس).

واحدة تغشاهم في الحل والترحال هي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه ، وتربيته وإشرافه .

وقد كان من آثار نضج المسلمين العقلي ، وقوة حبهم ، وشدة تعلقهم بكل ما يصدر عن هذه الشخصية الحبيبة المفداة ، أن سجلوا كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، لا يحتفل بأمثالها في رحلات العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، والعلماء والنبغاء ، وذلك شأن المحب الوامق ، والعاشق الصادق ، الذي يرى كل شيء لمحبوبه حسناً ، فليتلذذ بذكره ، ويسترسل في حديثه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها ولا دقيقة نادرة إلا يستقصيها .

يتطيب رسول الله عند إحرامه فيذكرون من باشر هذا التطييب ، ويذكرون نوع هذا الطيب ، فيقولون: «ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[1] وطيب فيه مسك ، حتى يرى وبيص المسك في مفارقه ولحيته ﷺ ، ويشعر رسول الله ﷺ هديه ، فيذكرون تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سالت عنها الدم ، ويذكرون احتجامه ، والاحتجام فعل طبي طبعي لا صلة له بمناسك الحج ، فيحددون مكانه من الجسم ، وموضعه من الطريق ، فيقولون: «واحتجم بملل» (وملل موضع بين مكة والمدينة على سبعة عشر ميلاً من المدينة) ويقولون: «واحتجم على رأسه بلحى جمل (وهو موضع في طريق مكة) وتهدى له قطعة لحم ، وهي حادثة عادية تتكرر ولا تسترعي الاهتمام في عامة الأحوال ، فيذكرونها بالتحديد والتفصيل ، فيقول الراوي: «حتى إذا كانوا بالأبواء أهدى له الصعب بن جثامة عجز حمار وحشي» ويحددون المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدون أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم

---

(١) وقد أفاض الشراح في وصف الذريرة وأنواعها ، راجع هذا الكتاب .

يعرف الناس فيه كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولكن الحب يلهم ويخترع ، فيقول الراوي: «ثم نهض إلى أن نزل بذي طوى ، فبات بها ليلة الأحد لأربع خلون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ونهض إلى مكة» ولم تفتهم شاردة ولا نادرة في هذه الرحلة التي كثرت فيها الشواغل ، وتعددت فيها المنازل ، واشتد فيها الزحام ، فلم يفتهم أن يقيدوا خروج حية في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، فيقول الراوي وهو يذكر ليلة منى: «وخرجت حية وأرادوا قتلها ، فدخلت في جحرها» ويذكرون كل من كان رديف[1] رسول الله ﷺ في هذه الرحلة ، ويذكرون اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصهم بالشق الأيمن ، ومن خصهم بالشق الأيسر ، وهذه كلها تفاصيل ودقائق لم يكن مصدرها إلا الحب العميق.

ومن العبث وإضاعة الوقت أن يبحث عن نظائرها في رحلات القادة ، وتاريخ المشاهير ، وقد أخلت أمم كثيرة بحياة أنبيائها وسيرهم وأخبارهم ، ومراحل حياتهم ، وضيعوا منها الشيء الكثير ، الذي لا تكمل حياتهم ولا يتم تاريخهم إلا به ، ولم يحافظوا إلا على النزر اليسير من أخبارهم وأحوالهم ، فجل ما نعرف من حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، هو أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرته وأخباره[2] ، وهنالك أصحاب رسالات وديانات في بلاد متمدنة عريقة في العالم لم تبق إلا أسماؤهم ونتف من أخبارهم لا تشفي الغليل ،

---

(١) وقد استوعب صاحب «نسيم الرياض» أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته ، فذكر نحو ثمانية وثلاثين رديفاً ، وزاد ابن مندة على هذا العدد ، راجع هذا الكتاب.

(٢) وقد توصل الباحثون والمؤرخون أخيراً إلى أن هذه المدة كانت أقل مما ذكر بكثير ، فهي لا تزيد على شهرين أو ثلاثة أشهر اقرأ المقالة الواردة في دائرة المعارف البريطانية. =

ولا تروي الغليل ، ولا تقود الأجيال ، ولا تنير السبيل»[١].

«الحج والزيارة» في الديانات القديمة ، سماتهما وفوارقهما :

لم تعرف أمة ولا ديانة من أمم البشر ودياناتهم ، وإلا وعندها أمكنة مقدسة تشد إليها الرحال ، وتحث فيها المطي ، ولها طرق وعادات وتقاليد ، وآداب لهذا السفر الديني ، «والزيارة المقدسة» وذلك لأن هذا العمل إجابة لحاكم الطبيعة ، وتلبية لنداء الضمير ، فالإنسان كما قلنا لم يزل باحثاً عن شيء يراه بعينه ، ويوجه إليه أشواقه ، ويقضي به حنينه ، ويشبع به رغبته الملحة في التعظيم والدنو ، ولم يزل باحثاً كذلك عن عمل طويل شاق يكفر به عن ذنوبه الجسام ، وسقطاته الفاضحة ، ليتغلب به على وخز الضمير وتأنيب الحس الديني ولائمة المجتمع ، ولم يزل في حاجة إلى مشهد ديني عظيم ، يلتقي فيه على الأخوة الدينية والعاطفة الروحية ، لذلك لم تخل أمة من الأمم ، ولا دور من أدوار المدنية من أسفار دينية ، ومناسك مشهورة ومشاهد مقدسة يجتمع فيها الناس ، ويذبحون الذبائح ، ويقربون القرابين لله تعالى ، أو لآلهتهم ومعبوداتهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾[٢] وقال ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] وقد اكتشفت الآثار وعملية الحفر عن هذه المناسك والمشاهد في المدنيات البائدة ، والمدن المطمورة ، وتحدث التاريخ عن وجودها ، وعن بعض أخبارها ، ولكن

---

(١) مقتبس من تقديم لكتاب «حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ» للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي» بقلم أبي الحسن الندوي.

(٢) سورة الحج : ٣٤.

(٣) سورة الحج : ٦٧.

الاهتداء إلى حقيقتها وتاريخها ، والأحكام والآداب التي تتعلق بها صعب جداً ، فقد لا يرجع الباحث في ذلك ، إلا بقياسات وأخبار متقطعة مبتورة ، لا يستطيع أن يكون بها فكرة كاملة ، أو صورة واضحة :

والديانة اليهودية ، ثم المسيحية من أقرب الديانات إلينا ، وقد عاشتا زمناً طويلاً في عصر التاريخ والعلم ، وعُني بهما المؤرخون والمؤلفون ، ولا تزالان ديانتي أمتين كبيرتين نشيطتين في الثقافة والتأليف والسياسة ، والبيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد ملتقى هاتين الديانتين ، ومركزهما الروحي الأصيل ، والحج إليه قديم وأصيل عندهما ، ولكن لا يزال هذا الركن الديني الكبير يكتنفه الشيء الكثير من الغموض والاضطراب ، وقلة المعلومات ، (إذا قارنا ذلك بالحج الإسلامي ، الذي تشغل مناسكه وأحكامه وتفاصيله مكتبة واسعة هائلة ، وهو مدون تدويناً لا يجد فيه الباحث عناء) . وهنا خلاصة ما جاء في «دائرة المعارف اليهودية» المجلد العاشر[١] :

«إن الحج إلى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة (RE-YIAH) يؤدى في زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد[٢] وعيد الفصح (اليهودي) وعيد المظال) وكان الحج فريضة على جميع اليهود ، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم ، والإناث ، والعميان ، والعرج ، والضعفاء والمصابين بأمراض بدنية أو عقلية ، وكانت الشريعة الموسوية توجب على كل «حاج أو زائر» أن يأخذ معه «تقدمة للرب» ، ولكنها لم تعين

---

(١) جيويش انسائكلوبيديا (Jewish Encyclopaedia - Vol - See Pilgrimage).

(٢) جاء في دائرة المعارف اليهودية تحت عنوان عيد الحصاد : وهو من أعياد الحج الثلاثة التي كان جميع الذكور مكلفين فيه بالحضور في بيت المقدس ، اقرأ عنوان: (Pentecos).

المقدار ، وكان رغم إعفاء الإناث والصغار عن الزيارة ، كان يؤمه عدد كبير منهم مع الأزواج والآباء كما هو الشأن في الأسواق العامة ، ولا تخلو الروايات التي وردت عن عدد الزائرين في أزمنة مختلفة من المبالغة(١) ، وكانت الخرفان تذبح في عدد كبير ، وكانت جلود الذبائح تقدم إلى حراس الخانات الذين كانوا يقومون بخدمة الزوار وإيوائهم من غير مقابل.

ولم تنقطع عبادة الحج بعد تدمير «المعبد» أيضاً ، ولما فتح المسلمون بيت المقدس بقيادة صلاح الدين عام ١١٨٧م ، تسنى لليهود القاطنين في المنطقة الشرقية أن يزوروا بيت المقدس ، وما عداه من الأمكنة المقدسة (بين دمشق ، وبابل ، ومصر) وقد اعتاد اليهود في الشرق ولا سيما في بابل وكردستان من القرن الرابع عشر الميلادي ، أن يؤدوا فريضة الحج مرة في السنة ، على أقل تقدير ، وكان عدد منهم يقوم بهذا الحج مشياً على الأقدام ، وقد كانت الحروب الصليبية مشجعة لليهود في أوروبا على الحج والزيارة ، وفي عام ١٤٩٢م عندما أجلي اليهود من إسبانيا ، وهاجر عدد كبير منهم إلى مناطق المسلمين ، تضاعف عدد اليهود الزوار ، وربما كانوا يجتمعون على قبر النبي صموئيل في قرية الرامة(٢) ، حيث كانت تقوم أسواق عيدهم السنوي ، وتقام التقاليد الدينية.

يعاتب اليهود إخوانهم القاطنين في بلدان أخرى ، الذين ضعفت فيهم

(١) منها ، ما قيل أنه بلغ عدد الخرفان المذبوحة ، في عام بين ٦٣ ـ ٦٦م إلى ٢٥٦,٥٠٠ ، فإذا فرض أن خروفاً كان يساهم فيه عشرة رجال من الحجاج يبلغ عددهم إلى أكثر من مليونين ونصف ، حاج أو زائر ، ويذكر مصدر يهودي أنه بلغ عدد الخراف إلى ١٢٠٠٠٠ خروفاً ، وقد اعترف كاتب المقال في «دائرة المعارف» بأنه لا يخلو من المبالغة.

(٢) قرية في فلسطين (الجليل).

رغبة الحج والزيارة ، وزهدوا فيهما ، بينما ينتهز المسيحيون الفرص لزيارة الأرض المقدسة .

وللحج أيام معينة يسميها اليهود في الشرق وشمالي إفريقية أيام الزيارة ، وقد شاع فيهم أن يزوروا فيها قبور عظمائهم ، ومنهم من اشتهر كملك ، أو كنبي ، أو كصالح وولي ، وهم يحتفلون بهذه الأيام بالإكثار من الأدعية وإظهار الفرح والسرور ، شأنهم في الأعياد العامة ، ويجتمعون بين مساء اليوم السابع عشر من تموز إلى اليوم التاسع من «آب» ثلاثة وعشرين يوماً متوالية ، مقابل الجدار الغربي لهيكل «سليمان» ، وتبتدىء هذه العبادة في اليوم التاسع من آب ، من نصف الليل .

وهنالك مشاهد وضرائح وأمكنة محلية ، يشد إليها الرحال في كل قطر وبلد»[١] .

أما الحج والزيارة عند المسيحيين ، فهنا خلاصة لما جاء في «دائرة معارف الأديان والأخلاق» :

«الحج اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة ، مثل مشاهد الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين ، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في «روما» ، أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزهاد والشهداء .

إن الجيل المسيحي الأول لم يشعر بضرورة زيارة مشاهد المسيح والتبرك بها ، بالنسبة إلى المتأخرين الذين عنوا بذلك أكثر ، ولكن انتشرت هذه الزيارة من القرن الثالث المسيحي ، وقد شغف عدد كبير من المسيحيين بالبحث عن مشاهد المسيح وآثاره ، وزيارتها ، وعنوا بذلك أكثر مما عنوا بتتبع تعاليمه ووصاياه .

---

(١) راجع دائرة المعارف اليهودية . عنوان «Pilgrimage» .

وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة ، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً ، وكانت «روما» المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية ، يؤمها الناس للزيارة في عدد كبير وجم غفير.

إن الأسباب التي بلغت بها البابوية قمتها ، جعلت روما مركزاً للزيارة ، ولا سيما ، فإن ضريحي القديس بطرس ، والقديس بولس قد أضفتا عليها من العظمة والجلال ما جعلها مثابة للمسيحيين الكاثوليك في العالم كله ، وازدحموا فيها ازدحاماً كبيراً ، وقد كان إقبال الزوار عظيماً على سراديب الأموات (Cata Combs)[1] التي تقدس لأجل عظام الشهداء ، إن الزوار لم يتوقفوا عن زيارة «روما» في أي فترة من فترات التاريخ ، وقد جعلتها كثرة الكنائس والآثار التاريخية المقدسة محط أنظار الناس في كل زمان.

والقارىء يتخم بكثرة أسماء القبور والضرائح والمشاهد ، العامة في أرض فلسطين ، والمحلية المنتشرة في كل قطر أو ولاية ، أو بلد يقطنه اليهود والمسيحيون من زمن بعيد ، وصاحب مقال «الحج والزيارة» في «دائرة المعارف اليهودية» وفي «دائرة الديانات والأخلاق» يسرد أسماء ضرائح ومشاهد للصالحين والمقبولين في أقطار أوروبية وآسيوية مختلفة ، ويذكر الأيام والشهور التي تزار فيها ، وما لهذه الزيارات من آداب وتقاليد ، وإذا تأمل القارىء في مدى اهتمام اليهود والمسيحيين بهذه المشاهد ، وتقديسهم لها ، وتجشم الأسفار والمتاعب في سبيلها ، وكيف شغلتهم واستحوذت على مشاعرهم في كل زمان ومكان ، وكيف أثارت فيهم الغلو في التقديس والتعظيم ، حتى وصلوا إلى حد الشرك ،

---

(١) تقع أشهر هذه السراديب في الفاتيكان.

وعبادة غير الله ، عرف سر شدة إنكار النبي صلى الله عليه وآله وسلم على هذه العادة ، وإشفاقه من أن يتسرب ذلك إلى المسلمين ـ حملة لواء التوحيد إلى الأبد ، والأمة الأخيرة ـ وحرصه الشديد على أن يبقى ضريحه ومثواه الأخير بعيداً عن كل شرك وعبادة وغلو ، وكان ذلك هو الشغل الشاغل له في مرضه الأخير ، فقد روى البخاري عن عائشة وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قالا : «لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال : وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذِّر ما صنعوا». وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» ، وعن عائشة رضي الله عنها «أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية ، فذكرت له ما رأت فيها من الصور ، فقال رسول الله ﷺ : أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله»[١] ، وثبت عنه ﷺ أنه قال : «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٢] .

وقد ضيَّق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم السبيل في وجه تجشم السفر الطويل ، وشدّ الرحل إلى المشاهد والضرائح ، والأمكنة المتبركة بقوله المأثور المشهور : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ، ومسجد الرسول ، والمسجد الأقصى»[٣] ، فوقى بذلك أمته من

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب الصلاة ـ «باب الصلاة في البيعة» .

(٢) رواه مالك في الموطأ .

(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً .

الوقوع في فتنة المشاهد والآثار ، كما وقع فيها اليهود والنصارى ، والأمم الجاهلية ، وكانت فريسة الشرك والوثنية السافرة أحياناً كثيرة.

ولكن طوائف من المسلمين في القديم والحديث لم تعمل بوصيته التي لم ينسها في آخر عهده بالدنيا ، ولم تلق لها بالاً ، وافتتنت بالمشاهد والآثار ، وشدِّ الرحل إليها من بلدان نائية ، والعكوف عليها تبركاً وتعبداً ، افتتاناً عظيماً ، فكان ذلك تصديقاً لقوله ، وتحقيقاً لإخباره: لتتَّبِعُنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع[1] ، واغتصبت هذه المشاهد والضرائح ، ـ ومنها ما هو مكذوب ومزور ـ حظ المساجد ، وحظ المسجد الحرام في بعض الأحيان ، وقد جعلها الجهَّال في كثير من الأقطار «كعبة» يشدّون إليها الرّحال ، ويقصدونها من نواح بعيدةٍ ، وقد اتخذوها عيداً يعودون إليه في كل سنةٍ ويجتمعون في عدد كبير ، ويقيمون الأسواق.

وقد أجاد شيخ الإسلام تقي الدين بن تيميّة في وصف هذه الطوائف بجملته التاريخية البليغة ، «مشاهدهم معمورة ، ومساجدهم مهجورة»[2] والسائح في الأقطار الإسلامية يواجه هذه المشاهد والضرائح ، ومساحاتها الواسعة ، وأبنيتها الضخمة ، وقبابها الرفيعة في كل بلد يمر به ، ويرى هنالك من أعمال شركية كالسجود ، والنذور والذبائح ، وأدعية وسؤال من صاحب الضريح ، ما يندى له جبين الإسلام.

أما الديانات الهندية ـ بما فيها من البوذية والجينية والبرهمية ـ فقد

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قيل يا رسول الله ! اليهود والنصارى ، قال: فمن» (متفق عليه).

(٢) راجع ما قاله شيخ الإسلام في هذا الموضوع في الجزء الأول من منهاج السنة ـ ص١٣٠ ـ ١٣١.

كثرت فيها المشاهد والمعابد ، والأمكنة «المقدسة» المقصودة من النواحي والأطراف كثرة فاحشة بطبيعة الحال ، وهي الأمكنة التي يرون لها شرفاً عظيماً ، وقدساً خاصاً ، ويعتقدون فيها بركة لما حدث فيها من الوقائع العظيمة ، وأُكرم فيها بعض عظمائهم بالقُرب أو الكلام ، أو الوصول والمعرفة ، أو تجلت فيها بعض آلهتهم ـ كما يزعمون ـ تجلياً خاصاً ،وكثرت فيها الأعياد الدينية ، والمواسم والأسواق ، التي انصبغت بصبغة الدين.

وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدَّسة على ساحل نهر «الكنج» (GANGES) المقدَّس ، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل ، للاغتسال في النهر المقدَّس ، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً ، أو عدة مرات في السنة ، ومنها ما يجتمعون فيها بعد سنين ، كغسل (KUMBH) الذي يجتمعون له بعد اثني عشر عاماً ، عند ملتقى نهري «الكنج وجمنا» في برياك (PARAYAG)[1] ومن أشهرها مدينة «بنارس» في الولاية الشمالية ، على نهر «الكنج» ويعدُّون الاغتسال فيه كفّارةً للذنوب ، ومن أعظم الحسنات والقربات ، ويؤثرون الموت في هذه المدينة ، وتُنقل إليها جثث الموتى من النواحي البعيدة ، لتُحرق هناك ، أو تترك في النهر على اختلاف العقائد والعادات والطوائف الهندّية ، ومنها بلدة «اجودهيا» التي كانت مركزاً «لراما» (RAM CHANDER) و «متهرا» التي لها اتصال بتاريخ «كرشنا» (KRISHNA) ، ومنها «هردوار»[2] وكلّها في الولاية الشمالية الغربية ، وهنالك مشاهد وشواطىء ، ومعابد هامّة تُعدّ بالعشرات في شبه القارة الهندية ، تختلف فيها العادات والتقاليد باختلاف الأقاليم والمناطق ، وباختلاف الطوائف التي تدين بها.

---

(١) من ضواحي «إله أباد» المدينة المشهورة.

(٢) معناه باب المعبود ، أو باب الإله.

ومن أعظم المراكز المحجوج إليها عند البوذيين مدينة «كيا» (GAYA) في ولاية «بِهار» التي قضى فيها مؤسس هذه الديانة المؤلَّهُ «كوتم بده» (GOTAM BUDDHA) مدةً طويلةً ، وتشرَّف بالشهود أو المعرفة ، التي يسمونها «نيروان» (NIR VAN) .

والأعياد والأسواق التي تُقام في هذه الأمكنة المقدّسة ، وعلى الشواطىء ، مسرح الفوضى والجنايات ، ويتجلَّى فيها عدم النظام ، وعدم النظافة لكثرة الزوّار والقاصدين الذين قد يبلغ عددهم ـ خصوصاً في الأعياد والأسواق التي تُقام بعد مجموعة من السنين ـ إلى ملايين من النفوس ، رغم حرص الحكومة على إقامة النظام وقوانين الصّحة ، والوقاية من الأمراض ، وتقترن بتقاليد جاهلية ، وأعمال شركيّة ، وأساطير الآلهة والإلهات القديمة ، ومن إعجاز القرآن ، أنه لما ذكر حج البيت الذي بناه إبراهيم وحث عليه ، نعى على الشرك والوثنية والزور الذي تلوَّثت به المناسك ، وأعمال الحج والزيارة في الديانات والأمم الأخرى ، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾[1] .

هذه صورة مجملة لأساليب الحج والزيارة ، والرحلة الدينية في ديانات العالم الرئيسية ، التي لا يزال لها أتباع ومؤمنون يُعدّون بالملايين ، وملايين الملايين ، وقد كان شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي رحمة الله عليه ، عميق النظر ، وواسع الاطلاع ، غير مجانب للصواب والإنصاف ، إذ قال في كتابه «حجة الله البالغة» وهو يتكلم في موضوع الحج:

---

(١) سورة الحج: ٣٠ ـ ٣١.

«وأصل الحج موجود في كل أمَّة ، لا بدَّ لهم من موضع يتبركون به ، لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ، لأنها تذكر المقرَّبين وما كانوا فيه .

وأحقّ ما يحج إليه بيت الله ، فيه آيات بينات ، بناه إبراهيم صلوات عليه ، المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم ، بأمر الله ووحيه بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً ، إذ ليس غيره محجوج ، إلاَّ وفيه إشراك أو اختراع ما لا أصل له»[1] .

ويستطيع القارىء في سهولة أن يقارن بينها وبين الحج الإسلامي ، ويعرف مفارقات بينها وبين هذا الركن الرابع ، ويقرأ قوله تعالى ، ويحدِّث بنعمة ربِّه : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] .

دور الإسلام الإصلاحي في تشريع الحج :

وقام الإسلام ـ شأنه في الأركان الثلاثة الأخرى ـ بدوره الإصلاحي التجديدي في الحج ، وقد كان أهل الجاهلية قد أدخلوا في الحج عادات جاهلية ، وأموراً ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، واصطلحوا على أشياء ، وتواضعوا عليها من الزمن القديم ، فكان تحريفاً في الحج الذي شرعه الله على لسان إبراهيم ، وتوارثته قبائل العرب جيلاً بعد جيل جنى على كثير من مقاصده وفوائده ، وكانت الحمية الجاهليّة ، والنخوة القبليّة ، وما كانت عليه قريش من التفاخر والكبرياء ، وحرصهم على التميُّز ، هو الباعث الأكبر على هذه الزيادات والتحريفات ، فجاء القرآن والتشريع الإسلامي بإزالة هذه البدعة والتحريفات ، وإبطالها ، وقد

---

(١) حجة الله البالغة ج١ ـ ص٥٩ .

(٢) سورة الحج ـ ٦٧ .

تصدى القرآن الحكيم لكل بدعة من هذه البدع ، ولكل موقف من مواقف الجاهلية الدخيلة ، فاجتثّه ، واستأصل شأفته ، وأبدله بخير منه .

فمن ذلك أن قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجيج ، بل يقفون في الحرم ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقُطّان بيته ، ويقولون نحن الحُمس[1] ، وما ذلك إلاّ ليتميّزوا عن سائر الناس ، ويحافظوا على مركزهم الجاهلي ، وعلى ما كانوا يتخيّلون من سموّ وامتياز ، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي ، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس ، ويقفوا بعرفات ، وقال : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[2] ، روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها : «كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلمّا جاء الإسلام ، أمر الله نبيّه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ، ثم يفيض منها ، فذلك قوله «من حيث أفاض الناس» قال ابن كثير ، وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، والسّدي ، وغيرهم رضوان الله عليهم واختاره ابن جرير ، وحكى عليه الإجماع .

ومنها أن أهل الجاهلية ، كانوا قد اتخذوا الموسم سوقاً للتفاخر والمساجلة كما كان شأنهم في «عكاظ» و«مجنة» و«ذي المجاز» وكانوا ينتهزون كل فرصة للاجتماع وتلاقي القبائل للتطاول بالأنساب ، ومآثر الآباء وعدِّ المفاخر ، وكان الاجتماع في «منى» خير مكان لإرضاء العاطفة الجاهلية ، فنهى الله عن ذلك ، وأبدلهم بما هو خير منه ، وهو ذكر الله ، فقال : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ

---

(١) قال العلامة محمد طاهر الفتني في «مجمع بحار الأنوار» حمس هو جمع أحمس : وهم قريش ومن ولدته وكنانة وجديلة قيس ، لأنهم تحمسوا في دينهم ، أي تشددوا .

(٢) سورة البقرة : ١٩٩ .

ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[١] قال ابن عباس رضي الله عنه: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم ، فيقول رجل منهم ، كان أبي يُطعم ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾[٢].

ومنها أنّ الحج قد فقد على مرّ الأيام شيئاً كثيراً من قدسه وطهره ونزاهته ، وأصبح عيداً من أعياد الجاهلية ، ومكاناً للّهو والخصام ، فذمّ الله ذلك في القرآن ، وقال: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾[٣] قال ابن كثير ، قال عبد الله بن وهب ، قال مالك ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فالجدال في الحج ، والله أعلم ، أنَّ قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، وكانوا يتجادلون ، يقول هؤلاء: نحن أصوب ، ويقول هؤلاء: نحن أصوب ، هذا فيما نرى ، والله أعلم ، وعن محمد بن كعب قال: كانت قريش إذا اجتمعت بمنى ، قال هؤلاء: حجّنا أتمُّ من حجكم ، وقال هؤلاء: حجّنا أتمُّ من حجكم.

ومنها أنَّ العرب كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوا الهدايا والضحايا لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ، فقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا ﴾[٤] قال ابن كثير ، قال ابن أبي حاتم ، حدَّثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن أبي حماد ، حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج ، قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحقّ أن

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٠.

(٣) سورة البقرة: ١٩٧.

(٤) سورة الحج: ٣٧.

ننضج ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[١] .

ومنها أنَّ العرب كانوا إذا نووا الحج تحرَّجوا من دخول البيوت من الأبواب ، وكانوا يرون ذلك إثماً وتفريطاً في جنب الله وفي جانب الحج ، وكانوا يتسوَّرون البيوت من ظهورها ما داموا محرمين ، فأبطل الله ذلك ، ونفى أن يكون من أنواع البرّ ، وقال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾[٢] قال البخاري حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء ، قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾[٣] وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن أبي إسحاق عن البراء ، قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم ، لم يدخل الرجل من قبل بابه ، فنزلت هذه الآية .

ومنها أنَّ أناساً من العرب كانوا يستحيون ويتأثمون من أن يخرجوا للحجِّ مع زاد يبلِّغهم إلى البيت ويتجلَّدون ، ويتظاهرون بالتوكل ، ويقولون: نحن ضيوف الله ، ولا نتزوّد ولا نتبلَّغ ، وكانوا لا يتحرّجون من التسول والشحاذة ، والاستجداء ، ويعدُّون ذلك في سبيل الله ، فنهاهم الله عن ذلك ، وقال: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾[٤] قال ابن كثير ، قال العوفي عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة؛ يقولون: نحجُّ بيت الله ولا يُطعمنا؟! فقال الله

---

(١) سورة الحج : ٣٧ .
(٢) سورة البقرة: ١٨٩ .
(٣) سورة البقرة: ١٨٩ .
(٤) سورة البقرة: ١٩٧ .

تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ ما يكف وجوهكم عن الناس ، وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزوّدون ، ويقولون: نحن المتوكّلون ، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ .

وكذلك كانوا يتأثمون من التجارة في الموسم ، وذلك تحريم ما أحل الله ، روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم ، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١) في مواسم الحج، وعن مجاهد رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون : أيّام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ .

ومنها أنّ المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، ويقولون: لا نطوف في ملابس عصينا فيها ، فكان ذلك باباً لفساد عظيم ، وتشريعاً جاهليّاً ، فأنزل الله تعالى: ﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(٢) رواه مسلم والنسائي ، وابن جرير ، واللفظ له: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا يطوفون بالبيت عراةً ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول:

اليـوم يبـدو بعضـه أو كلـه   ومـا بـدا منـه فـلا أحلّـه

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(٣) وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية ، قال:

---

(١) سورة البقرة: ١٩٨ .
(٢) سورة الأعراف: ٣١.
(٣) سورة الأعراف: ٣١.

كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوأة ، وما سوى ذلك من جيِّد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، وقال ابن كثير ، وهكذا قال مجاهد وعطاء ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، وقتادة والسُّدي ، والضحَّاك ، ومالك عن الزهري ، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها ، أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراةً.

وقد قرن ذلك بأمر وتنفيذ من رسول الله ﷺ ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع ، وأمره بأن يعلن: لا يطوف بالبيت عريان ، وقد روى البخاري بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ أبا بكر الصديق بعثه في الحجة التي أمَّره النبي ﷺ عليها قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذِّن في الناس لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوفنّ بالبيت عريان»[1].

ومنها أنّ الطوائف من أهل العرب كانت تتحرَّج أن تطوف بالصفا والمروة ، وكانوا يرون ذلك من أمر الجاهليَّة ، فأنزل الله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾[2] قال عروة عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: قلت أرأيت قول الله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ قلت: فوالله ما على أحد جناح ألا يتطوَّف بهما ، فقالت عائشة رضي الله عنها: بئس ما قلت يا بن أختي ، إنها لو كانت على ما أوَّلتها عليه ، كانت فلا جناح عليه ألا يطَّوف بهما ، ولكنّها إنَّما أنزلت ، أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلُّون لمناة الطاغية التي

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ـ كتاب المغازي «باب حج أبي بكر رضي الله عنه بالناس».

(٢) سورة البقرة: ١٥٨.

كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلَّ لها يتحرَّج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسول الله إنّا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[1] قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما ، (أخرجاه في الصحيحين) ، وقال البخاري رضي الله عنه: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان ، قال سألت أنساً عن الصفا والمروة ، قال كنَّا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ، أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ .

وبهذه الإصلاحات البعيدة الأثر ردَّ التشريع الإسلامي هذا الركن العظيم ، إلى أصله الإبراهيمي ، ووضعه الأصيل النَّقي ، البعيد عن تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين[2] .

وقد أحسن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، إذ قال:

«اعلم أنه ﷺ بُعث بالأمة الحنيفية الإسماعيلية لإقامة عوجها وإزالة تحريفها وإشاعة نورها ، وذلك قوله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ولما كان الأمر على ذلك ، وجب أن تكون أصول تلك الملة مسلمة ، وسننها مقررة ، إن النبي إذا بعث إلى قوم فيهم بقية سنة راشدة ، فلا معنى لتغيرها وتبديلها ، بل الواجب تقريرها ، لأنه أطوع لنفوسهم ، وأثبت عند الاحتجاج عليهم»[3] .

---

(١) سورة البقرة: ١٥٨ .

(٢) استفدنا في هذا البحث من توجيهات أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله «في سيرة النبي» المجلد الخامس .

(٣) حجة الله البالغة ج٣ ص٥٦ .

الفهارس العلمية

١ـ فهرس الآيات القرآنية

سورة الفاتحة (١)

سورة البقرة (٢)

سورة آل عمران (٣)

سورة النساء (٤)

سورة المائدة (٥)

سورة الأنعام (٦)

سورة الأعراف (٧)

سورة الأنفال (٨)

سورة التوبة (٩)

سورة هود (١١)

سورة يوسف (١٢)

سورة الرعد (١٣)

سورة إبراهيم (١٤)

سورة الحجر (١٥)

سورة النحل (١٦)

سورة الإسراء (١٧)

سورة الكهف(١٨)

سورة مريم (١٩)

سورة طه (٢٠)

سورة الأنبياء (٢١)

سورة الحج (٢٢)

سورة الأحزاب (٣٣)

سورة فاطر (٣٥)

سورة الصافات (٣٧)

سورة ص (٣٨)

سورة الزمر (٣٩)

سورة غافر (٤٠)

سورة فصلت (٤١)

سورة الشورىٰ (٤٢)

سورة محمد (٤٧)

سورة الحجرات (٤٩)

سورة ق (٥٠)

سورة الذاريات (٥١)

سورة الحشر (٥٩)

سورة الجمعة (٦٢)

سورة التغابن (٦٤)

سورة الملك (٦٧)

سورة المعارج (٧٠)

سورة الجن (٧٢)

سورة المزمل (٧٣)

٢ـ فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث **الصفحة**

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ث -

- ح -

- خ -

- ر -

- س -

- ص -

- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

ـ ل

-م-

٣ـ فهرس الأبيات الشعرية

٤ـ فهرس الأعلام

ـ أ ـ

- غ -

- ن -

- هـ -

- و -

فهرس الأعلام
الواردة باللغات الأجنبية

٥- فهرس الكتب والجرائد والمجلات والمحاضرات الواردة في الكتاب

- د -

- ر -

- ز -

- س -

- ص -

- ع -

- ق -

- م -

- ن -

- ي -

٦ـ فهرس القبائل والأمم

٧- فهرس الأماكن

أسماء الأماكن الواردة باللغات الأجنبية

٨ـ فهرس الموضوعات

الصـــلاة

الزكـــاة

الصيام

الحج